حياة الياقوت

لؤلؤ

رواية

الخميس ٢ آب (اغسطس)

الطبعة الثانية

كَاللُّؤلُؤ

(رواية)

حيـــاة الياقـــوت

الطبعة الأولى (طبعة ورقيّة)، ١٤٣٣ هـ، ٢٠١٢ م.
ردمك : ٩٧٨-٩٩٩٦٦-٠-١٠٧-١

الطبعة الثانية (طبعة إلكترونية منقّحة)، ٢٠٢٥.

©جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة.
يمنع نسخ أو نشر أو استعمال أو تخزين واسترجاع هذا الكتاب أو أية أجزاء منه بأية وسيلة كانت إلا بموافقة كتابية مسبقة من المؤلفة.

ملاحظة:

تحتوي هذه النسخة الإلكترونية من الكتاب على بعض الصفحات الفارغة، وهذا كي تطابق صفحات النسخة الورقية للكتاب.

المحتويات

إهداء ٧
إليهم وعنهم ٩
ليست أنا (مقدمة) ١١
توضيحات حول العاميّة ١٤

الجزء الأول: غيوم جَذلى تتبدّد

الرَوْض الموعود ١٧
الحقنة الفارعة ٢٣
الروض المحروق ٢٩
مقتطف مختطف (١) ٣٧
أرحنا بها يا طلال ٤١
«ثاعة» لعبي ٤٧
مع حمد قلم ٥٥
ألعاب إرهاب ٦٩
مواجهة سرمدية ٧٧
بالقفزة الفنية القاضية ٨٥

الجزء الثاني: مرتفع شـ/ـجوي

التكويت والبسكويت ٩٣
عقوق الهدية ٩٩
ديموقراطيسية ١٠٣
على باب «الاحتياط» ١٠٧
موقعة الاستخبار ١١٧
مقتطف مختطف (٢) ١٢٥
الممحاة العظيمة ١٢٩
المصحف الوردي ١٣١

الجزء الثالث: غبار عالق

شهور اليُتم ١٣٥
إعادة تدوير التراث ١٤١
ذهب وثلج ١٤٥
بيض وبوظة ١٥١
{... هذه الشجرة ...} ١٥٥
حليق الرأس والرمش ١٦١

الجزء الرابع: الرؤية متعذّرة

حجاب وحجاب ١٦٩
سيل الرُشَى ١٧٣

ماما أنيسة ١٧٧
أرض الملح والسكر..... ١٨٣
مقتطف مختطف (٣) ١٩٢
مدرسة جديدة ١٩٧
قرقيعان ٢٠١
العيد أفلَّ هلاله ٢٠٥

الجزء الخامس: ريح السَّموم

استخارة..... ٢١٣
سبع شرائط في شعري ٢٢٧
مقتطف مختطف (٤)..... ٢٤٥
نبيل شميّل..... ٢٤٩
وخز أليف..... ٢٥٧
فجر الانعتاق ٢٦٣

إهداء

أماه، لأن الحياة بك أجمل.

إليهم وعنهم

إلى جيل الثمانينيات،

إلى الذين نشؤوا على مسحوق الكاكاو، ومدهون الشوكولاتة، وقرمشوا ألواحها بأسنان «تلمع كاللُّولُو»، أو كانت يوما كذلك!

كلمة السر:

حنين.

ليستْ أنا!
(مقدمة)

أليس بغيضا أن أكتب مقدمة أشبه بعريضة دفاع؟ لكن هل وُجدت المقدمات إلا لتحطيم سقف توقعات القراء وصناعة سقوف أخرى لهم، أو تركهم يرفرفون بلا سقوف ولا قيود. أليس رائعا أن تقرأ رواية دون معرفة مسبقة بما ينتظرك؟ أن تقرأ وفي جيبك كل الدهشة الممكنة، وعلى جبينك طيف الانفعالات غير منقوص؟ المقدمة الصادقة تحررك من ربقة التوقع، وتهبك الأفق.

وكل هذا لا يستقيم لمن يقرأ رواية، ويظن أنها سيرة ذاتية. مَن عرضت عليهم مسودة الرواية ظنوا جازمين، أو جزموا ظانين أنها قصة طفولتي. ربما لأن الشخصية الرئيسة ولدت في ذات العام الذي ولدت فيه، وربما لأن السرد جاء مباشرا بلسان المتكلم. كثيرة هي الربّمات هنا.

كدت في مرحلة من المراحل أغير أسلوب السرد، وأضع راويا للحكاية بدلا من أن تكون البطلة هي الراوية كي أتخلص من التهمة، لكني تراجعت لأسباب منها أن هذا يفقد الرواية حميميتها وجوها الخاص، كما أن هذه التهمة ليست بهذا السوء حتى أنفيها عن نفسي.

ثم من قال أن التقارب بين الكاتب وشخصياته جناية أدبية؟ لا أنفي أن ثمة ذاتية ما في هذه الصُفيحات، فالرواية تنضح بذكريات وتفاصيل من مرحلة الثمانينيات من الصعب أن يحيط بها شخص لم يعش فعلا في تلك الفترة. إلا أن هذا لا يعني أن الرواية تسجيل لمواقف مرت بي شخصيا، لا لشيء سوى أن ذاكرتي ليست بهذه الحدة والشدة.

لكن، هناك بضعة مواقف حدثت بالفعل لي واستعرتها من طفولتي؛ فجزء من فصل «مع حمد قلم» حقيقي! لقد حاولت -سأمًا لا ألمعية- حينما كنت في الصف الأول الابتدائي التخلص من النسخ الممل الذي كلفتنا به معلمة اللغة العربية بتلك الحيلة، وغضبت مني المعلمة وشدت أذني. لكن هذا لا يعني أن بقية تفاصيل ذلك الفصل أو الرواية كلها سجل لطفولتي. وفي منتصف أغسطس ١٩٩٠ هربنا عبر الصحراء، وهذا كان باعثا وراء فصل «سبع شرائط في شعري» وهو أحب الفصول إلى قلبي في الرواية. لكن تفاصيل السرد مختلفة، فما حدث في الواقع أسوأ بكثير مما ورد في الفصل، فقد تعطلت سيارتنا بقرب دبابة معمورة بالجنود!

العمل الروائي شيء شبيه بعملية «التناضح العكسي»، جزء من الكاتب يتسرب إلى الرواية، لكن وحين إتمام الرواية، جزء من الرواية أيضا يتسرب إلى الكاتب ويصيغ نفسيته ويصبغ مزاجه بلون جديد لذيذ. هذه رواية كبرتْ معي وكبرتُ معها خلال فترة استمرت أكثر من ثلاث سنوات.

أما إذا كنتم مصرين بعد كل هذا أني أنا البطلة، فهذه شهادة رقيقة أشكركم عليها حقا. فهي تعني أنكم تجدون في الرواية شيئا -قليلا أو كثيرا- من الصدق.

هذه المقدمة لم تكن لإخباركم عما تحتويه الرواية (فهذا واجبكم)، بل كانت لتعريفكم بما ليست الرواية عليه (وهذا واجبي)، وبين الواجبين آفاق منعشة.

توضيحات حول العاميّة:

- وردت بعض الكلمات العاميّة في الرواية لضرورة نقل الأجواء. وقد حرصت على كتابتها بأقرب طريقة ممكنة للفصحى؛ فكتبت الجيم جيما رغم أنها تنطق ياء في لهجتنا، وكذلك الأمر مع الكاف التي تنطق كافا مكشكشة.

- بعض الكلمات في اللهجة الكويتية تبدأ بالساكن، ونضيف عند نطقها همزة وصل قبلها، نحو «خْبيزة» تنطق «اخْبيزة». لكن وللمحافظة على الكتابة الأقرب للفصحى، لم أضع همزة الوصل قبلها.

- استعملت الحروف «پ»، و«چ»، و«ڤ»، و«گ»، لكتابة بعض الكلمات غير العربية. ولست من دعاة استعمالها إلا للنقل الصوتي الأمين للكلمات الأجنبية، فذلك أفضل من إتراع السطور بكلمات أجنبية مكتوبة بالحرف الإفرنجي. ولكن ستلاحظون أني اضطررت في بعض المواضع إلى كتابة كلمات أو عبارات بالحرف الأجنبي، وذلك لأن النقل الصوتي قد يصعّب على القارئ معرفة المقصود نظرا لطول الكلمة، أو عدم إيلاف القارئ إياها.

ملاحظة لغوية:

أجدني مجبرة على التوضيح أني اخترت في الرواية تأنيث الصفات التي على وزن مِفْعَال وفَعُول، وذلك حتى لا يظن أني أجهل القاعدة. من عادة العرب ألا تؤنث الصفات التي على هذين الوزنين، ولم أقف على سبب وجيه متعلق بالمعنى أو الفهم كما في تفرقتهم بين فاعل وفاعلة (مثلا مرضع ومرضعة، وحامل وحاملة)، بل هو التعود وحده. وقد حان وقت قتل العادات الضارة!

(١)

عُيونٌ جَذلَى تَتَبَدَّد

الرَوْض الموعود

الكويت، ١٩٨٥

كان أبي مسافرا لفترة وتأخر في تسجيلي. يحوم في رأسي همٌّ مطبق ومقلق ألاَّ أُقبل. تصبّرت وتربَّصت لأعرف {... بِمَ يرجع المرسلون}.
كلهم ذهبوا إلى الروض الموعود، وأنا؟ متى؟! أريد أن أرتدي الأزرق والأبيض بدوري، أريد أن أدّعي أني «تلميذة نشيطة، تصحو في الصباح، تذهب بانشراح». متى يا روض أراك؟ متى انعتق من التوق والشوق؟

وذات يوم، صرخ الكون:
الطفلة اللطيفة «خيال محمّد جاسم الفكّار» سُجِّلتْ في كشوف السعداء.
«خيال، ستذهبين إلى الروضة بعد أشهر.» جاءني البشير.
سأذهب إلى الروضة؟ إلى الروض الموعود؟ يا لقفزاتي حينها، ولست أدري أيهما أَقْفَزُ من الآخر، قلبي أم قدماي؟ قفزت حتى أرهقت الأرض من تحتي، قفزت وافتر ثغري عارضا للدنيا صفوف الأسنان اللبنيّة البريئة التي تعتمر في فمي.
«أسنانك تلمع **كاللُّولُو** ويفوح شذاها كالأزهار.»[١].

١: مقطع من أغنية «أسنانك تلمع كاللُّولُو» في برنامج «سلامتك» الصحي الذي كان يبث تلفزيونيا في الثمانينيات.

ذاك اليوم كان أبعد ما يمكنني تذكره. وكأنّه اليوم الأول في حياتي، لا شيء في الذاكرة قبله.

* * * * *

ما أرحمك يا رب، فكيف كان حالنا لو تذكرنا نخسة إبليس -عليه لعائن الله- لنا يوم وُلدنا، والشهقة الأولى، وصرخة المغادرة المبرحة؟ كيف لو تذكرنا حبونا على الأرض الخشنة، ومحاولات وقوفنا الخرقاء، وسقطاتنا الفجيعة؟ كيف لو تذكرنا ألم حقن التطعيم، والضيق الذي يسببه لنا الحفاض، وطعم الحليب المكرر، ومقاساة بزوغ الأسنان الأولى. كيف كان سيكون؟

آه من الذاكرة حين «تتنَوْخَذ»[٢]؛ تأمر هنا، وهناك، وهنالك. تحرك الدفة وتأمر تلك الذكرى فتغوص لتجلب اللؤلؤ، وتأمر الأخرى فتنشد وتترنم مع هواء البحر المالح، وتنهر ثالثة فتغطس، أو تقطع عنها الحبل فتفطس!

الذاكرة أمهر نوخذة، ولهذا نراها تَحْكُم عباراتنا وتُحكِم قبضتها على نواصينا، فالبشرية حتى الآن لم تخترع دواءً مسكِّنا للذكرى؛ كلنا يا سادة ضحايا لها.

أما كان أجمل وأسلم لو أننا كنّا لا نتذكر؟

من مذكرات بابا جاسم، ٤ ديسمبر، ١٩٨٠

٢: النوخذة قائد السفينة، ومنه -على ما يبدو- اشتق جدي الفعل يتنوخذ.

أحضرت أمي دفترا في اليوم التالي، وكانت جارتنا تزورنا، فسألتني:
- ستذهبين إلى الروضة يا لولو؟
نظرت إليها بطرف عيني، وابتسمت ابتسامة إيجاب خفراء.

- ما رأيك يا وسن، هل أعلمها كيف تكتب اسمها؟
- حسنا تفعلين.
- هل أعلمها كيف تكتب اسمها الكامل؟
- لا، لا. حذارِ، ستختلط عليها الأمور. علميها كتابة اسمها الأول فقط.

يا إلهي! من أذن لهما بالحل والعقد؟ ألم تبصرا الجدران التي وصلت إليها يداي الزاحفتان؟ أيا قوم شاهدوا جرائمي الحائطية، ولا تغرنّكم هذه الخطوط الرديئة المتعرجة والخربشات الهيروغليفية. دققوا وستجدون أني رسمت اسمي فيها استعدادا للقاء الروض الموعود. هل نسيتم اللوحة التي زيّنتم بها جدار غرفتي وفيها اسمي مكتوبا بخطيّ الرقعة والنسخ؟ ألا تعلمون أني حفظتها عن ظهر قلب؟ وما أدراكم أيها الكبار عن شوقي للروض الموعود؟ كنت أكتب اسمي معكوسا من اليسار إلى اليمين على الجُدُر، كنت أكتبه بيدي اليسرى معكوسا على محوره الأفقي، أي أنه كان عليكم أن تضعوا مرآة أمام الاسم لتفطنوا إليه! لكنَّه اسمي أغرّده وأصدح به أنّى شئت.
شيء ما يعقد لساني، يجبرني أن أكون مهذبة ولطيفة ومطيعة. لم أجرؤ أن أفصح أني أجيد كتابة اسمي كاملا.

قررت أن أعامل أمي وجارتنا على قدر عقليهما، وأن أدعي أني لا أجيد كتابة اسمي، وأن لهما الفضل في تعليمي ذلك. التعامل مع الكبار مشكلة، عليك أن تتعلم فنون المسايرة والتغافل حتى تتمكن من التعامل مع هذه الكائنات!

«شاطرة، يا خيال، شاطرة.» قالت أمي.
«إذا سألك أحد هل تعرفين كيف تكتبين اسمك، قولي له نعم.» قالت لي جارتنا وسن.
رفعت ذقني إلى أقصى ما أستطيع، ثم هززته وأنا أضحك بنشوة بريئة، لا غَوْل فيها ولا لَغْو.

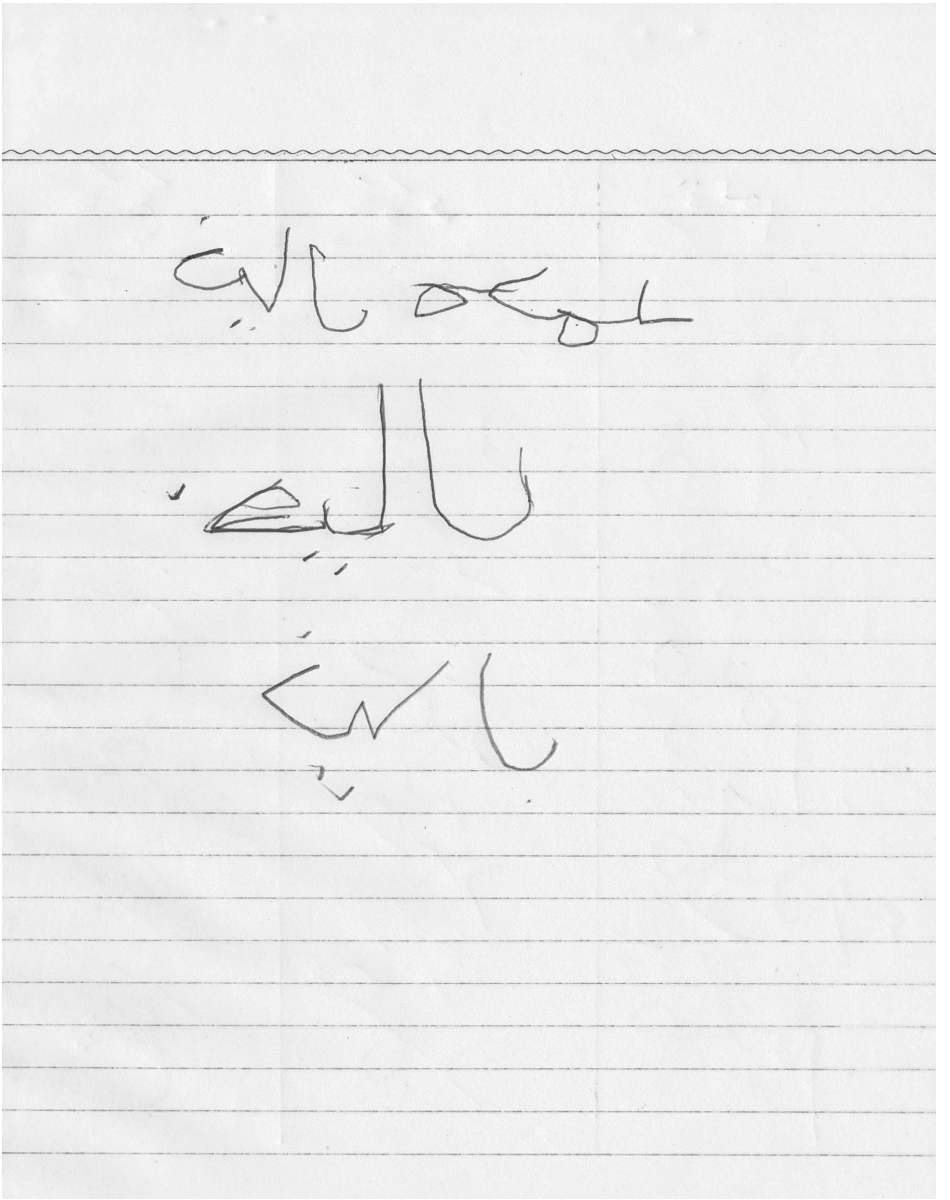

هكذا كنت أكتب اسمي معكوسا!

THURSDAY
4
December

الخميس

٤ كانون أول
(ديسمبر)
٢٧ محرم

ما أرحمك يا رب ، فكيف كانت حالنا لو تذكرنا
نحن إبليس - عليه لعائن الله - لنا يوم وُلدنا ؟
و الصفعة الأولى ، وضوضاء عاذرة المدرسة ؟
كيف لو تذكرنا ألم حقن التطعيم ، والضيق الذي
يسببه لنا انقباض العضل ، وطعم الحليب
المعكر ، وقساوة يد نروغ الأساسية الأولى .
كيف كانت سيكون ؟
كيف لو تذكرنا جوعنا على أرض الغرفة ، وعاوية وحوضنا
المكرتاء ، وسقطاتنا الفجيعة ؟
آه من الذاكرة حين تتوقد ! تأمر هنا وهناك
وهنالك . تحمل الدفة تارة لتلك الذكرى تتغطس
لتجلب اللؤلؤ ، وتارة أخرى تنتشي وتسكرنا
مع هذا البحر العالج ، وتنهر الأخرى تتغطس ، أو
لتقطع ! كيف لنا نتغطس ! الذاكرة أمهر نوتية ،
ولهذا نراها تحكم عبر أنا وتحكم قبضتها على نواصينا
فالبرية حتى الآن لم تفرغ وباؤها من سكنا للذاكرة ، كما لنا
يا سادة صحابها .
ما كانت أجمل وأسلم لو أننا
كنا لا نتذكر ؟

صفحة من مذكرات جدّي

الحقنة الفارعة

في اليوم التالي، أعدت رفع ذقني إلى أقصى ما أستطيع، لكني لم أهزَّ رأسي فقد طلب مني طبيب المستوصف أن لا أتحرّك. أخذ يجس عنقي ويعاين حنجرتي، ثم طفق يحادث والديّ بالإنكليزية رغم أنه عربي، وهذا من واقع خبرتي المتواضعة يعني الشر المستطير. لم أكن أفقه ما يقولون، لكن «لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين». لقد عرفت الكلمة المشؤومة، فأصخت السمع لأطلق ساقي للريح متى ما سمعتها!

قلها يا دكتور. قلها، فإني أعرف مخططك الشرير! قلها، فإني أعرف أن «إنجكشن» تعني أنك عقدت العزم أن توّجه لي حقنة مؤلمة. قلها، ولا تتفذلكوا كثيرا في أحاديثكم أيها الكبار، فكل مخططاكم مكشوفة. لا تسألوني كيف حفظت الكلمة بين عشرات الكلمات التي تنتجها شفاهكم الكبيرة. لا تسألوني، لأني حتى اليوم لا أعرف.

لمْ يقلها! بل ناولنا ورقة، وخرجنا. فسألتُ أبي:

- لا حقنة؟

- لا حقنة.

- حقا؟

- أجل، وسنذهب إلى البقالة وسأشتري لك علبة حظ»[٣].

لا حقنة، و«حظ»؟! أيمكن أن أكون مسعودة إلى هذه الدرجة؟ شفّعتُ الشك لصالح أبي، وجمّدت مخاوفي وابتهجت باللحظة. لكن، لا بد أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود. والعارض الذي ظننته ممطرني، تبين أنه {... ريح فيها عذاب أليم}!

* * * * *

في الصباح التالي، ألبستني أمي ثيابي وأخذت معها حقيبة. جاء أبي وانطلقنا إلى مكان ما.

«إلى أين يا أبي؟» سألتُ.

لم يجب أبي، وأخذ يسعل. لم يكن يسعل ليتهرب مني، فنوبات السعال هذه تزوره أكثر من مرّة في السنة. كان يكابر ويأبى أن يتذمّر. لماذا على الرجل أن لا يشتكي، وأن لا يمرض، وأن لا يتألم، وأن لا يبكي؟ أتراه أيضا يخاف من الحقنة إن هو اعترف بأنه مريض؟ لا أظن ذلك، فلا يخاف من الحقنة إلا صنفان من الناس، الأطفال -أو من ما يزالون أطفالا وإن كبروا-، والكبار حين يردون إلى أرذل العمر فيكونون كالأطفال مجددا.

أبي إنسان غامض، هذا السعال الغريب، وتلك المكالمات السرية التي ضبطته متلبسا بها أكثر من مرة. أبي يخفي الكثير تحت سطح نفسه. لعلّه عناد الرجال وكبرياؤهم. ألا ليته تخلى عن شيء غموضه، لكان هذا ...، سأخبركم لاحقا بقصة الشك التي قضمت أربع سنوات من علاقتي بأبي.

٣: الحظ: علبة كرتونية صغيرة فيها بعض الحلوى وهدايا بلاستيكية وصور. لا يُعرف محتواها إلا حين فتحها، لهذا تسمى بالـ«حظ» بسبب عنصر المفاجأة. وكانت قديما تسمى «حظك نصيبك»، ثم صارت تسمى اختصار بالـ«حظ».

أخذت أُلِحُّ وأُلِحُّ:

- إلى أين سنذهب يا أبي؟

- مشوار.

- إلى أين؟ المدينة الترفيهية؟

- لا.

«محمّد انتبه، أنت تسرع كثيرا! لولو، لا تتكلمي كثيرا، وإلا آلمك حلقك أكثر.» أوصتْ أمي بحزم، ثم همست لأبي بشيء.

مررنا بقرب مجموعة من الخيام التي تتزاحم في الساحات الترابية في إحدى المناطق السكنية.

«ما هذه؟» سألتُ أمي.

«انتخابات.» أجابت.

وظننت أن الانتخابات كلمة تطلق على الخيام التي تنصب في المناطق السكنية، أما التي تنصب في البر فتسمى خياما!

صمتُّ قليلا أتفكر في شأن الخيام. ثم عاد الفضول يباغتني، فوجهت سهام السؤال إلى أبي مجددا:

- سنذهب إلى الحديقة؟

- لا.

- إلى «نحن والأطفال»[٤]؟

- لا.

وواصل أبي الصدود. هيّا! ردّ عليّ يا أبي بغير «لا». ردَّ على ولو بنصف إجابة،

٤: نحن والأطفال Kids 'r' Us: محل لبيع ألعاب الأطفال اشتهر في الثمانينيات. وقد أقيم على غرار محلات Toys 'r' Us الأمريكية.

ولو بإجابة بلقيسية عائمة وقل لي {... كأنه هو ...} حين أذكر لك مكانا. لا تتركني في حيرتي.

«بابا! بابا! إلى أين سنذهب؟» قلتها بصوت متهدّج ومزاج مُعتكر، واستعدت ملامح وجهي لنوبة من البكاء.

«إلى الروضة.» أجاب أبي بنبرة مترجرجة.

حقا؟! حقا؟ {... أحقٌّ هُو ...}؟

أردت أن أقفز كالمرَّة الفارطة، لكنّ قدميّ لم تحملاني لشدة مرضي. قلبي كان أشد قفزا، كان يقفز بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن قدميّ.

* * * * *

وصلنا إلى مبنى مخيف وكئيب. أهذا تراه الروض الموعود؟ ولجنا، والجُدُر رمادية، ولجنا. ثم وقفنا عند مكتب الاستقبال. لكن ثمة أمر مريب، أين بقية الأطفال؟

جاء الفرج أخيرا؛ ألمح طفلا. لكن لِمَ تُراه يرتدي «دشداشة»[٥] البيت؟ هل من المسموح لنا أن نرتدي ما نشاء في الروض الموعود؟ مهلا! ما الذي يحدث؟! أين ثوبي الأزرق الذي خاطوه لي لأجل هذه المناسبة؟ أين القميص القطني الأبيض ذو الياقة المزركشة؟ لعلهما في الحقيبة. ولعل أم هذا الطفل أيضا تحمل له ثوب التتويج في حقيبة ما.

انتظرنا طويلا، طويلا، حتى ينهي أبي الإجراءات الورقية. كانت اللحظات ثقيلة؛ والأمل المتحرّق للتحقق يخز لوزتيّ المتورمتين.

٥: دشداشة: ثوب يلبسه الرجال في الخليج وهو أبيض اللون غالبا في الصيف، ملّون شتاء. ويوجد منه طُرُز تُلبس في البيت، وأخرى لخارجه.

أوليس طريفا ومُرّا أننا شعوب شفهية، ورغم ذلك نبالغ في الإجراءات المكتوبة؟ فلا يمكن أن تنجز شيئا -يمكن إنجازه بمكالمة هاتفية أو بإجراء مبسَّط- إلا بورقة وختم، بل وربما لجنة. أترانا نعوّض -لاشعوريا- عن تلك بهذه؟!

من مذكرات بابا جاسم، ٧ نوفمبر، ١٩٧٧

سرت أتبع والديّ. وحين دلفنا غرفة ما، رأيت سريرا وعلاقا حديديا مثل الذي يعلق عليه المُغَذِّي في المستشفيات، إلا أن هذا كان صدئا.

هل سيفحصني طبيب الروضة هنا؟ هل سيقيس طولي، ويعاين أسناني اللبنيّة الصغيرة، مثل طبيب الروضة اللطيف في القصة المصوّرة التي قرأتها لي أمي مرات ومرات قبل النوم؟

هل سيُبهر الطبيب بجمال أسناني، فيتخلّى عن وقاره ويغني لي:

«أسنانك تلمع **كاللُّولُو**، ويفوح شذاها كالأزهار،

علمنا كيف تنظفها، لننظفها ليلا ونهار.

فرشاة تأخذ أم مسواك؟

علّمنا كيف تنظفها، نظّف لنراك.»[٦]

نظرت أمي بإشفاق إلى الأسئلة اللذيذة المختمرة في عيني، وقبّلتني. مسح أبي على رأسي وتجنب النظر في وجهي. ثم دخلت ممرضة وفيها يديها صينية من المعدن وفيها حقنة ذات نصل يرمقني بنزق. حقنة فارعة الطول، بل من أطول ما رأيت في حياتي كلها. وأوصدتْ الباب.

٦: مقطع من أغنية برنامج «أسنانك تلمع كاللولو» المذكورة آنفا.

تجاهلت الأمر لوهلة وأخذت أقنع نفسي أنها ليست لي. لكن الممرضة حادثت والديّ بالإنكليزية، وفي خضم الحديث السريع، سمعتها، أجل هذه المرة سمعتها، «إنجكشن»! «إنجكشنٌ»، ولا تنسوا تنوين الضم على النون، لا تمنعوها من الصَرف فالمصاب جلل! تقترب الممرضة، فأصرخ كمن لسعه سوط لُخمة. مات الروض الموعود في خِدْرِه. صار روضا مفقودا خَرِبًا.

أيها الكبار، ألم الـ«الإنجكشن»، عفوا أعني الحقنة، مهول. لكن كان عليكم أن تسمعوا صوت أحلامي الطفوليَّة وهي تتحطم لتعرفوا أنه لا ألم أكبر من ألم الخديعة. لا تكذبوا على صغاركم رجاءً. ثم ألستم أنتم من تقولون لنا أن الكذب حرام؟!

أمضيت أسبوعا في المستشفى الرمادي، مع كوابيس الحقن اليومية. كنت معلقةً بالنقطة الفارقة بين الشفاء والشقاء.

هذه كانت كذبة أبي البيضاء. الكذبة-البيضة التي فقس منها كتكوت أسود من أكلة لحوم البشر!

الروض المحروق

سبتمبر، ١٩٨٥

أزفت ساعة اللقاء. لكنه ما عاد الروض الموعود، هو الآن مجرد روضة. كان اسمها «روضة الأمل». اسمها كان حقا كذلك، ولا تخلطوا بينها وبين روضة الأمل الخاصة ببشار. هل تذكرونه؟

«بشّار يا بشّار *** هيا إلى العملِ،
اجمع لنا الأزهار *** من **روضة الأملِ**»

دخلت مبنى الروضة مع أمي أمشي «كما يمشي الوَجِيّ الوَجِل». ولمحت ذاك المسبح ذا البلاط الرمادي. كان خاليا، ومتسخا، ومترعا بأوراق أشجار الخريف الهالكة، ومحاطا بسياج حتى لا يسقط فيه أحد. أتذكر بلاطه الرمادي جيدا، فقد كان بلون تلك الجدر التي رأيتها في المستشفى.

وأخذ المسبح المهجور منذئذ يلاحقني في أحلامي. فتارة أراني أغرق في كومة من الأوراق الخريفية التي ملأته ولا أستطيع الخروج، وتارة ينخلع بلاطه الرمادي ويتشكل بشكل القائد «گاندال»[٧] الذي يختطفني إلى كوكب «ڤيگا» حيث يبدأ سكان الكوكب باختلاق الأكاذيب والاستهزاء بي. وفي هذا الكوكب، يحرس زنزانتي الكائنان المريخيان اللذان ظهرا مرة مع أنيس وبدر

٧: القائد گاندال: شخصية شريرة في مسلسل الرسوم المتحركة « گرانديزر».

في «افتح يا سمسم» واللذان كانا يقولان «يَبْ يَبْ يَبْ يَبْ يَبْ يَبْ يَبْ، آها، آها»، ويعاونهما «الأرنب الجائع»[٨] الذي استطال سناه العلويان وصار من الأرانب الآكلة للحوم البشر، فحاول التهامي.

* * * * *

وصلنا برفقة مزاجي السوداوي الذي يزاملني ويزمّلني مُذ ولدت في داخلي تلك الرغبة في الانتقام من «الكبار». ودّعتني أمي وأودعتني مع «أبلة»[٩] سلمى. بالمناسبة، حين صرت في المرحلة الابتدائية كنت أظن أن «أبلة» هي مؤنث «إبل»، لما يمتاز به كلاهما من صبر! ما أكثر وأغرب ظنوني الطفولية! أدخلتني المعلمة إلى الفصل، وأجلستني بين الصغار. قبعتُ أتمترس بحقيبة زهرية فيها شتى صنوف الحلوى العذبة والمعذّبة، وبمَطْرَة مرسوم عليها «سنفور».

كنت أكلم حفيدتي «خيال» عن الجنة ونعيمها، وكيف أن الله يعطي المؤمن الذي يدخل الجنة ما يشاء. فاستدارت عيناها فرحا، وقالت لي: «أريد في الجنة العيشَ في قرية السنافر»!
هذه الكائنات المتقزّمة المعمورة بالإيديولوجيا. زرق كلباس الزعيم الصيني «ماو تسي تونگ»، ويعيشون في الغابة حياة شيوعية مع قائدهم

٨: الأرنب الجائع: مطعم للوجبات السريعة اشتهر في فترة الثمانينيّات، شعاره أرنب مبتسم له قاطعان أماميان بارزان.

٩: أبلة: كلمة تركية تستخدم لمخاطبة المعلمة في الكويت، وأصل الكلمة تركي وتعني الأخت الكبيرة. أما في الفصحى فالأَبْلَة هي الحاجة والطلب فيقال «مالي إليك أَبِلة»!

ذي اللحية الماركسية واللباس الأحمر الشيوعي «بابا سنفور». أما الشرير في الحكاية فهو الرأسمالي «شرشبيل» الذي يطمح إلى أكل السنافر تارة، وإلى تحويلهم إلى ذهب تارة أخرى. أما «البروليتاريا» فهي بلا شك القط الكادح «هرهور» الذي لا يحظى إلا بالفتات، والركلات، واللعنات.

من مذكرات بابا جاسم، ١٥ يوليو، ١٩٨٨

* * * * *

انشغلت المعلمة عنّا قليلا؛ كانت تعد لحفلة «النُون»[١٠] بمناسبة دخولنا الروضة. أخذ بعضنا يتأمل في بعض. بعض الأطفال يتبسّمون لبعضهم على استحياء، وبعضهم يقبع الطير على رؤوسهم فيجلسون مشدوهين برهبة اليوم الأول، في حين يحاول بعضٌ قليل المشاكسة في خفاء. أما أنا، ويا لتعكر مزاجي يومها، نظرت إلى الطفلة التي تجلس بجانبي. كان شعرها مصفّفا على شكل ضفيرة فرنسية. وهذه الضفيرة تختلف عن الضفيرة العادية، فمع كل خصلة تُضفَّر يؤخذ طرف من جانب الشعر ليُضم إليها. إنها ضفيرة معقدة وتستغرق وقتا طويلا.

لقد كنتُ من حزب «العناقيص»[١١]، وكنت آبى أن تضفِّر أمي شعري وأعتبر

١٠: الـنُّون: النّثار، وهو عادة احتفالية يتم فيها تجهيز قطع من الحلوى والمكسرات وقطع نقدية يُرمى بها من عل للأطفال الذين يتدافعون في غبطة لالتقاطها وذلك في المناسبات السعيدة كإتمام حفظ القرآن، أو شفاء المريض، أو غيرهما من المبهجات.

١١: العناقيص: مردها عنقوص. هو القرن، أو ذيل الحصان الجانبي، أو العنقود الجانبي، وهو طريقة لتصفيف الشعر بقسمه إلى قسمين متساويين وربط كل قسم على جانب الرأس دون تضفير. وقد تكون مأخوذة من الكلمة الفصحى «عقيصة»، وهي طريقة لطيّ خصلات الشعر. وبعض اللهجات العربية تستخدم كلمة «عُقصين» أو«عُقوصين». وقد تكون كلمة «عنقوص» محوّرة عنها.

ذلك محاولة سلطويّة تقييديّة غَشوم على خصلات شعري الحرّة الأبية. إلا أنني وفجأة قررت النكوص على عقبيّ، وصرختْ نفسي قائلة: أريد ضفيرة فرنسية، أريدها الآن، الآن، الآن.

اليوم طلب «مشاري» دراجة، وعندما سألته عن السبب وهو يهاب ركوب الدراجات بعد أن سقط ذات مرة في صغره، قال أنه يريدها لأنه شاهدها في مسلسل تلفزيوني.
غريبون نحن البشر، لا نستحلي الأمور إلا حينما تكون في يد غيرنا، وهكذا يستغلنا المعلنون ويضعون منتجاتهم في يد فلان وفلانة من المشاهير، فنرغب بها أكثر وأكثر حتى وإن لم تكن تفيدنا فعلا.

من مذكرات بابا جاسم، ١٢ يناير، ١٩٩٠

أمسكت بضفيرة جارتي وسحبتها بكل ما أوتيت من قوة وبيديّ كلتيهما، فصرختْ صرخة مدوية وأخذت تنوح. مهلا، لا تظنوا بي السوء، فلم أكن في حياتي طفلة مشاكسة أو مؤذية، ولم أكن طفلة غيورة. لكن، كان هناك شيء ما ذلك اليوم يدفعني لافتعال المشاكل، بل والمصائب إذا تيسَّر ذلك. واتباعا لسياسة «ضربني وبكى، سبقني واشتكى»، أخذت أنا أيضا أبكي ملء رئتيّ على أمل أن يتفرق الدم بين القبائل، أعني بين الدموع! تبادلنا الاتهامات، وتدخلت المعلمة مع وساطات حميدة من قطع «الماكنتوش»[١٢]،

١٢: ماكنتوش: نوع من الشوكولاتة والـ«توفي» المشّكل. اسمه الحقيقي هو «كووليتي ستريت»، أما «ماكنتوش» فقد كان اسم الشركة المنتجة التي باعته إلى شركة «راونتري»، التي باعته بدورها ثم إلى شركة «نستله» في الوقت الحاضر.

فانتهى الموضوع بأن طلبت منا المعلمة أن نصالح بعضنا. وطريقة الصلح المعتمدة لدى الأطفال هي بأن يثني كل منهما أصبع الخنصر على شكل نصف دائرة ويشبكه مع خنصر الطفل الآخر. أما ما كنا نسميه بـ«المحَارَب» أو الخصام فتكون بأن يمرر الطفل جانب إصبعه الخنصر أعلى شفته العليا بسرعة ثم ينفض الأصبع في الهواء. عالم الأطفال مليء بالرموز، لو كنتم تعقلون. على فكرة، ما السر وراء الدور الكبير للإصبع الأصغر في اليد؟ ففي الفصحى يقال «هذا أمر تُعقد عليه الخناصر»، أي أنه جدير بالاهتمام والاعتداد.

بدأت المعلمة بنثر النون، فأخذت أزاحم الأطفال وأحاول أن أفقِدهم ما في أياديهم، لا كي آخذه، بل لمجرد إثارة الفوضى. طريقتي في ذلك كانت بأن أتظاهر بأني أريد أن أعطيهم بعض ما جمعت، وبمجرد أن يفتحوا قبضتهم أكحت ما فيها وأوقعه أرضا! لاحظت المعلمة الاعتساف في سلوكي، فانتظرت أمي وقت المغادرة وطلبت أن تراها صباح اليوم التالي.

* * * * *

في اليوم التالي، أخبرتني سرمد (إحدى التلميذات في صفي) أن أم دُنى (الطفلة التي شددت ضفيرتها) طبيبة. وأنها سمعت بنيتها معاقبتي بإعطائي حقنا مؤلمة جزاءَ ما صنعت بابنتها. وصدقت سرمد! رأيت امرأة مع دنى في نهاية اليوم، وكانت دنى تشير إليّ وتقول شيئا لهذه المرأة التي كانت تنظر إلي بحنق شديد. هربت بسرعة واختبأت قرب المسبح المهجور.

في البدء يكون التغوّل، ثم ينبع عنه التقوّل.

من مذكرات بابا جاسم، ٢٢ سبتمبر، ١٩٨٩

كما قال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: «أبغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما»، وكما قالت الأمثال: «الحي يقلب»، و«لا محبة إلا بعد عداوة». «دُنى ياسين السندوسي» صارت صديقتي المقربة! كان لديها ما يكفي من التسامح، وكان لدي ما يكفي من الخوف من الحقن. كلنا نحب خنّاقينا المحتملين! لا نبتعد عنهم، بل نصادقهم ونغني لهم أيضا. بهذا نتقي شرهم المترصد. تبين أيضا أن دُنى تسكن في «قطعتنا»[١٣].

* * * * *

سمعت والديّ يتحدثان مطولا عن التغير الغريب في سلوكي. لا أتذكر ما كانا يقولان بالضبط، لكني أحسست بالأهمية. كان هذا القصاص العادل، بعدما فعلوا فعلتهم التي فعلوا فقتلوا روضي الموعود. أفّاكون، كذّابون أَشِرُون، سفَّاحو حقيقة، سفّاكو أمل أنتم أيها الكبار.

* * * * *

في المساء، أضع مسندا تحت قدميّ الشاشة وأسند رأسي عليه. أجرش «البَفَك»[١٤] وأشاهد التمثيلية. لا أذكر أية تمثيلية فاتتني في طفولتي. وحين

١٣: قطعة: تقسم المناطق في الكويت إلى قطع، ولكل قطعة رقم خاص. وغالبا ما يكون في كل قطعة الخدمات الأساسية مثل المسجد وفرع الجمعية التعاونية الاستهلاكية.

١٤: بفك: مجروش الذرة المقلية والمُنكَّهة.

كانت أمي تجبرني على النوم، كان الحل التوفيقي أن تظل خادمتنا «ريشمي» مستيقظة لتسجل التمثيلية لي، لأشاهدها ظهيرة اليوم التالي.

أنت، أيها الأعزل إلا من رقائق بطاطس أو وعاء «نفّيش»[١٥].
كلهم ضدك؛ المخرج، والمنتج، والمؤلف، والمسوّق، بل حتى الموسيقا التصويرية. كلهم يريدون برمجتك أو تنويمك.

من مذكرات بابا جاسم. ملاحظة مكتوبة على الغلاف الداخلي لمذكرة عام ١٩٨٨

١٥: نفّيش: حبوب الذرة المحمّصة، أو «الفُشار».

مقتطف مختطف (١)

من كشكول لبابا جاسم عنوانه: «مسرحيات للصغار الكبار». لا يوجد تاريخ على أي من نصوصه.

السنافر

بابا سنفور: هدوء يا سنافري، هدوء! دعونا نفكر بروية.

سنفور حالم: آه بابا سنفور، أحلم باليوم الذي ينتهي فيه أمر شرشبيل ومن هم على شاكلته.

سنفور مازح: سنرسل له مفاجأة مسنفرة. هو مهووس بالذهب، سنجمع الذهب من بلاد الإنسان، ثم نضعه في حفرة. وفي الحفرة أضع له مفاجأة صغيرة. وبمجرد أن يفتحها، بووووم! ها ها ها! سيكون موقفا مسنفرا!

بابا سنفور: لا يا مازح، الغاية لا تبرر الوسيلة. لا يجوز لنا أن نأخذ الذهب أو نتعامل به. الذهب شر مطلق. الذهب شر وبيل.

سنفور غضبان: شرشبيل، شر وبيل. أنا أكره الشر الوبيل!

سنفور مفكر: نؤلب البروليتاريا عليه!

بابا سنفور: أجل! نتعاون مع البروليتاريا في جهدها الأممي.

سنفور غبي: ماذا يعني بروليتاريا؟

سنفور مفكر: بروليتاريا أي المسحوقين. بعبارة أخرى، هرهور!

سنفور أكول: يمكنني أن أخبز له نفيخة زعرور سنفري. ثم نجتذبه إلينا ونلقّنه ما عليه عمله.

بابا سنفور: أحسنت يا أكول، أنت مثال رائع على مبدئنا القائل «من كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته».

سنفور أكول: بعضٌ ما عندكم بابا.

سنفور مفكر: البروليتاريا لا يمكنها أن تثور اعتباطا، لا بد لها من سبب يجمعها.

بابا سنفور: السبب موجود يا صغيري، لكن الآلية مفقودة. هرهور يبيع جهده العضلي لشرشبيل. هو يلاحقنا مقابل الفُتات. لكنه لا يدرك هكذا، لا يدرك أنه مستغل. لا يدرك أن سيده محتكر جشع، يجنى الأرباح الطائلة لنفسه.

سنفور مفكر: لا بد من توحيد جهود جميع هرر المشعوذين، ليكون شعارهم «كلنا في الهم، هرٌّ»!

سنفورة: لكن ليس جميع المشعوذين لديهم هرر. «شندوخة» لديها نسر، و«بلثازار» لديه غراب.

بابا سنفور: أحسنتِ سنفورة، يجب أن نجمع الفرقاء.

سنفور شاطر: وجدتها! سأخترع آلة سنفرماتيكية تجذب بقية الكائنات المسحوقة من قبل المشعوذين. ثم نعقد لها اجتماعا نعرض عليها فيه ما نعرفه عن مَحْفَل المشعوذين وجهودهم الاستغلالية.

بابا سنفور: حينها فقط يمكن أن يتوحد النضال، وتتكسر النصال على النصال، أعنى تتكسر على رأس شرشبيل وبقية الرأسماليين.

سنفور قوي: وحين يقع شرشبيل في يدي، سألقنه درسا قاسيا. واحد، اثنان، واحد اثنان! سأشج رأسه، وأسلب ماله. هكذا أقوض الرأسمالية.

سنفور مفكر: ويؤسس هرهور ورفاقه الجهد الأممي في الغابة الخضراء تجاه الحياة الشيوعية.

سنفور حالم: آه، ما أجمل الأحلام حين تتحقق! آه.

سنفور غضبان: أنا أكره التنهّد!

بابا سنفور: أحسنتم يا سنافري. أنا فخور بكم.

يعزف السنفور عازف نفير الحرب بقوله ثم يصرخ:

الجميع للسنفور، والسنفور للجميع.

ويصرخ السنافر من ورائه قائلين مثلما يقول.

وفي هذه الأثناء، كان السد ينزُّ ماءً. لقد أهملوه مُذ بدؤوا اجتماعاتهم هذه.

بعد فترة انفجر السد، وانهرق الماء عليهم. وُجد السنافر ميتين، وقد كانوا أكثر زرقة من ذي قبل. سمى المؤرخون هذا السد بـ«سد سنفورلين»!

أرحنا بها يا طلال

كانت أمي تقهقه على الهاتف مع جارتنا وسن:
- فاجأتني لولو اليوم يا أم منصور. لفّت نفسها بلحافها الذي عليه صورة سنفورة وأخذت تصلي معي. كانت تقرأ صورة الحمد في الركوع والسجود أيضا، أتصدقين هذا؟ ها ها ها!
- ...
- وعند القيام جهرتُ بـ«سمع الله لمن حمد» كي أعلّمها، فصرختْ: {... ولا الضالين} آمييييين!

ساءني أن تلوكني هكذا مع الجارة البغيضة وتتندر بلحافي السنفوري الجميل. من باب العناد وحسب، أحضرت دمية سنفورة المحشوة بالقطن ووضعتها بيني وبينها وقتَ صلاة المغرب وقلت لها أني أريد تعليمها الصلاة!

يقلقني تعلق طفلات العائلة بسنفورة. في «الزوارة»[١٦]، أحضرت لي لولو دفترا له قفل لأكتب لها فيه شيئا للذكرى. وحين اطلعت على ما كتبته صديقاتها صُعقت بما رأيت. عدد الملصقات التي تحمل صورة سنفورة لا يحصى. لقد كانت المفضلة لديها، ولهذا حرصت صديقاتها على لصقها

١٦: الزوارة: زيارة الأبناء والأحفاد لبيت العائلة، وغالبا ما تكون أسبوعية.

مع كلماتهن وبجانبها العبارة المستهلكة: « الذكرى ناقوس يدق في عالم النسيان»!

شاهدت بضع حلقات مع الأحفاد لأدرك السر. سنفور شاطر، سنفور أكول، سنفور مزارع، سنفور قوي، حتى سنفور وسخ! كل له تخصصه وعمله وفقا للمبدأ الماركسي الشهير «من كلٍ حسب قدرته، ولكل حسب حاجته». حتى سنفور غبي كان له فائدة، إذ كان بغبائه يتيح للأذكياء أن يبرزوا. لكن ما دور سنفورة سوى إغراء السنافر، وتشتيت انتباههم، وإسالة لعابهم كلما رأوها؟ السنفورة -التي خلبت لب حفيدتي- كانت صنيعة شرشبيل، حضّرها في معمله لتكون حصان طروادة بين السنافر. صنعها من «قليل من السكر والفلفل، قليل من دموع التماسيح، نصف علبة من الأكاذيب، كمية من الشراسة، وللقلب حجر من الصوّان»!

صنعها سمراء شريرة، إلى أن تدخّل بابا سنفور بكيميائه السحرية -أو بسحره الكيمائي- وحوّلها إلى شقراء طيبة؛ شقراء عديمة النفع مسماها الوظيفي في مجتمع يقدّس العمل هو «أنثى» وحسب. أنثى بمجرد أن تتدلل وتقول «يُوهُو سنافر»، يخرون {... صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية}!

اخلبْ القلب، يسقط اللب.

من مذكرات بابا جاسم، ١٥ فبراير، ١٩٨٨

حين أخبرت أمي أبي بأمر اهتمامي بالصلاة، قرر اصطحابي لأشهد إحدى الصلوات في المسجد. أعلم أنه أمر نادر أن يصطحب أب ابنته -لا ابنه- إلى المسجد، لكن فلنقل أن قَدَري كان مباركا، أو كنت «محظوظة» كما يحلو

للبعض أن يقول. قولوا ما شاء الله، فـ«العين حق»!

فرضت طبيعة الحياة في القرن العشرين أن يقضي الأب وقتا محدودا مع أسرته. لذا، من الأهمية بمكان أن تكون نوعية هذا الوقت مرتفعة الجودة. ويمكن تشبيه دور الأدب الإرشادي التوجيهي برئيس مجلس الإدارة، في حين أن الأم هي المدير التنفيذي. وحين ينشغل رئيس مجلس الإدارة عن رسم الخطط ويخصص وقته للديوانية والسفر مع الأصحاب ورحلات صيد السمك، تعلن الشركة/الأسرة إفلاسها. وكان لمجلتنا استطلاع حول هذا الموضوع.

قصاصة من مجلة، مدبّسة في الغلاف الداخلي من دفتر الهواتف.
وجزء كبير من صفحة حرف الهمزة من الدفتر ممزق بطفولية وغوغائية!

أبي إنسان طيب ورائع، لكن لا يمكنني نسيان تلك الكذبة، لا يمكنني نسيان الروض المحروق. ذاكرتي الصلدة كبيت سلحفاة لا تريد أن تُعتقني، إنها تستمتع بأسري.

* * * * *

لا أعرف كيف أتذكر ذاك اليوم بهذا الوضوح، كما لو كان نُقش البارحة على لوح الذكرى. إنها الذاكرة حين «تتنوخذ»، فتستنسب وتنتقي ما تشاء لتبقيه لناكي نقتات عليه. شكرا يا ذاكرتي، هذه المرة اخترتِ فأحسنتِ، وأبقيتِ فأثمرتِ. واهًا لكِ، ليتك تكونين لطيفة هكذا على الدوام.

أذّن الشيخ طلال بالصلاة. كانت المرة الأولى التي أرى فيها شخصا يؤذن وتعجبت من وضعه يديه على أذنيه، لكني خجلت أن أسأل عن السبب. تجمع المصلون، وتحولتُ إلى مركز الاهتمام، فهذا يمسح على رأسي وذاك يلاطفني.

بدأ المصلون يتراصون استعدادا للصلاة، بدأ الهواء حولنا يصرخ «أرحنا بها يا طلال». وثبتُ حينها ووقفت بجانب الإمام الذي لم ينتبه لي.

- كش، كش. اذهبي من هنا يا صغيرة، هيّا!

هكذا قال لي رجل أسنانه صفراء وأخذ يلوح بيديه. فتشبثت بدشداشة الإمام وقلت له:

- عمي، أريد الصلاة بجانبك.

«خيال! عيب، تعالي هنا!» صاح أبي.

صُعق الشيخ طلال، ثم تمالك نفسه وقال:

- حسنا، لكن احذري من لمس الـ«مايكروفون» أو الحديث فيه.

لكن أبي سحبني وأوقفني بجانبه في الصف.

- لا، دعها يا أبا معن.

- لكن هل يجوز أن يقف أحد بجانب الإمام؟ ثم أنها كثيرة الحركة وستزعجك، ولم تتعلم كيفية الصلاة تماما و...

- دعها يا أبا معن، لا تنفّرها.

«تعالي أيتها الأميرة» قال لي، وأوقفني بجانبه. ثم رفع قبعة المعطف الشتوي الذي كنت أرتديه وغطى بها شعري. وقال لي:

- أنت اليوم مُساعدة الإمام!

بالمناسبة، حينما كبرت لم يكن اتخاذ قرار ارتداء الحجاب صعبا، فقد

ارتديته أول مرة يوم كنت في الرابعة من عمري؛ كان قبعة معطف أحمر مرسوم عليها سنجاب يأكل جوزة!

* * * * *

بعد الصلاة أخذني أبي إلى الجمعية التعاونية لشراء بعض الأغراض التي طلبتها أمي. وقفنا في طابور الحساب وإذا بي أرى ضفيرة فرنسية مألوفة أمامي. تلتفت دُنى، نشهق فرحا، يتعرف أبي على أمها الدكتورة استقلال. هذه المرأة التي تتوعدني بحقنة. ألحُ على أبي، وتلح على أمها أن يسمحا لنا بالذهاب لمشاهدة واجهة محل الألعاب في الجمعية ريثما ينتهيان من الحساب، فيسمحان لنا.

وضع أبي الأغراض في السيارة على عجل كأنما تذكر شيئا يخشى فقده. شغل التدفئة، وطلب مني الانتظار في السيارة. «قد أتأخر، إيّاك أن تزمّري لي!» زمجر أبي بنبرة الاحتداد التي يستعملها في الأوقات الحالكة. ثم خفف من شدته وقال: «إذا انتظرت دون مشاكل، سأشتري لك حظا». توجّه إلى سيارة الدكتورة استقلال. طفقا يثرثران، ثم أخذ يكتب شيئا كانت تمليه عليه. هل كانت تخبره بأني شددت ضفيرة ابنتها، وأن عليه معاقبتي بنوع من معين من الحقن أخذت تملي عليه اسمه؟

أَوَكلما اشترى لي أبي حظا، حدث شيء مشؤوم؟!

«ثاعة» لعبي

سبتمبر، ١٩٨٦

أكملت الأرض دورة كاملة حول الشمس، وصرت في الصف الثاني من مرحلة الروضة. صرت أخربش على الدفاتر بدلا من الجدران، وبمقاييس الطفولة هذا فتح كبير، وتطوّر مثير. وطبعا لا تخلو الدفاتر من اسمي مكتوبا بطريقتي الخاصة، معكوسا من اليسار إلى اليمين. هل تتصورون أن أحدا لم ينتبه لذلك حتى الآن؟ يظنونه مجرد عبث طفولي سفيه يشبه خربشات أرجل الدجاج على الأرض الترابية المدكوكة.

يسمون أنفسهم كبارا، ويحتكرون سلطة الفهم والتفسير لأنفسهم. يتفذلكون ويقولون لي حينما أسأل سؤالا يبهتهم: «عندما تكبرين ستفهمين». حسنا، ما رأيكم أن تَصْغُروا أنتم لتفهموا أن ثمة خربشات تافهة تعني الكثير، لكن عيونكم الكبيرة لاهية ساهية، شاردة سادرة عنها. حقا، صعب فهم الكبار، وصعب إفهامهم أيضا لأنهم لا يريدون أن يفهموا. فهل فهمتم شيئا؟!

* * * * *

كان يوم شتاء قارص. تدفّأنا بالفطور اليومي الشهي الذي كان يُقدّم للأطفال

في الروضة آنذاك. حساء العدس الشهير، الخبز المحمّص، وحليب ساخن جدا. كل شيء كان لذيذا إلا تلك «الجلاّلة»[١٧] أو الطبقة القشدية المزعجة التي تتكون فوق الحليب. كلما حاولتْ تلك الطبقة المناضلة التسلل إلى فمي كنت أدّعُها بلساني دَعّا. كان حليبا لذيذا لولاها. لكن -ولولاها أيضا- لما تعلمت أنه لا سعادة مطلقة، منها تعلمت أن لكل شيء في ذي الدنيا منغصات.

أما علمتم ما حدث البارحة؟ سقط سنّاي الأماميان العلويان قبيل خلودي إلى الفراش. أعرف أنهما لا يسقطان عادة في الوقت نفسه، لكن هذا حقا ما حدث. أظن أن أحدهما أخّر سقوطه لئلا يغادر مهجعه وحيدا. كانا يتضعضعان ويتأرجحان منذ مدة، وكنت في أقصى درجات السعادة بالتخلص منهما ومن تحركاتهما المزعجة. كادت القشدة السابحة تتسلل من الفتحة الكبيرة التي خلفها رحيلهما، لكن لا يهم. فما أجمل أن تحك أسنانك بلسانك فلا تجد بينها ما يميل أو يهتز. ما أجمل أن تكون متيقنا حول ما يدور في فمك، فلا تخشى مفاجأة أو حادثا.

كان النعاس والتبلد باديا على وجوه الكثيرين، فأرادت المعلمة تنشيطنا.
« من يغني لنا أغنية؟» سألتْ المعلمة.
رفعت يدي بكل ثقة، فقد كنت في مزاج زاهٍ بعد أن انعتقت من السنين المتأرجحين. كنت أريد أن أسمِّع سورة «الكوثر» أو «الفلق» التي حفظّتني

١٧: جلّالة: تُنطق «يِلّالة». أصلها فصيح، إذ يقال جلّل الشيء أي غطّاه. وتسمّى بالعامية أيضا «سِلْب». اللافت أن بعض دول المغرب العربي يسمونها الجلالة أيضا.

إياهما جدتي. لكن لا ضير، فبهذه المناسبة الميمونة، لن أرد طلبا لأحد اليوم.

- شاطرة يا خيال. ما رأيك أن تغني لنا «أنا في الروضة»؟

هززتُ رأسي بالموافقة.

- تعالي هنا وغنيها أمام الجميع. هيّا صفقوا جميعا لخيال.

تصفيق بارد قليلا، لكن لا يهم فاليوم مزاجي رائق سامق. زهوت بثقة. تحصنت بشهيق عميق وغنيت بقوة وبنفس واحد لدرجة أني لم أستمع لنفسي جيدا.

«أنا في الروضة،

ويّا أصحابي.

ثاعة لعبي،

ثاعة كتابي.»

تقطع «سرمد» حبل نغماتي بكركرتها العالية، في حين يكتفي بعض الأطفال بإخفاء ضحكاتهم بأياديهم. آه! مكان السنين الراحلين بارد، ما الذي يحدث في فمي؟ أتجاهل كل هذا، وأكمل الأغنية نكايةً في «سرمد» البغيضة.

«أعرف أثوّر،

وأرثم ثورة،

فيها ثجرة،

فيها عثفورة.»

مهلا، ما الذي حدث لي؟ لماذا لا أثتطيع ... عفوا أقصد لماذا لا أستطيع نطق حرف الثين؟ الثين، الثين! السين.

{... الآن حصحص الحق ...}! كلهم صاروا يضحكون. بعضهم يضحك

ويكابد ليخفي ضحكته بيديه، وبعضهم ينظر إلي بشماتة ويضحك ملء فيه. وبعضهم حريص على إظهار حرف الخاء في ضحكة ساخرة سافرة. حتى دنى أخفت وجهها وأخذت تضحك. حتى أنت يا دنى؟
ما بكم تكأكأتم على خيبتي هكذا؟ افرنقعوا عني!

نشاهد الآن حلقة جديدة من مسلسل «Charles in Charge» على البرنامج الثاني. مزعجة هي الضحكات المصطنعة المسجلة. هي إشارة البدء الحاكمة الحاسمة، اضحك عند هذا الموقع وفي هذا الموقف. البشر يحبون أن يضحكوا سوية، وإن كان من السخف ضحكهم. إنه ضغط القرناء؛ «كل على ذوقك، واضحك عندما يضحك القرناء»!

من مذكرات بابا جاسم، التاريخ غير مدوّن

تركوني بعُجري وبُجري تحت فيح الشمس، وتولوا إلى الظل يكركرون.
أخذت أنازع وأحاول أن أعيد سطرا أو سطرين من الأغنية بصوت خفيض، لكن لا فائدة من المحاولات، السين صارت ثاء. إنها نار إغريقية لا يزيدها الماء إلا اشتعالا. لا تضحكوا مني، لكن كيف لي -وأنا في هذا العمر- أن أعرف أن سقوط السنين الأماميين سيجعلني ألثغ. سبق وفقدت القاطع السفلي، ولم ألثغ. حقا، «الحياة تجارب».

- أريني أسنانك يا خيال. يا لطيف! فقدتِ سنين مرة واحدة؟!
رأيت الضحكة المكتومة ذاتها تتمطى على وجهها. وأخذت عيناي تتوسلان: رجاءً يا أبلة، افعلي شيئا وأوقفي مهرجان التقهقه هذا.

- هدوء يا أطفال، هدوء! تعالي يا سرمد، راقبيهم وأخبريني بأسماء الذين يتكلمون في غيابي.

سرمد الواشية، مثيرة للفتن. النموذج المثالي والكامل للطفل البغيض مطموس الضمير والذي يتحرق شوقا لإرضاء ذوي السلطة، لينال بهم سلطة خاصة به. ماذا تنوي أن تفعل اليوم؟ أحسبها ستشي بأبرار لأنها لم تقبل أمس إعطاءها قطعة من «خد العروس»[١٨]. سرمد كانت طفلة وحيدة، كانت «مدلَّعة»، لكن الخيط الفاصل بين الدلع و«الدعالة»[١٩] مقطوع. في الكون الكثير من أمثال سرمد. هل تصدقون أننا في الروضة نتعلم كل شيء عن الحياة تقريبا؟

خرجت المعلمة مسرعة ثم جاءت ومعها معلمة أخرى لتريها أعجوبة العام الدراسي؛ الفتاة الهتماء الثرماء. أخذت المعلمة الأخرى تقهقه أو تشخر (صدقًا لا أدرى!). خلتُ أني مهرّج، أو حالة طبية فريدة تستحق التحنيط والعرض في متحف التراث الطبي. ثم التفتت المعلمة مبتسمة إلى سرمد كي تتابع عملية المراقبة، وأخذت تثرثر قرب الباب مع المعلمة الأخرى (لا أعرف اسمها فأسميتها شندوخة![٢٠]) عن شؤون البيت والمطبخ. تركتاني أبث غمي في نياط قلبي.

إذا فرحت، افرح بحذر. وهل تدري متى يكون سبب فرحك هو نفسه سبب

١٨: خد العروس: نوع لين من أنواع الحلوى، يسمى أيضا حلوى الخطمي.

١٩: الدعالة: يطلق على الشخص «دعلة» حينما يتصرف بدلع زائد عن المحتمل، وتطلق الكلمة أيضا على من يأخذ الأمور بحساسية زائدة.

٢٠: شندوخة: شخصية شريرة في مسلسل «السنافر»، تشخر حين تتكلم.

بكائك؟

* * * * *

مضى العام الثاني، وتخرّجت في الروضة. أمضيت ذينكم السنتين أمنّي النفس بحلم جديد؛ بشيء لا يختلني الكبار به، ولهذا لم أصرح بحلمي لهم. بل حرصت كل الحرص على التظاهر أني لا أعبأ به. ثمة سخافة تجارية تسمى «قانون الجذب»، ومفاده أنك إذا توقعت وتمنيت شيئا سيأتي إليك. قانون الجذب؟ بل قانون الكذب! ما يحدث معي هو العكس تماما، فمتى ما أظهرت أني أعاف الشيء ولا يهمني، جاءني سعيا، بل وربما حبوا، وأحيانا زحفا! ما رأيكم أن نسميه «قانون الطرد»؟ إذا رُمْت شيئا، عليك التظاهر وبشدة أنك لا تريده، وستحصل عليه. وإذا كان كل من هب ودب يخترع قوانين في ما يسمونه بالتنمية الذاتية، فلم لا يمكن لطفلة صغيرة أن تخترع قانونا خاصا بها؟ أكُلُّ ذنبي أني لا أحسن التسويق والتشويق؟

أحلامنا كعَلاّقة المفاتيح، تختبئ حين نبحث عنها ونقصدها. وتقصدنا مِلحاحة حين نتجاهلها أو نتظاهر بذلك. أحلامي تشاركني تمثيل مسرحية عنوانها «الحب من طرف واحد»، والقاعدة فيها أن لا لقاء يجوز إلا قبيل إسدال الستار، و«الثقل صنعة»!

حرصت ألا أخبر الكبار، وألا أعترف أمام نفسي كِفاحًا بأني لم أفقد مقدرتي على الحلم، وأن ثمة «روض موعود» آخر أحلم به ويملأ علي دنياي. لم أخبرهم بأني أحلم بأن أحصل على ترقية، ويصبح مسماي الوظيفي: طالبة في المرحلة الابتدائية، وأن أكون فتاة يمكنها أن تقرأ مجلة ماجد بدلا من مجرد

مشاهدة الصور فيها. سقيت أملي أملا، وأخفيته في تابوت معتم، ثم ألقيته في اليم.

«استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.» (حديث شريف)

ورد في إحدى صفحات «تقويم العجيري»، وبجانبه كتب جدي الملاحظة التالية:

محمدٌ -صلّى الله عليم وسلّم- رجل إذا لم تستطع أن تحبه بقلبك، فستحبه بعقلك.

مع حمد قلم

سبتمبر ١٩٨٧

ألقى اليمُ أملي بالساحل، وشمس المرحلة الابتدائية بزغت على قلبي ذات اليمين. كبرتُ وصرت ألبس مربعات بيضاء وكحلية تتعانق باتساق على القماش صيفا، ومربعات أُخَر من الأخضر والأبيض شتاء. أثمر «قانون الطرد»!

لم أحظَ إلا بالمقعد الأخير؛ مقعد الكسالى، الأشقياء، العتاة العصاة، ليس لأني منهم بل لأني طويلة. وفي الأمام تسطّرت الشاطرات، المطيعات المطاوعات، ذوات الشرائط البيضاء المكوية بفداحة مزعجة.

> يا للشطار وأخوتهم من العيّارين، والحرافيش، والصعاليك، والفتوات، والبلطجيّة، والزعّار. الشاطر لغويا هو من شطر عن أهله وتمرّد عليهم، وغالبا ما يتصف هؤلاء بالدهاء والحنكة والحيلة. الشاطر هو الابن الضال، هو الجواد المارق، وغريب ومضحك أن المطيعين صاروا يدعون شطارا.
>
> **من مذكرات بابا جاسم، ١٢ يوليو، ١٩٨٨**

في آخر مقعد قبعتُ، مدانة بطول القامة. بجانبي «هيا»، لم تكن سنتها الأولى مثلي، فهي راسبة. لقد حصلت على الكثير من «الكعكعات الحمراء»

أو «الدُوَاوِيح»[٢١] في شهادتها. وسبب تسميتها بالـ«دواويح» كان أن الشهادة الشهرية التي تحصل عليها الطالبة تحمل دائرة حمراء على الدرجات التي رسبت فيها. ولك أن تعد الدوائر التي يسميها البعض تأدبا بالكعكعات؛ كعكعات كرز، فراولة، توت، أو بنفسجية بلون الكدمات النفسية التي تسببها لصاحبتها.

الواقع الموجع يقضي بحجز المقاعد الخلفية للمنتميات للفئات الثلاث: الراسبة، و«الطويلة الهبيلة»، و«أم أربع عيون» إذ أنها تحظى بميزة مِقْرَابية خاصة تؤهلها لمشاهدة اللوح مهما انتبذت مكانا قصيّا. بالله عليكم، ألا يفترض أن تكون هذه الفئة المركولة هي الأحق بالجلوس في الأمام؟ فالمتعثرة دراسيا أحوج إلى الانتباه والتركيز في الصفوف الأولى. والطويلة يمكن استغلال طولها كمحطة تقوية للإرسال التعليمي، ويمكن أيضا تثبيت هوائي على رأسها ليصل البث للقابعات في الخلف. أما ذات النظارة، فيمكن أن تتابع الشرح بعينيها الأصليتين وتضع النظارة على قفا رأسها وتثبت فيها أداة لمراقبة المشاغبات تعمل كعيني الذبابة وتتحرك في جميع الاتجاهات!

أما سويداء قلب الصف؛ الدرج الأمامي المقابل لدرج المدرسة فكان محجوزا سلفا لسرمد التي جاءت ومنذ أول يوم تتبختر بزي بني مغاير، فقد كانت ضمن فريق «الزهرات»[٢٢]. إنها «سرمد ضاري الكاسر»، العجيبة المعجوب

٢١: دواويح: مفردها دُوَّاحَة وهي الدائرة. وأظن أن لها أصلا في الفصحى، فيقال «بطن منداح» أي بطن مدوّر.

٢٢: الزهرات: فريق الكشافة للفتيات في المرحلة الابتدائية. أما في المرحلة المتوسطة فيسمى فريق المرشدات. ويقابلهما لدى الفتيان فريق الأشبال وفريق الكشافة.

لها وإليها، الأسطورة الأحفورة، الطفلة المعجزة، عابرة القارات، ومرعبة الصغيرات، الساحقة الماحقة لأية مُشاغَبات. كان الدرج يتسع لطالبتين، لكن المكان المجاور لها تُرك فارغا بتعليمات شديدة اللهجة من المعلمة المشرفة. كانوا ينتظرون قرارا يهبط من عل يحدد من يمكنها أن تحظى بشرف مجاورة سرمد. وسرعان ما اختاروا منيرة، تلك التي تجمع المجد من طرفيه؛ فتاة «شاطرة» دراسيا، و«شاطرة» اجتماعيا ولن تمانع أن تسمح لسرمد بنقل الواجب من دفترها، أو أن تحمل مطارتها أو حقيبتها. همست لي هيا بأن أم سرمد هي ناظرة المدرسة الثانوية في المنطقة. من قال أن رفقة الراسبات تخلو من فوائد معرفية؟!

* * * * *

هذا الكم من البؤس لم يفسد فرحتي الكبرى، فقد وضعوني في «أولى أوّل»، أي الشُعبة الأولى من الصف. ألا ليتكم تعلمون الوقع السحري لكلمة «أول». فحين يقول الطفل أنه في «أولى أول» يقولها بفخار، بينما يطأطئ نزيل «أولى ثالث» أو «أولى رابع» رأسه، وربما تجنب الخوض في الموضوع أصلا. «محظوظة» هي الكلمة التي سمعتها عشرات المرات كلما علم أحد بأني في الشعبة الأولى.

الحظ، وما أدراك ما الحظ؟ حينما نتكلم عنه أشعر أني إزاء كائن ميتافيزيقي عجيب، كائن مزاجي لا لجام له. كائن قد يتحالف معك لسبب غير محدد، وقد يختلف معك لسبب غير محدد أيضا. كائن يُسعف ويُسعد،

أو يُشقي ويُبعد. نتكلم عن الشيء المسمى بالحظ، ونكاد نؤلهه! أسعدنا الله، إن هي إلا أرزاق مكتوبة.

تعهّد:

من الآن وصاعدا لأقولنّ «موفَّق» أو «مسدَّد» أو «مرزوق» عوضا عن «محظوظ». ولأقولنّ "بالتوفيق" عوضا عن "حظا طيبا".

من مذكرات بابا جاسم، ٢٢ مارس، ١٩٨٣

لقد كنتُ من جماعة «الدرجة الأولى»، كنت ممن يعلوهم ملصق يقول «نخب أول»، دون أن أفعل شيئا يخولني هذا الشرف. كان نظاما قبيحا للفرز! سخافة أطفال؟ لا، فقلب الطفل حساس، وأنتم أيها الكبار لا يمكنكم إدراك ذلك لأنكم نسيتم طفولتكم. الإنسان نَسَّاء.

أما كان يمكنهم أن، يوجدوا نظاما أكثر حيادية وأقل إثارة للحساسيات؟ كان يمكنهم مثلا تسميه الشعب بأسماء: أولى سدر، أولى نخل، أولى ورد. لكننا الزبائن الذين لم يستشرهم أحد، الزبائن الذين ليسوا على حق أبدا.

* * * * *

«مع حمد قلم» كان الدرس المشهور في كتاب اللغة العربية. ونما إلى علمي أننا كنا من أواخر الدفعات التي التقت بـ«حمد» اللطيف.

كان مشاري وخيال موفقين إذا كان من نصيبهما دراسة اللغة العربية على يد منهج «مع حمد قلم». مسكينة موضي، صار منهج اللغة العربية يعلّمهم عبارات مغرقة في الأنانية والنهم مثل «أنا آكل، أنا أشرب»! أظننا سنكون

إزاء جيل جديد يحمل «أنا» سمينة بين أضلاعه.

من مذكرات بابا جاسم، ٣ نوفمبر، ١٩٨٩

وفضلا عن صديقنا حمد، كان هناك أيضا درس طريف جاء فيه:

«نظرت سعاد في ناظور، في ضروس سعود سوس»!

ولا يفوتنك أن جملة «مع حمد قلم» تستعرض حرف الميم في مواضعه الثلاثة أول الكلمة، ومنتصفها، وآخرها. وكذلك جملة «في ضروس سعود سوس». ولا داعي للفت نظر الطفل إلى هذا حاليا لئلا يتشتت انتباهه، بل سيدرك هو، مع تكرار الكلمات، كيف أن الحرف الواحد يكتب بأشكال مختلفة.

قصاصة ممزقة من كتاب، أظنه دليل المعلم الإرشادي.

* * * * *

أحضرت المعلمة معها دفاتر النسخ التي جهزتها لنا، وقد شطرت الصفحة إلى ثلاثة أعمدة؛ «مع» في عمود، و«حمد» في عمود، و«قلم» في عمود. وهيا يا أيها الصغار الظرفاء، انسخوا يا أحبائي، انسخوا!

خمس صفحات أو أكثر، أمعتقلُ نسخٍ هو؟! بل واعلموا أنّا كنا في الحصة الأخيرة، حينَ تخور القوى ويتهافت التركيز. رفعتُ يدي:

- أبلة، أبلة، أنا أعرف كيف أكتب ...

- شاطرة يا خيال، شاطرة. هيا أريني واكتبي في دفترك.

لم تفهم المعلمة قصدي. يمكنني كتابة الجملة، فقد حفظتها من أول مرة

كتبتها المعلمة على اللوح. لِمَ علي أن أكتبها في خمس صفحات إذا؟ سأعاود الكرّة:

- أبلة، أستطيع كتابة مع حمد قلم لوحدي.

«شطورة!» ومدّت الواو قدر ما تستطيع وعلى وجهها ابتسامة مُنتزعة، ثم أردفت: «هيّا اكتبي». وعادت لتدفن رأسها في دفاتر كانت تصححها!

ما هذا؟ ألا تفهمين؟ تعالي عندي وشاهديني، ثمة موهبة تُحتضر. أنا طفلة مختلفة، أحفظ شكل الكلمات من أول مرة، أرجوكِ لاحظيني! ما كنت أستطيع أن أعبر لكِ عن ذلك بالكلمات، لكن كان عليك أن تلتقطي طرف الخيط. أو لعله ليس ذنبك، فمن أين ستأتين بالوقت أو الأعصاب لتكتشفي المواهب مع هذا الكم من الدفاتر الجائعة للتصحيح؟

أين العجب في طفل موهوب؟ العجب كل العجب في راشد موهوب.
راشد لم يُدجَّن، راشد وَجد من ينتبه له قبل أن تُوأد موهبته أو تُترك هَمَلا لتذوي بنفسها.

من مذكرات بابا جاسم، ١٩ يوليو، ١٩٨٢

واصلتْ دفن رأسها بين الدفاتر، وبجانبها مسطرة طويلة رادعة (بقياس ٣٠ سنتمترا) ذات طرف حديدي، وهي أسوأ الأنواع. دفنت رأسها وتركتني تعوزني التعابير، تركتني ألوك فخري المهمّش، تركتني محطمة بالية {... كهشيم المحتظر}.

أجرش رأسي بحثا عن فكرة تخلصني من هذا الواجب السئيم. وجدتها! من قال أن علينا كتابة كل كلمة على كل سطر؟ كبّرت خطي وميّلته، فاحتلت

الكلمة الواحدة ثلاثة أسطر بدلا من واحد. أما كلمة «قلم» فمددت ذيل الميم إلى الأسفل ليحتل أربعة أو خمسة أسطر! ها، ها، ها، كم أشعر بالفخر. إنَّ كيدي عظيم!

(... إن كيدكن عظيم).
هل الكيد حقا من صفات الإناث؟

سيدنا إبراهيم -عليه السلام- كان يتميّز بهذه الصفة، إذ ورد في التنزيل الحكيم: (وتاللّه لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين). بل والكيد صفة من صفات الرحمن عزّ وجل؛ (وأملي لهم إن كيدي متين)، و(.. كذلك كدنا ليوسف ...). أفلا يكون الكيد إذًا تخلّقا بخُلُقِ الخالق؟!

الكيد كما يصفه العارفون هو نوع من <التدبير الخفي>، وهو دلالة نباهة وألمعية. والذكاء قد يُستغل في الخير أو في الشر، فلم حكم مجتمعنا أنه صفة مقبوحة؟ صحيح أنه كثيرا ما يكون مرذولا، لكن من حصره في المرأة؟ بل أن سورة يوسف نفسها التي ورد فيها الحديث عن كيد النساء، ورد فيها الحديث عن كيد الرجال أيضا؛ (قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ...)!

وجدتها في ملف أخضر يحتوى على ملاحظات مكتوبة بالآلة الكاتبة. لا أدري لمن الملف، لكني وجدته في المخزن مع مذكرات بابا جاسم.

التقمت يسراي قلمي المبري جدا، ورحت أدندن لنفسي: «باربا الشاطر أعظم ساحر، باربا الشاطر أعظم ساحر»[٢٣]، وانتهيت في دقائق.

قه قه قه! ادفني رأسك بين الدفاتر يا أبلة، أما أنا فقد اكتشفت الترياق الشافي من النسخ التعذيبي. طويت دفتي الدفتر ووضعته في الدرج، ثم أخذت أدندن لنفسي بإحدى أغاني «افتح يا سمسم»:

«إن قال واحد، أقول بيب.

إن قال اثنين، أقول بيب، بيب.

إن قال ثلاثة، أقول بيب، بيب، بيب.

إن قال أربعة، أقول بيب، بيب،

بيب، بيب، لا أزيد.»

زيييييييييط!

فجأة! صوت صرير أحد الكراسي يقطع حبال أفكارنا المتهرئة.

- أبلة، خيال تلعب!

«زيييييييييط» مرة أخرى، وجلستْ.

من غيرها؟ سرمد الواشية، مُبيدة اللحظات السعيدة. كنت أظن أني أراها أنا وقبيلي من حيث لا ترانا، وإذا بالعكس يحدث! كيف رأتني وهي {... بالعدوة الدنيا ...} وأنا {... بالعدوة القصوى ...} آخر الصف؟ كيف رأتني بـحبتي «البَنَك»[٢٤] المعلقتين أسفل حاجبيها؟

٢٣: أغنية مسلسل «باربا الشاطر»، وهو مسلسل رسوم متحركة يمكن للشخصيات فيه أن تغير شكلها كما تهوى.

٢٤: الَبنَك: نوع من المكسرات. عبارة عن حبيبات سوداء صغيرة جدا، لامعة وصلبة.

كانت تظن أنها مركز المجموعة الشمسية، وأن الكواكب تدور حولها تعبدها! ترى متى ستكبر هذه النُجيمة الممتلئة تِيهًا وتَيْهًا لتكتشف مجرات جديدة؟ ولتكتشف أنها والكويكبات الصغيرات جزء مجهري دقيق من مجرة عظمى لها مركز آسر، تدور هي وصويحباتها في فلكه دون أن تملك الاعتراض.

من دفتر خواطري في المرحلة الثانوية، حينما كنت أظن أن لدي موهبة أدبية.

عرفت من أمي أنّ أبا سرمد أثرى فجأة بعد أن دخل «سوق المَنَاخ»[٢٥] في الوقت المناسب، وخرج منه في الوقت المناسب تاركا «الفقاّعة» تنفجر في وجه من كان يصافحهم باليمنى. حينها، رحمتها وعذرتها. يقولون «ارحموا عزيز قوم ذل»، وأنا قررت أن أرحم ذليل قوم عز! فمُحدَثو العزة، ومحدثو الثروة، وحتى محدثو الحرية تطرأ عليهم العديد من الظواهر الغريبة، وغالبا ما ينقلونها لأبنائهم.

حدَّجتُ سرمد بنظرة قاسية، كنظرة لاعب كرة القدم للكُرة حين يعلن الحكم اللجوء إلى ضربات الجزاء الترجيحية. عليكِ من الله ما تستحقين يا سرمد. أجل، وجدت التعبير المناسب: عليكِ «الإنجكشن» يا سرمد!

وقفت لأُنافح عن نفسي:

- لا، يا أبلة، لقد أنهيت الواجب.

- أحضري دفترك وتعالي يا خيال.

هاه! ضروري يعني؟ يبدو أنه لا مفر، {ولا يتمنونه أبدا بما قدّمت أيديهم ...}!

٢٥: سوق المَنَاخ: سوق الكويت للأوراق المالية غير الرسمي، وقد عصفت أزمة اقتصادية شديدة في عام ١٩٨٢ سميت بأزمة المناخ.

يتدفق الدم إلى أذنيّ، أشعر بسخونة الإحراج فيهما. سلّمتها الدفتر، فأخذت تصهره بنظراتها، ثم قالت لي بهدوء مصطنع:

- أعلم أن خطك جميل يا خيال، لكن لا تكبِّريه هكذا. حتى لو كان صغيرا، يمكنني أن أراه. هيا اكتبي مرة أخرى، كل كلمة على سطر. اتفقنا؟

قالتها ومكظومات غيظها تتفصد من جبينها، وقسماتها {... ترمي بشرر كالقصر ...}. تناولت مسطرتها ذات الطرف الحديدي، وجهّزت لي خمس صفحات جديدة، بأعمدتها الثلاثية الشاهقة. وناولتني الدفتر وهي تتأفف في وجهي.

لكن لا وألف لا، كلا! أبعد أن اهتديت إلى هذه الطريقة الاقتصادية التوفيرية أعود إلى النسخ على كل سطر؟ هيهات، هيهات، {... وأنّى لهم التناوشُ من مكان بعيد}! لن أخذل طريقتي المبتكرة، فهي من اختراعاتي ولي الفخر بأن أطبقها في كل مكان. لا شيء يمكنه تليين جوزة الهند المحمولة فوق رقبتي.

استمر الحال بضعة أيام. وذات يوم نفد صبر المعلمة، فصرخت فيّ:

- حَيَوانة! كم مرة قلت لك صغّري خطك؟!

قالتها بالفصحى؛ «حَيَوانة» بفتح الياء لا بتسكينها. فقد كانت حريصة على شتمي بالفصحى لا العاميّة، ربما ليستقيم لساني، أو خطي، أو سلوكي، أو كلها جميعا. ثم شدت أذني بكل ما أوتيتْ من قوة، كيوم شددت ضفيرة دنى، {جزاءً وفاقا}! تُرى، هل هذه «حوبة»[٢٦] دنى؟ هنا، كان عّلي أن آوي إلى «سياسة النافورة»، أي البكاء المستمر حتى العودة إلى البيت.

٢٦: الحوبة: انتقام الله للشخص المظلوم، أي أن عاقبة الظلم ترتد بشكل مشابه على الظالم وإن طال الزمن. وقيل قديما «على الباغي تدور الدوائر».

* * * * *

اجتماعٌ مع المعلمة، والمعلمة الأولى، والاختصاصية الاجتماعية. أمضتْ أمي أياما معهن يحللن الأمر ويعللنه. وكانت المحصلة أن والديّ أغدقا علي الهدايا والعطايا كي يستقيم سلوكي النسخي وأعود شاطرة أنسخ على السطور وأترك ما بينها نظيفا. هذا، رغم أن الحاذق يوصف بأنه «يقرأ ما بين السطور»، فبالله عليكم إذا لم نكتب بين السطور كيف نعطي الفرصة للحاذقين أن يستحذقوا؟

حصلت على «لولو الصغيرة» و«عدنان ولينا» كاملين على أشرطة ڤيديو. وكنت أحظى بزيارة كل أربعاء للمطحنة الدولية والتي كانت تبيع كل نوع من الـ«ماكنتوش» على حدة بالكيلو. كان أبي يأخذني وحدي، وفي كل مرة كان يجري اتصالا هاتفيا من هاتف المطحنة. كنت أظنه يكلم أحد أصدقائه، لكنه كان يهمس ويتلفّت. شيء غريب يحدث، غيومي الجذلى تهتز. أمضغ «بو مرسيدس» و«بو سنام»[٢٧]، وشيء في صدري يمضغني.

مع الوقت، خَفَتَ جنوحي للتعدي على السطور، فخفَّتْ الهدايا. الطفلة المعجزة-المزعجة تحولت إلى شيء آخر، شيء مألوف لا يعاقبه الكبار بالصفع أو سحب الآذان. لا تسألوني عن موهبتي الموؤدة، فكلهم حشدوا لي عدة الإصلاح والتقويم، ولم يفكر أحدهم أن يسألني لم فعلتُ ما فعلت.

رغم استقامتي السطرية، بدأت بوادر النبوغ الطبي تظهر عليّ! وأعني بذلك

٢٧: بو مرسيدس: نوع من أنواع شوكولاتة «ماكنتوش»، على شكل مثلث أخضر اللون محفور عليه شعار يشبه شعار سيارات المرسيدس. بو سنام: النوع البنفسجي، وسبب التسمية لوجود بروز يشبه السنام في منتصف حبة الشوكولاتة.

الخط المحيّر؛ خط الأطباء. خط جميل، خط فاخر، خط معقد، خط يوحي بالنبوغ والعبقرية. كان خطي تاجا على رأس الورق، لا يستطيع قراءته إلا الأطباء والصيادلة! كنت أكتب على السطر بشكل محكم، لكن فهم ما كتبت أمرٌ دونه خرطُ القتاد. تعذيبهم/تأديبهم بطلاسم خطي كان عقوبة جديدة استحقها الكبار بجدارة.

* * * * *

عزيزتي سرمد الكاسر،

(أينما كنتِ الآن، وكيفما صرت، ومهما بلغت من الصلف عتيا.)
الوشاة والأشرار كمثلِ الأحذية المخدوعة، تظن أنها كائنات مهمة تسيّر أصحابها وتوجّه مصائرهم، وما هي إلا أداة تنفيذية للقضاء الرباني. يظن المؤذون أنهم يمسون غيرهم بضر، ولا يعلمون أنهم مجرد مطايا لوقوع القدر. مضحك فعلا أمر مطرقة أصابها العُجب، فتظن أنها الآمرة الناهية على المسمار والجدار، وتنسى اليد التي تحرّكها. ما أكثر المغبونين والمتصلِّفين، ما أكثرهم! وعلى أي حال، أساليب الأباليس هذه لها يوم. فكبريت الكيد مبلول، لذلك سيخذل صحبه ولا يشتعل حين تأتي لحظة يحتاجه فيها وبشدة. لولا صفعات الأشرار لظللنا طوال حياتنا سذجا لا نعتقد بوجود الشر. وجود الأشرار ضروري لدورة الحياة، ولصحتنا النفسية، بل وللتوازن الكوني. مهمة أنت يا سرمد، مهمة جدا! كأهمية الخنزير أو السمكة الزبّالة. أنتِ مثل البكتيريا الضارة، غيابها مشكلة لأن البكتيريا النافعة ستتغوّل وسيضطر

بعضها لأن يصبح ضارا حتى يستقيم توازن الكون.
نفوس تأمر بالسوء، وأخرى بالسواء. {... كنا طرائقَ قِددا}!
ملاحظة ١: صبرا آل كاسر، فإن موعدكم الصبح، {... أليس الصبح بقريب}؟
ملاحظة ٢: هل ما زلتِ ترسلين قصاصات الأوامر إلى منيرة وتكتبين اسمها «إمنيره»؟ أم أن قدراتك الإملائية تحسنت؟!

رسالة كتبتها بعد تخرجي من الثانوية حينما رأيت سرمد مصادفة في إحدى الجمعيات. عرفتها من عينيها اللتين لم تتغيرا. كانت برفقتها فتاة أخرى، فنادتها سرمد بصوت عالٍ قائلة: يا حَيَوَانة (تماما كما نطقتها معلّمة اللغة العربية!).

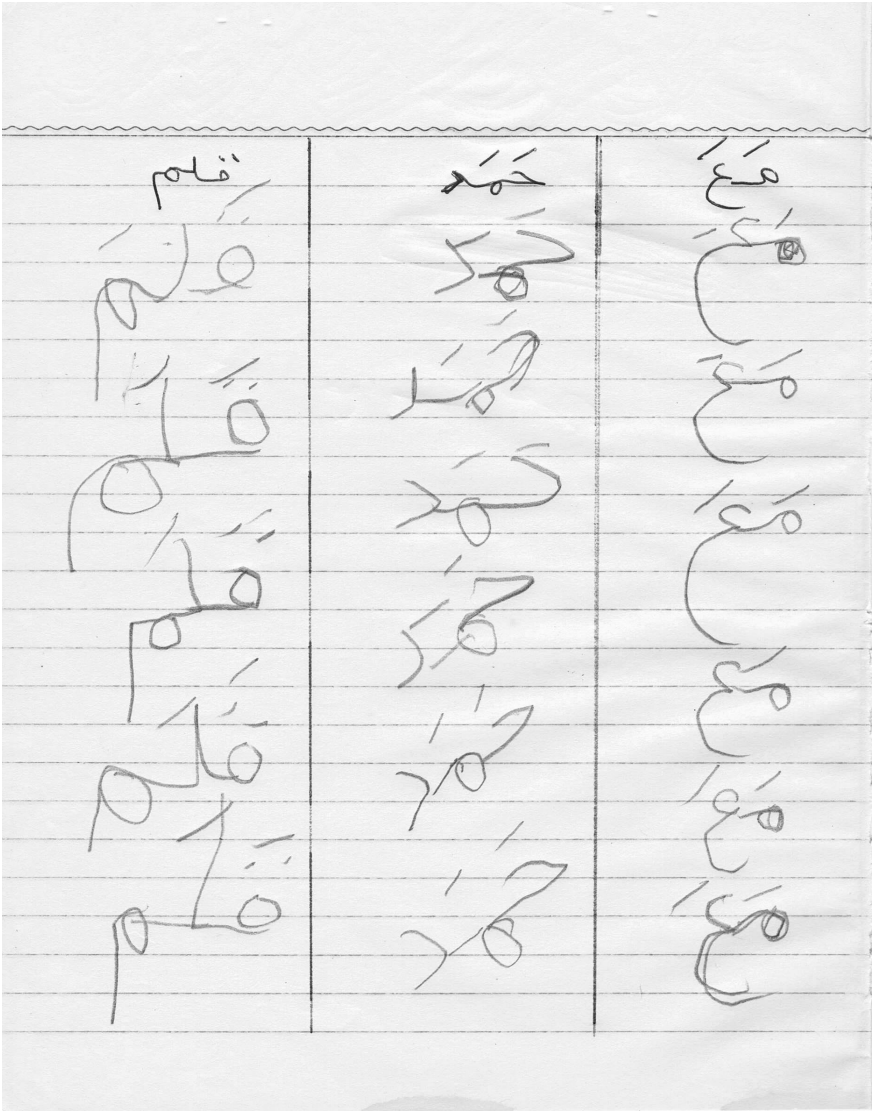

صفحة من دفتر اللغة العربية يوم ابتكرت الحيلة التوفيرية!

ألعاب إرهاب

«دق الجرس يا سلوم، علينا حصة علوم.
دق الجرس يا 'باربي'، علينا حصة عربي.
دق الجرس يا بنات، علينا رياضيات.
دق الجرس يا طلاب، علينا حصة ألعاب.»
(أهزوجة قديمة انتشرت بين طلبة المدارس)

* * * * *

دعوا عنكم المفارقة المضحكة بأن يُهتزج باسم «باربي» بمناسبة حصة اللغة العربية، فلنا حديث عن باربي لاحقا. حديثنا الآن عن حصة التربية البدنية المسماة عُرفا بحصة «الألعاب». حديثنا عن الألعاب، والإتعاب، والعقاب، والإرهاب. عن مطالبات المعلمة لنا بالانطلاق لأن «العقل السليم في الجسم السليم»، بيد أن هذا الانطلاق يجب أن يكون بهدوء، يجب أن يكون نمطيا، يجب أن يكون مسيّرا ومعقودا بهواها.
ومع محاولات الضبط البئيسة تتحول حصة الألعاب إلى حصة إرهاب، برعاية المسطرة الخشبية، أو تلك الموشّاة بطرف حديدي، أو العصا الفارعة مثل تلك الحقنة، هل تذكرونها؟ والطريف أنه توجد دزينات من العِصيّ في ركن صالة الرياضة، وجميعها ملفوفة بشريط لاصق لمّاع، إذ أن الغرض الأساسي منها استخدامها في الرقص الإيقاعي. لكن الإنسان لا يعدم

الحيلة، ويكتشف دائما طرقا لـ«إعادة تدوير» المنتجات. أرأيتم أحدا أبرّ بالبيئة منا؟!

* * * * *

ورغم التدبيجات حول الروح الرياضية، وأهمية «اللعبة الحلوة»، وبناء روح الفريق، إلا أن ما كنا نتلقاه كان موغلا في الفردية والندية بشراسة. الرقص الإيقاعي كان منصة تنافس فج لإثبات الذات، وتمارين «الجمباز» البسيطة علمتنا التنافس، ومعه التباغض والتدابر. أما الفتيات اللاتي يظهر امتلاؤهن حين يرتدين ملابس الرياضة مثلي، فكنا نحظى بنصيبنا من النبز، واللمز، وأهازيج السخرية التي لم تنهرهن المعلمة عنها يوما:

«بو تَمْبَة كسّر اللمبة، صحن صين وصحن هَمْبَة.»[٢٨]

لا تسألوني لم لا نقول للأنثى «أم تمبة» بدلا من «بو تمبة»، لأني لا أدري. لكني أستطيع أن أشرح لكم لم نسمي السمين «متينا» أو «متعافيا». هذه ظاهرة تاريخية لدى العرب، فتراث العرب ملئ بتمجيد السمنة والاكتناز، وتعظيم الكروش. وفي بلاد الشام أيضا يسمى السمين «ناصحا». وأظن علينا أن نصحح المثل الشائع ليصبح: العقل السليم في الجسم السمين.

* * * * *

«مع حمد قلم، يلعب كرة قدم.
مع حمد مَلّة[٢٩]، يلعب كرة سلّة.»
(أهزوجة كنا نرددها)

٢٨: تمبة: كرة، وبو تمبة السمين. اللمبة: المصباح. صين: خزف صيني. همبة: مانجا.
٢٩: مَلَّة: وعاء صغير وعميق للطعام.

وبعد أن ولغ التنافس في نفوسنا وجرى منا مجرى الدم، قررت المعلمة الأولى أنه يجب أن نتعلم اللعب الجماعي وأن تُبث في نفوسنا روح الفريق. فأمرت المعلمة أن تقسم الصف إلى فرق.

آتت المعلمة كل واحدة منا شريطة بلون فريقها وعلقتها على صدرها. هل تتساءلون أي لون حُزت؟ الوردي، أجل أجل، الوردي، الزهري، لون ثياب باربي المفضل، لون النمر الوردي. كنت في الفريق ذي اللون الذي تصبو إليه جميع الصبايا.

«قه قه قه! أجل، أجل، مُتنَ بغيظكن أنا في الفريق الأجمل.» أسررتها في نفسي ولم أبدها لهن. ووددت لو أمد لساني للزميلات في الفرق الأخرى خاصة سرمد -عليها الإنجكشن- لولا خشية تقريع المعلمة، أو خسارة شريطتي.

لماذا تحب الفتيات اللون الزهري؟ أهي الأغطية والألبسة المزهورِرَة التي يدثر بها الأهل المولودات؟ أم لأنه لون الزهور؟

ولماذا يتولع الفتيان بالأزرق؟ هل لأنه لون البحر والفتى يحب الإبحار والمغامرة؟ أم أننا نلقنه هذا بغمره بالازروراق؟

ملاحظة كتبها بابا جاسم على الجلدة الداخلية لمذكرة عام ١٩٨١

لكن، وكما علمتني «الجلّالة» التي تطفو فوق حليب الروضة الصباحي، لا بد من منغصات في ذي الحياة. فأن أكون في الشعبة الأولى وأيضا في الفريق الوردي، شيء كثير جدا. يقال أن إبليس -عليه لعائن الله- حسد الإنسان

-عليه نعائم الله- يوم رآه يأكل البلح بالتمر فقال: «بقي ابن آدم حتى أكل الحديث بالعتيق».

وعملا بهذا بالمبدأ الإبليسي، هاجت الفرق الأخرى وماجت واستخدمت جميع الاستراتيجيات التي تخطر بالبال؛ وعلى رأسها النواح والمطالبة الشرسة تارة، والمستجدية تارة أخرى للانضمام للفريق الوردي. تكاثر الهم على المعلمة فقررت إلغاء فكرة الفريق الوردي برمته، وقذفت على صدورنا أشرطة بنية اللون. أنا الآن في الفريق الأدعم[٣٠]، ذلك الفريق الذي يذكرني بلون ثياب «سرمد» المنتمية لفرقة الزهرات. اللون الذي يذكرني بالامتياز الذي لا أحوزه. مات الحلم الوردي، لكن لا أرجوكم لا تتعاطفوا معي كثيرا أو تحزنوا، فما الجديد في الأمر؟ ألم تودِ الغيرة من آدم بإبليسَ فأضحى من الملعونين؟ ألم يُعمِ الحقد قابيل فقتل أخاه؟ لا جديد، التاريخ يعيد نفسه، والبشر يكررون أخطاء أسلافهم.

يدّعي البعض أن التنافس، ومن بعده التقاتل، نشأ يوم قال الإنسان: «هذا لي». مخطئون هم، التقاتل بدأ حين عَدَت عينا الإنسان فتشوَّفَ إلى ما في راحة يد أخيه من زينة الدنيا، فقال: «أريد أن يصير هذا لي».

من مذكرات بابا جاسم، ٥ مارس، ١٩٩٠

وبعد أن بادت الأشرطة الوردية وأضحت أثرا بعد عين، بدأنا بأول دروس تعلم روح الفريق؛ سباق الجري! وللتوضيح، لم يكن سباق تتابع، بل كان سباقا عاديا؛ تجرى كل فتاة ويُحسب الوقت، والفريق ذي العضوات الأسرع

٣٠: الأدعم: البنّي.

يفوز في نهاية العام. لا تضحكوا، أنا أيضا لا أعرف كيف يمكن لأمر فردي وتنافسي مثل الجري الفردي أن يعلّمنا العمل الجماعي.

«هذا الكاس يحكي، والعيون تبكي.
هذا الكاس يلمع، والعيون تدمع.»
(أهزوجة رياضية شاعت في الثمانينيات)

هل تريدون أن تضحكوا أكثر؟ فاز فريقنا الأدعم المتعوس بالكأس الذي انتهى به المطاف في خزانة زجاجية مهيبة في مدخل المدرسة. وقالت لي إحدى طالبات الصف الثاني المطلعات أن الكؤوس الموجودة في الخزانة ستُزال بداية العام القادم بحجة التنظيف وسيعاد استخدامها لإغراء مستجدي الصف الأول الأغرار. ألم أقل لكم أن مقدرة بني البشر على إعادة تدوير الأشياء عجيبة؟ تبين لنا لاحقا أن وراء كل هذا رغبة المدرسة في توفير النفقات. فبدلا من ثلاثة كؤوس مثلا في آخر السنة لصاحبات المراكز الثلاثة، كان هناك كأس موعود واحد لأفضل فريق في الجري في كل شعبة.

* * * *

هل تعلمنا من الكرة غير الكُرْه؟ ولعل هذه ظاهرة عالمية، يتزعمها البريطانيون المشاكسون المسمون بال «Hooligans». لكن فلننظر إلى بقية الرياضات، فكُرة القدم من الاستثناءات في هذه الحياة. هل تعلم متابعو كرة السلة روح الفريق والعمل الجماعي والتخطيط؟ وهل تعلم المعجبون بالتنس الروح الرياضية وتقبل الهزيمة دونما أحقاد؟

أرأيتم حرص لاعبي كرة القدم حين يصطفون ويتراصون لمنع ركلات الجزاء؟ مؤسف أنا لم نتعلم منهم كيف نتراص في صلاتنا، دعوا عنكم أن نتعلم كيف نتراص في عملنا المجتمعي والتنموي.

والأهم من هذا كله، هل تعلّم أحد أن «لجسدك عليك حقا» فمارس الرياضة بدلا من الحملقة في الرياضيين وتصنيمهم؟ واقع الحال يشي بأن نسبة مخيفة من مشجعي الرياضات على اختلافها هم من ذوي الكروش العامرة، ومن ذوي الآفاق القاصرة، يستلقون على الأرائك يترعون بطونهم بجميع مسببات السمنة، ويتخمون أنفسهم بمختلف أمراض القلوب من تعصب وتقديس.

من مذكرات بابا جاسم، ٢٢ مارس ١٩٨٧

* * * * *

«يا متكتك الكاس لك.

لك وحدك من غير شك.

أوه، أوه، أوه، أوه، أوه يا الأزرق.»

(أغنية تشجيعية لمنتخب كرة القدم الكويتي في الثمانينيّات)

في وقت عرض مباراة الدور التمهيدي لنادي القادسية ونادي الجهراء ضمن بطولة كأس سمو الأمير، وحين حان وقت ضربات الجزاء الترجيحية وبلغت القلوب الحناجر، ترك أبي أمي تتابع المباراة وتسلل إلى الهاتف ليحادث الدكتورة استقلال أم صديقتي دنى! مررت بالقرب منه حين ذهبت لإحضار شيء من الثلاجة، وحين رآني أشاح ببصره، بالضبط كما فعل في موقعة الـ«إنجكشن» سيئة الذكر! تلعثم وبدأ يتحدث باللغة الإنكليزية. لم

أخشَ أن أسمع كلمة «إنجكشن» في معرض حديثه، فقد كنت بصحة جيدة. لكن لم عساه لا يريدني أن أسمع ما يقول؟ هنا، بدأت حاسة الفضول بالاعتمال، وتقمصت دور «فضولي»[٣١] ناذرة نفسي لمعرفة ما يدور. سأندس بين المشاهد، وفي خضم الأحداث هنا وهناك لأجد تفسيرا لما يريد واحد من حزب الكبار إخفاءه عني.

أخذت أحاول تنغيص المكالمة عليه:

-بابا، هدف للقادسية.

-بابا، الجهراء سيفوز.

وحين أعلنت النتيجة، ٥ لصالح الجهراء و٤ لصالح القادسية، هُرعت إليه وأخذت أصرخ بالنتيجة محاولة أن أُعلِم الدكتورة استقلال أنني معهما أسمع، وسأرى!

٣١: فضولي: شخصية في مجلة «ماجد» للأطفال. وهو شخص صغير يندس في مشهد مختلف في كل عدد، وعلى القراء إيجاده.

مواجهة سرمدية

«أبلة بلا بلا بلا بلا بلا»، ترفع الصغيرات سباباتهن. بعض الطالبات يأخذها الحماس، فتلوح بيدها في الهواء بقوة فتضرب باقي أصابعها بسبابتها محدثة صوتا لاسعا.

يصرخن: أبلة بلا بلا بلا بلا بلا.

وفي رأسي يصرخ الكائنان المريخيان[٣٢]:

يَبْ يَبْ يَبْ يَبْ يَبْ يَبْ يَبْ، آها، آها!

ولا يريحنا من هذا الطنين سوى «الفرصة».

* * * * *

«الفُرصة»[٣٣] كانت الوصيفة الأولى لجمال اليوم الدراسي، أما المركز الأول فمن نصيب «الهدّة»[٣٤]. وكلتا الكلمتين تحمل شيئا من الطرافة المخنوقة. فمن يسمعهما يخيّل له أن الأطفال قطيع من «الكائنات الصوفية اللطيفة» التي تتحين الفرصة للانطلاق، والفرج يأتيها دوما بجلجة جرس!

٣٢: كائنان مريخيان يزوران «أنيس وبدر» في برنامج «افتح يا سمسم» ويتكلمان على هذا النحو.

٣٣: فُرصة: فترة الاستراحة المدرسية.

٣٤: هدّة: انتهاء الدوام المدرسي، وينهد بالعامية تعني ينطلق.

كلما سمعناه يعلن العفو العام، بادرنا بأهزوجة «دُق الجرس، دُق الجرس» التي كنّا نغنيها على لحن مسروق؛ لحن أغنية «Frère Jacques» الفرنسية الشهيرة. جرسنا لم يكن كالأجراس اللطيفة التي تظهر في مسلسلات الرسوم المتحركة لا من حيث الشكل ولا الصوت. كان يشبه أجراس الإنذار من الحريق إلى حد بعيد. فقد كان دائريا ويستند على قاعدة خشبية وله بطن غريب تختفي خلفه يد معدنية. ومتى ما تلقف الإشارة، ضرب بيده على بطنه المعدني فخرج ذاك الصوت الفادح. صوت الهيبة والبهجة.

* * * * *

كعادتها تقف الكوبرا الكبرى (سرمد) قرب المقصف[٣٥]. صرت لا أشتري منه، وأشيح ببصري كلما مررت بقربه، إذ يسوؤني أن أرى الممثلة الرسمية لفسطاط الشر تتقلد صولجان الفضيلة، وترعى حمى العدالة، وتنزل القصاص العادل. كيف يجوز أن يجتمع الباطل والبطولة في جوف واحد؟! عالمي الثنائيّ القطبين كان يستصعب ذلك، وتصنيفاتي البيضاء-السوداء كانت تأبى أن تلتقط بث الحياة المعمور -مثل أفلام توم وجيري- بالـ«تكنيكلر»[٣٦]. عقلي الصغير لا يعرف إلا المقدس أوالمدنّس، ولا يعرف فضيلة التوسط بينهما. إن لم تكن من فريق الأشاوس، فأنت حتما من عصابة الأوباش.

٣٥: المقصف: محل صغير في المدرسة لبيع الأطعمة والمشروبات، له نافذة أو اثنتان تزدحم الطالبات أمامها.

٣٦: تكنيكلر: تقنية لتلوين الأفلام، ومن بينها الرسوم المتحركة.

إنه عالم ثنائي الأقطاب؛ شيوعي أو رأسمالي، خيّر أو شرير، سنفوري أو شرشبيلي، أبيض أو أسود. لم نسينا أن اللون الرمادي هو الغالب؟ هو لون المادة المكونة للمخ! نحن مناطق وسطى، وطرق ثالثة، وخيارات بديلة. الثنائيات المتغولة تآمرت، تآمرت كثيرا وتواقحت!

من مذكرات بابا جاسم. ١٢ يوليو، ١٩٨٦

حين تغزو بلقيس طابور المقصف -معتمدة على قوة أسطولها البدني!- كانت سرمد هي من تتصدى لها. وحين تضيع العملات المعدنية، كانت هي من تتلبس بروح «شارلُك هولمز» لتشرح للاختصاصية الاجتماعية ملابسات الحادث. وحين أحضر المقصف ولأول مرة «كاكاو بو شمسية»، كانت هي أول من أذاعت النبأ على فتيات صفنا معطية إيانا حظوة على الغافلات. صحيح أنها كانت تحرص على فعل ذلك في حضور معلمة ما لتشهد لها وتشفع بحسن السلوك، لكنها كانت تنفعنا أحيانا كثيرة. حسنا، فلنقل أنها مثل الذبابة؛ لها جناحُ داءٍ، وجناحُ دواء! سرمد الطاغية الطيّبة.

وقعت عيناني قسرا عليها ذات يوم والشمس تسطع فوق رأسي. رأيتها تمسك بعلبة مشروب غازي بطعم البرتقال في يدها، وعلى رأسها شريطة برتقالية تلائم زيها البني، لكن تخالف للوائح التي تشترط البياض في شرائط الشعر. لولا عيناها الصغيرتان، لكان وجهها مثاليا كوجه دمية. وجه مكتنز كوجه «هلو كِتِي»، معتدل لون البشرة، أنف منمنم، وفم دقيق رقيق، وأسنان ناصعة مرصوصة بشكل بديع. شعرها المسترسل يلائم زيها البني، وتغطي معظم جبينها غُرَّة مثالية لا تتطاير في الرطوبة ولا تناكفها كل صباح

كغرتي الشطون. وجهها بريء جدا ولطيف.

لماذا على كل الشخصيات الشريرة أن تكون قبيحة؟ ألا يمكن لشرشبيل أن يكون وسيما قسيما؟ لم لا يمكن للثعلب الشرير في مسلسل «سنان» أن يكون أرنبا شريرا أو كتكوتا مؤذيا؟ ألم تكن زوجة أب بيضاء الثلج (سنووايت) هي أجمل نساء الأرض قبل أن تبلغ بيضاء الثلج مبلغ النساء؟ فلم يرسمونها بهذا القبح والشناعة؟!

هل فاتهم أن أبا لهب -عليه من الله ما يستحق- سمي بهذا الاسم نظرا لبهاء وجهه؟ لم أرَ حتى الآن شريرا سمح المحيا في مسلسل رسوم متحركة، ولم أر كافرا بهي الطلة في أفلامنا السينمائية التاريخية.

وبعد أن تعرك الحياة أطفالنا وتركلهم، يكتشفون أن الأشرار -في الغالب الأعم- أناس وِسَامٌ ويتبسّمون!

من مذكرات بابا جاسم، ١٢ إبريل، ١٩٨٧

كانت سرمد هذه المرة وحيدة دون الوفد المرافق لها. غريبة، أين ذهبن؟ من دونهن لا يمكنها ممارسة هوايتها الأثيرة: التسلّط. هذه تالله فرصة كرؤية مذنب هالي؛ لا تتاح إلا مرة في العمر! تركت صويحباتي وتوجهت صوبها أستأسد رغم الوخز الذي يعتمر في أذنيّ.

- سرمد، اسمك اسم للصبيان!

- غير صحيح!

- بلى.

- لا.

- بلى، بلى!

- لا! من قال ذلك؟!

- معلمة اللغة العربية في مدرسة ابنة خالتي قالت أن سرمد اسم يطلق على الصبيان. (حسنا، {... إن هذا إلا اختلاق}، فلنقل أنها كذبة برتقالية!)

- أبلة عبير أشطر منها! هيا نذهب ونسألها. (أبلة عبير هي مدرسة اللغة العربية التي شدت أذني. تعسًا لإبليس! سرمد تلوي ذراعي وتذكرني بالمواضي السوداء!)

- بل فلنذهب إلى الاختصاصية الاجتماعية. (أغمزها من قناة شريطتها المخالفة!)

- خيالوه[٣٧] حَيَوانة!

قالت «حَيَوانة» بالفصحى، بفتح الياء بالضبط كما فعلت معلّمة اللغة العربية يوم شدت أذني! ثم أضافت:

- أعلم أن ركبتيك سوداوين.

تسحب سرمد جفنيها السفليين بسبابتيها وتخرج لسانها، وتعقد المفاجأة لساني! كيف عرفت سرمد بالأمر وأنا الحريصة على إخفاء ركبتيّ كل الحرص؟! وهل هناك طريقة لإذلال فتاة أسوأ من تعييرها بلون ركبتيها؟

تستمر سرمد في إفشال هجومي، وفي شلّي بسمومها اللسانية:

- خيالوه بو تمبة كسّر اللمبة، صحن صين وصحن همبة!

تصمت قليلا لتنبش في ذاكرتها عن شيء تغيظني به، وأنا لا أزال مشلولة

٣٧: خيالوه: صيغة تحقير لاسمي. وفي الخليج يتم تحقير الأسماء المؤنثة في الغالب على صيغة «فَعَالُوه»، و«فَعْلوه»، و«فْعيلة»، وأحيانا «فَعّول».

بما قالته عن ركبتيّ. ثم أخذت تغني أغنية منتجات لولو للتنظيف:
- لولو للزجاج، بسرعة بيلمّع، آه يا عيني. لولو للسجاد، لولو للموكيت ...
وخلال بضع ثوان ودون أية مقدمات منطقية، تحول وجهها المعمور بالشتائم إلى وجه ينضح براءة. وبدأت عينا سرمد بالاغروراق بالدموع. ثم صرخت مفجوعة وبصوت عالٍ:
- الله يسامحك!
الله أكبر كبيرا! من أين هبط كل هذا التهذيب عليها؟ التفتت ورائي وإذا بي أرى إحدى المعلمات تقترب نحونا، معاجلة سرمد بالسؤال:
- ماذا يحدث؟ ما بك يا سرمد؟ هل أنتِ بخير؟
صمتتْ سرمد متأبيّة. أخذت تنظر إلى الأعلى لتستعرض عينيها المعبأتين بالدموع، ولتتفاخر بدمعها العصي الذي يستنكف النزول من مقلتيها. هو يكتفي بالالتماع، وهي تكتفي بالصمت.
توجهت إليّ المعلمة حانقة، تسألني عما حدث وهي تهش عليّ بمسطرتها الخشبية ذات الطرف الحديدي (قياس ٣٠ سنتمترا طبعا) كما لو كنت شاة مارقة عن القطيع.
ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ أجل! سياسة النافورة، سياسة الحنفية. استجمعت كل قواي وأخذت أنوح. كان علي أن أُفقدها أسبقية الدمع. الكثرة تغلب الشجاعة، وتغلب الأسبقية.
أما سرمد، وبعد صمت طويل، صمت حَذِر ومعبّر، اكتفت بذرف دمعتين عزيزتين. فطلبت مني المعلمة بحزم ودون أن تعرف ما المشكلة أن أعتذر إلى سرمد! ماذا؟ ماذا؟ ألم يجد عويلي نفعا؟ كيف تفوقت دمعتاها على فيضاناتي؟ الدمع العزيز ينتصر ويقهر دموعي المبتذلة اللحوحة. الدمع القليل دمع ذو

معنى، خاصةً إذا كانت الغريمة مثلي؛ فتاة عُرف عنها أنها بكّاءة. سقطت سياسة النافورة، وانتصرت سياسة الري بالتنقيط. {... كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ...}!

يخرج المعلق الرياضي من غيمة فوق رأسي ليُعلن:

خيال بالبنطال «الأدعم» على يسار الحلبة، وسرمد بالبنطال الوردي على يمين الحلبة. خيال القوة الغاشمة، سرمد القوة الناعمة!

علّمنا النساء البكاء والتباكي على كل شيء، ومن أجل أي شيء، حتى صار البكاء عديم المعنى والقيمة. كون المرأة أكثر حساسية من الرجل لا يعني أن عليها أن تبكي مثل الأطفال. أشك أن أمواج البكاء المنهمرة من عيون بنات حواء تجيء عفوَ القريحة. لقد برمجتهن توقعات المجتمع على ذلك.

البكاء سلاح الضعيف، ونحن نريد المرأة ضعيفة مكسورة، إذ عليها أن تبكي كلما تيسر الأمر. وها قد صار بكاؤها سلاحها، صارت قوية لا ضعيفة وانقلب السحر علينا. صارت قوية، وزيادة على ذلك مزعجة!

صِدقًا، صرت نادرا ما أحترم دموع امرأة أو أصدقها.

من مذكرات بابا جاسم، ١٩ ديسمبر، ١٩٧٢

بالقفزة الفنية القاضية

ترافقني في الفرصة دنى، ويمنى (وهي طالبة في شعبة أخرى)، وآماد (الشقيقة الكبرى لدنى وهي في الصف الثالث الابتدائي). كانت يمنى تقول أننا مجموعة مكتملة، فآماد يبدأ اسمها بالألف، ويمنى بالياء. كانت في الحقيقة تحاول أن تخبرنا بأنها تحفظ الأحرف الهجائية. وقد توقفت عن ذلك بعدما عرفت أني أحفظ الأحرف الهجائية أيضا. شكرا يا «افتح يا سمسم».

كثيرا ما كانت يمنى «تتفلسف»؛ تنفش ريشها الطفولي؛ تستعرض عضلاتها الضامرة، فتغني أغنية الحروف الهجائية الإنكليزية التي تعلمتها من زوجة عمها الأمريكية، أو ترصع كلامها بكلمة إفرنجية. ومعرفة أطفال الابتدائية اللغة الإنكليزية في وقتنا كان إنجازا عزيزا، إذ لم تكن اللغة الإنكليزية تُدّرس في المدارس الحكومية إلا في المرحلة المتوسطة. كانت كثيرا ما تنهرنا حين نسمي الملصقات «اسْتيكرزات»، وتخبرنا أن اسمها الصحيح هو «اسْتيكرات»! كانت شيخة الطريقة الإفرنجية، ما لم تزرنا الغيرة بين الفينة والأخرى.

* * * * *

يمنى: نلعب «لبيدة»[٣٨]؟

أنا: هيا نبدأ! أووووه، حَذْرَة، بَذْرَة، قُل لي ...

يمنى: لحظة، لحظة! عندي أغنية أحلى.

دُنى: غزالة، بزالة، تحقرص، تمقرص ...

يمنى: لا، لا. عندي أغنية علمتني إياها زوجة عمي:

Eeny, meeny, miny, moe.

Catch the tiger by the toe.

دُنى: «بِشْ»!

أنا: «بِشيه»![٣٩]

دنى: أنا أعرف أغنية أجمل! حديَّة بديَّة، ناصر ديّة.

نتجاهل يمنى تماما، ونلجأ إلى أغنية دُنى. ها هي الغيرة تتمطى في نفوسنا، قد تتثاءب الغيرة أحيانا، لكنها حتما لا تنام. يمنى تبهرنا، تسلينا، تفيدنا، وتشعلنا غيرةً، ثم تمضي.

ما كنت لأكره يمنى بين الفينة والأخرى إلا لأنها تقيم الحجة علي. لأنها تكون الذي لا يمكنني أن أكونه. لا أكرهها، بل أكره كون عيون الآخرين تحولها إلى وسيلة لإيذائي حين تقارن بيننا. هذا يجبرني أحيانا أن أبرهن على نفسي بطريقة سَمِجة أو حتى بهلوانية كي أحافظ على بقعة ضوئي.

٣٨: لبيدة: الغُمَّيْضَة، وتسمى أيضا «صيدة ما صيدة».

٣٩: بِشْ وبِشيه: كلمتان تستخدمان للاستهزاء أو لتسفيه الآخر. الطريف أن ما كان حِلْفُنا «البِشيّ» يجهله هو أن الكلمة إنكليزية الأصل (Pish) وتستخدم أيضا للتسفيه والازدراء.

لا أدرى ما سر الغيرة التي تشيع لدى الإناث أكثر من الذكور. الغيرة نوع رديء من أنواع الخوف والشعور بعدم الأمان. وهو شعور يبذره المجتمع في أفئدة الفتيات بشتى الوسائل، في حين يضع باقة من الملاعق في فم الفتى وفي يده: حرية، أمان، اطمئنان، استقرار، سلطة، ثقة. ربما لهذا تنشأ المرأة العربية وقد تحولت إلى منصة لإطلاق صواريخ الغيرة، وقنابل الحسد.

وجدتها في الملف الأخضر إياه.

مع مزيد من الاطلاع على محتوياته، تبين أنها كلها تتعلق بالمرأة وتحليل نفسيتها ووضعها المجتمعي.

ذات فرصة، جاءتنا متهللة تخبرنا بأن أهلها سجلوها لتذهب هذا الصيف إلى مدرسة «پاليه» في سويسرا. أخذنا نلعب «الحَجْلة». وحين جاء دوري، ألقيت بـ«الربَّازة»[٤٠] فحلّت في مربع بعيد. قفزت قفزة فنيّة أثارت انبهار الجميع، قفزة تجعل جميع مدرّبي مدرسة البالية السويسرية يصفقون لي. ثم هبطت هبوطا اضطراريا. اصطكت ركبتاي بالأرضية المكسوة بالقار، وتغلغلت جزيئاته الصغيرة والحرشاء في راحتيّ. حملت إلى عيادة الممرضة -أبلة سوسن- على عجل. وأخوف ما كنت أخافه في تلك اللحظة كان أن تكتشف الفتيات والممرضة أن ركبتيّ غامقتا اللون، ألا يكفيني أن سرمد تعلم بأمرهما؟

أسكتتْ أبلة سوسن جراحي المنثبرة بدواء حارق لا يختلف لونه كثيرا عن الدماء الثاعبة. و«الدواء الأحمر» هذا كان المعتمد في المدارس والمستوصفات

٤٠: ربَّازة: حجر صغير يستخدم في لعبة الحجلة.

لمداواة الإصابات، ويتم أحيانا استعمال دواء أزرق اللون ولا أعرف الفرق بينهما إلى الآن فقد انقرضا. لكني أتذكر أن شكلهما بالضبط مثل الحبر، وأنهما يبقيان على البشرة لأيام. وسَرَتْ ذات مرة إشاعة أن الدواء الأحمر مصنوع من الفلفل الأحمر، وأن علينا أن نطلب من أبلة سوسن أن تعالجنا بالأزرق إذ هو أخف إيلاما!

أبلة سوسن سيدة كبيرة في السن. تصبغ شيبها بحنّاء حمراء فاقعة تفجع الناظرين، فتتوهج ناصيتها كشفق الأفق. لها سنان ملبسان بالذهب إذا ما تبسمت، وتحرص على تضميخ العقلات العلوية لأصابعها بحنّاء عطرة.

كانت تمر علينا في الصفوف لتضع لنا مرهما للوقاية من الرمد، وكنت -وبعكس الأخريات- غالبا ما أتطوع لأكون الأولى، ليس شجاعة بقدر ما هي تلبية لتوصية أمي أن أكون أول من يُوضع في عينها أنبوب المرهم الجديد بين زميلاتي، إذ كانت تخشى علي من العدوى من الأنبوب المشاع. أما إذا لاحظت أنها ستستخدم أنبوبا سبق واستخدمته لشعبة أخرى فأحرص على الوقوف في مكان متوسط من الطابور، ومتى ما فرغ الأنبوب وفتحت أبلة سوسن واحدا غيره، تجدوني في أول الصف وقد تظاهرت بأن الشجاعة قد هبطت للتو عليّ ومن البغيض خذلانها، فالشجاعة ضيفة مُقلّة.

* * * * *

جاء أبي لاصطحابي إلى البيت باكرا. ركبت في المقعد الأمامي بجانبه، فوخزني ظرف أبيض كبير. سحبته وإذا بي أجد اسم أم دنى عليه! د. استقلال سعود اليافع. لم أكن سريعة في القراءة بعد، فلم أتمكن من قراءة بقية التفاصيل المكتوبة على الظرف. سارع أبي إلى سحب الظرف من يدي وألقى به صوب

المقعد الخلفي. لم أتمكن للأسف من القفز إلى الخلف لاسترجاعه، فالألم في ركبتي كبّلني.

أخذ أبي يشاكسني ويغني أغنية إعلان «سائل لولو» التي كانت تثير جنوني:

«قولوا، قولوا، مهما تقولوا،

ما في أحسن من لولو.

نقطة منه على الأواني،

بيلمّعها في ثواني.

للسجاد والموكيت،

أحلى هدية لست البيت.»

سبحت في أفكاري، غير غاضبة من مشاكسته. وقفنا عند الإشارة، وعينها الحمراء الحمئة المشتعلة جمرا تنظر إلى ركبتي الحمراوين. كانت سيارتنا «النايتي أيت»[٤١] الكحلية الأولى في صف السيارات المتوقفة عند الإشارة، فأخذت أرجو أبي أن ينطلق بأقصى سرعة حين تتحول الإشارة إلى الأخضر. رجوته –كعادتي– ألا يدع السيارة الواقفة بجانبنا تسبقنا. لكني هذه المرة أجلس في الأمام، إني أجلس مكان أمي، وأتمنطق بحزام أمانها. تذكرت الظرف، فغطست في مقعدي وتناسيت أمر شغفي بسباق الإشارة. يجب أن أعرف ما الذي يدور، وفاءً لصاحبة المقعد.

- ها قد سبقنا السيارة المجاورة. ما رأيك؟ سعيدة؟

لم أرد عليه، قلبي كان معلقا بالظرف.

حين وصلنا إلى البيت، نزلت من السيارة بسرعة وحاولت التوجه إلى المقاعد

٤١: «نايتي أيت» تحوير لاسم «Ninety Eight»، وهي سيارة أمريكية كانت شائعة في الثمانينيّات. اسمها الكامل «أولدزموبيل ٩٨» وكانت من إنتاج شركة «جنرال موتورز».

الخلفية بسرعة بدعوى البحث عن بعض الأقلام الملونة التي قد أكون أضعتها في المقاعد الخلفية.
ضمني أبي مدللا إياني، ثم قال:
- انسي أمرها واخلدي إلى الراحة. سأشتري لك في المساء علبة ألوان جديدة. هل تريدينها من النوع الذي له رائحة فواكه؟
هززت رأسي موافقة على مضض. وفي رأسي ألف خيبة، وألف خطة.

(٢)

مُرتفع شَجويّ

التكويت والبسكويت

«باكر العيد ونذبح بقرة.
ريحة البيت عود وعنبرة.»
(أهزوجة شعبية عن العيد)

ليلة عيد الأضحى، عاد شقيقاي التوأمان. معن ومنهل يكبراني بخمسة عشر عاما، ويدرسان الطب منذ ثلاث سنوات في إحدى الجامعات في لَنْدن (بفتح اللام وسكون النون، فهذه هي الطريقة الكويتية في نطقها). أخبراني ذات مرة أن لندن هي عاصمة بريطانيا، ولم أتقبل الفكرة. تجاهلتهما وظللت أقول لصويحباتي أن لي أخوين يدرسان الطب في لندن، وعاصمتها بريطانيا!

أحضرا لي «الصوغة»[٤٢] المعهودة؛ علب من شوكولاتات «كادبوري» الشهيرة وعلى رأسها الفارس ذو القوام الأصفر الممشوق «فليك» الذي جعلني أفرط في تشجيع فريق «القادسية» لكرة القدم لأن ملابس فريقه تذكرني بالصفرة التي يتلفع بها السيد «فليك»!

٤٢: الصوغة: هدية يحضرها القادمون من السفر.

لا أظن أن المقاطعة الرسمية للشركات التي لها تعاملات مع الكيان الصهيوني ستجدي نفعا دون توعية شعبية أو إدماج جماهيري. ولا أظن أن شركة «كادبوري» ربحت في تاريخها بقدر ما تربح من مسافرينا. النساء يبعن ماكياج «ريڤلون» بالمزاد، ويتصارعن على عطر «تشارلي» ذي الرائحة السمجة. ما أسعدَ الفواكه المحرمة!

من مذكرات بابا جاسم، ١٥ مارس ١٩٨٦

دبابيس الشعر الجديدة تصطف مجندة، والتجهيزات ترفل في قراطيسها تنتظر نفير العيد. وينبلج الفجر، ويحتشد الكون لصلاة العيد. التكبيرات ترج الكون رجا، حتى أن «ريشمي» خادمتنا الجديدة أخذت تبكي في ذاك العيد حين سمعت التكبيرات ونداءات العيد. صحيح أنها كانت تعمل عند عائلة مسلمة قبل ذلك، لكنهم لم يكونوا ممن كتبت لهم بهجة العيد بالإنصات لتكبيراته وحضور صلاته. حين علمت جارتنا وسن بالأمر، حذرت أمي من كون ريشمي تحاول أن تدعي تأثرها بالإسلام، لتعتنقه لاحقا –صوريا- ويزيد راتبها تبعا لذلك!

الكون يصدح، الكون يهتز، السماء تهطل، الأرض تلهج. لم أفهم سر وجود سبع تكبيرات في صلاة العيد، لم أفهم معنى «بكرة وأصيلا» لم أفهم معنى «الأحزاب». لكن خافقي كان يتقافز، ويتوضّأ بالبهاء. لا تفسير لهذا سوى الفطرة الأولية، والصبغة الأساسية؛ {... ومَنْ أحسن من الله صبغة ...}؟

* * * * *

على عكس كل الأطفال، شهدتُ مراسم ذبح الأضحية بكل برود أعصاب. وعلى ذكر الأعصاب، لقد حذوتُ حذو شقيقي ودرست الطب، وأعمل الآن اختصاصية في جراحة الأعصاب رغم أني حينما كنت أسأل عما كنت أريد أن أصبح يوم كنت صغيرة فكنت أجيب: «سأصبح رسّامة». طبعا هذا مجرد تصريح تضليلي عملا بقانون الطرد، أما النية الفعلية فكانت أني عندما أكبر أريد أن أكون «باربية»! وقفت مع أمي و«ريشمي» نقسم أجزاء الأضحية. غادرت أمي المطبخ لترد على الهاتف، فالتقمت «ريشمي» الفرصة وتقمصت دور «بريجيت باردو» لتقول:

«هرام! مسكين كروف سوي موت!»

قبل قليل كانت تبكيها التكبيرات والآن تشكك في شعيرة إسلامية ثابتة؟ حنانيكم، هي تسأل، وحتى الملائكة سألت عن جعل الإنسان خليفة في الأرض. حالما عادت أمي صدحت لها قائلة:

- ماما، ريشمي تقول أن ذبح الخروف حرام!

أُمتقع وجه ريشمي، وطفقت تحاول تبرير الأمر خاصة أنها ليست جديدة في البلاد ويفترض أن تتجنب قول ما يزعج، لكن أمي أخذت الأمر بحكمة. وطفقت تقص لها -ولي أيضا- قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل. بعد هذا السؤال بسنة اعتنقت ريشمي الإسلام، لا طمعا كما قالت جارتنا وسن ذات النيات السيئة، بل لأنها سألت ووجدت من يُحيّي فيها السؤال، فيُحيِي نفسا ويُحيِي الناس جميعا.

* * * * *

بعد صلاة المغرب يقع المهرجان الأهم؛ التجمع العائلي الكبير. أخذت أراقب أمي وهي تستعد بنفش حاجبيها الأزجين بفرشاة خاصة، ثم تغمّقهما وتهربهما إلى خارج حدودهما الطبيعية. لماذا تراها كانت تفعل ذلك؟ إنها الثمانينيّات، وصرعة الحواجب السميكة كانت هي الرائجة، فحواجب «بروك شيلدز» و«مادونا» السمكية كانت هي المعيار. أما اليوم، وربما بسبب التصحر وكثرة المجاعات، تقلصت الحواجب وصار لدينا صرعة الحواجب اليابانية الطائرة، أو حواجب «الجنيّة». وللأمانة التاريخية هذه الحواجب العجيبة كانت موجودة ومعروفة جدا في الثمانينيّات، لكن في مسلسل الخيال العلمي «Space 1999»، وعلى وجه الدقة لدى «مايا» بطلته القادمة من الفضاء الخارجي!

إلى بيت «بابا عود»[٤٣]، إلى بيت آل الفكّار الكبير نتجه. أمي وأبي ابنا عم، ولم يكن علي أن أحسب حساب إلى من أنحاز حين ألعب مع بقية الأطفال.

تسير السيارة، وأحلام يقظتي تنثال؛ «اللبيدة»، «عماكور طاح بالتنور»، «طاق طاق طاقية»، «غاق، اشتبي يا براق؟ أبي غداي»، و«حدية بدية، ناصر دَيّة»، و«أنا الذيب باكلكم»، و«خروف مسلسل، هدوه»، و«طاق طاق طاقية»[٤٤].

أدندن لنفسي في السيارة لأتصبّر: «أووووه، حَذْرَة، بَذْرَة. قُل لي ربي، عد للعشرة».

لكن قبل الانغماس في الألعاب، لا بد من أداء الواجب الآلي المبجّل بتحية وتقبيل جميع الكبار، بما في ذلك الذين يحملون بذور زهرة النرجس في قلوبهم. هذه هي «جلّالة» العيد!

٤٣: عود: كبير، «بابا عود» تطلق على الجد.

٤٤: ألعاب شعبية للأطفال.

العيد هو تقريص الخدود، وبقع أحمر الشفاه عليها، ونصائح الكبار البغيضة. وهو أيضا كعك البرتقال، وكبدة الفرس[٤٥]، والحلوى البحرينية والمسكتية[٤٦].

خالتي لطيفة كانت تتولى وفادة الصغار وسقايتهم. «أبيض، أم أسود، أم أحمر، أم برتقالي؟» كانت تسألنا.

خالتي لطيفة التي لم تكمل تعليمها حريصة على عدم ذكر اسم المشروب الغازي وتكتفي بذكر لونه؟ أيعقل أنها تمارس الحياد الإعلامي إلى هذا الحد؟ أم أن نطق أسمائها الإفرنجية فيه تحد لغوي لها؟

نأتي الآن إلى لموضوع الأهم، «العيادي». طبعا عيديتك تتناسب طرديا مع عمرك، ومع مكانة والديك في العائلة، وأيضا مع مدى لطافتك وتهذيبك مع الكبار أثناء العام. احفظ الدرس جيدا، وإلا خاب أملك في العيد. طبعا هناك بعض الاستثناءات مثل عمتي غنيمة (عمة أبي) وعيديتها ثابتة؛ ربع دينار للجميع. هي الوحيدة التي تنسف المعايير الثلاثية. لكن، حدث أمر غريب هذا العيد. صدقوا أو لا تصدقوا، لقد أعطتني عشرين دينارا! أجل، هكذا دفعة واحدة، ولم تكن العملة مزورة، بل جديدة وتقرقش!

هرعت إلى حضن أمي لأريها إياها، يبدو أني كنت مهذبة جدا ولطيفة خلال هذا العام حتى منّت علي بهذا. طبعا لكم أن تتخيلوا النظرات التي انبعثت عيون لِدَاتي الشازرة.

مهلا، مهلا، تصحيح! مونتاج! «خيال، تعالي إلى هنا بسرعة!» نادت عمتي

٤٥: كبدة الفرس: نوع من الحلوى، يسمى أيضا في الكويت الحلقوم. ويسمى الراحة أو الملبن في البلاد العربية الأخرى.

٤٦: المسكتية: المسقطية.

غنيمة بصوتها المتهدج بالحرص. وأخذت مني العشرين، وأعطتني الربع دينار المعهود! لقد التبس عليها الأمر فبصرها ضعيف، وكان لون الربع دينار قريبا من العشرين آنذاك. وا خيبتاه!

تركت النسوة يتفكهن باللحم البشري تارة، ويتكلمن تارة أخرى عن آخر وصفة لتحضير الكعك الإسفنجي والبسكويت. لعبت اللبيدة مع الأطفال لبعض الوقت، ثم ذهبت إلى صالة الرجال بعد أن صرخت فينا عمتي سلوى بأن لا نصرخ! حرصت أن أفاجئ عمي فيصل (جار جدي) وأسلم عليه أولا كي لا أعطيه فرصة ليفعل ما يفعل في كل عيد؛ يخرج منديلا من جيبه ويمسح أحمر شفاهي ويقول لي أني لا أزال صغيرة. سلمت علي البقية، وألقيت بنفسي في حضن «بابا جاسم» الذي خصني بعيدية خاصة، بعلبة من الحلوى البحرينية الأصيلة لي وحدي. موتوا بغيظكم فأنا الأثيرة إلى قلبه.

كان حديث الرجال عن سياسة التَكْوِيت، وكانوا يقولون أشياء لا أفهمها.

سألت أبي:

- ماذا يعني التكويت؟

- صَه، ليس الآن يا خيال! (كان منغمسا في النقاش.)

مللت وغادرت، ويرن في أذني من أحاديث النساء «البسكويت»، ومن أحاديث الرجال «التكويت». عدت ألعب الحَجْلة مع صويحباتي وأنا أغني في سري: «تكويت، بسكويت، تكويت، بسكويت».

عقوق الهدية

«أبيض!» صرخت!

«أجل، يناسب لون التلفزيون» رد معن.

امتعضت، لكن سكتّ. لم أكن أعلم وقتها أنهما وفرا من مصروفهما لشرائه. الأسود أفضل، وتعمل عليه جميع «الأشرطة». كنت أود لو كان لدي، فهذا سيجعلني مركز الاهتمام، وطريقا للتبادل التجاري للـ«أشرطة» بين الأطفال. وأخيرا أقول وداعا للـ«أتاري». كان هناك من هذا الحاسوب نوعان، أبيض بمميزات محدودة وهو الجيل الأول، وهناك الأسود الباذخ الفخامة أو الجيل الثاني وله ميزات إضافية منها أن بعض «الأشرطة» الحديثة لا تعمل إلا عليه. أما الأشرطة فهو تعبير مستورد من عالم الڤيديو، فهذه الحواسيب لم تكن تقبل الأشرطة، بل لها «بُطيقات» (تصغير بطاقة) بحجم الكف تودع في الحاسوب، لكنا كنا نسميها أشرطة.

«النظافة من الإيمان، يحرص عليها كل إنسان.

النظافة من الإيمان، يحرص عليها كل إنسان.

كن نظيفا ولا تحزن، فإن الخاسر ليس هو الأحسن.»

كنّا نردد هذه الأغنية على أنغام موسيقا لعبة «القلعة» أو «The Castle» الشهيرة. لا أدري من ألّفها، لكنني سمعتها من أبناء جيراننا ونشرتها بدوري في محيطي اللعبي. لا أزال أتذكر بطيقة «الوطن العربي» فمنها تعلمت أسماء

الدول العربية وعواصمها وأعلامها وأنهارها.
بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدانِ *** ومن نجد إلى يمنٍ إلى مصر فتطوانِ
هذا كان بيت الشعر الذي كنا نغنيه على النغمة التي تظهر عند بداية تشغيل البُطيقة.

اليوم كان مشاري يصرخ بفزع قائلا لموضي أنه مات! تبين أنه مات أثناء لعبة كمبيوتر سخيفة. كان (هو/بطل اللعبة) يسعى فيها وراء الأميرة ويناصب الأشباح العداء، ويقاتل كائنات لزجة تمتص القلوب.
كم يزعجني أن أرى أيادي أحفادي المتعرقّة قلقا على الأزرار البلاستيكية.
كم يزعجني أن أراهم يتماهون مع بطريق أكّال للسمك، أو ضفدع قفاز بين السيارات، أو صعلوك قاتل للتنينات.

من مذكرات بابا جاسم، ٣٠ مايو ١٩٨٨

* * * * *

اجتمعنا لتناول الغذاء الأخير مع شقيقي قبل رحيلهما. علاقتي بمعن ومنهل لم تكن حينها متوثقة كثيرا بسبب البون العمري الشاسع. كانا يمحضاني مودّة جمّة، لكن للعمر أحكام. أتذكر ذاك الغداء جيدا جدا. يومها أخذ منهل يتكلم عن كثير من الافتراضات، وأفرط في استعمال عبارة «برأيكم ماذا لو». أخذ يتحدث عن رأينا في صديق له -كما يدّعي- يدرس في الخارج ويفكر أن يتزوج فتاة من تلك البلاد ليحملها على الدخول في الإسلام ويكسب الثواب من الله. قه قه قه، أنت أخرق جدا يبنؤم في التظاهر، الكل تقريبا فهم أنك تقصد نفسك. غصت أمي غصّة شنيعة جعلت منهل يعيد

النظر قبل أن يفتح هكذا مواضيع. وبعد الغداء، عاودت أبي نوبة السعال التي كانت تهجم عليه في الأوقات الحوالك. ساد الأجواء احتداد صامت، وأكملنا يومنا وحولنا كثير من النَقع المُثار.

جاءني محمد وحصة اليوم يشتكيان ويخشيان. يقولان أنهما يشكان أن قلب منهل يخفق، وللفتاة غير المناسبة. يقولان أنه قال أنه كنّى ولم يصرّح، وأنه يدعي أنه مهتم بها من أجل ثواب إسلامها فقط!
رحم الله ابن تيمية حين قال: «وما أكثرَ ما تفعل النفوس ما تهواه، ظانّة أنها تفعله طاعة لله»!

من مذكرات بابا جاسم، من دفتر صغير خصصه لكتابات ملاحظات عن منهل ومعن وحدهما!

هل خصني أنا أيضا بدفتر مشابه؟ لماذا لم أجده إذا في المخزن؟!

بعد صلاة المغرب كان علينا الذهاب إلى المطار لإيصال وتوديع شقيقيّ. لكني رفضت الذهاب وفضلت مصاحبة الحاسوب!

أيعقل أن يهديك أحد شيئا، فتنشغل به عنه وعن وداده؟ أجل، كثيرا ما يحدث ذلك. ألم يعطنا الله عيونا فانشغلنا بها عنه، بل وعصيناه بها؟ ألم يعطنا سمعا فأصخناه للغيبة والنميمة، ألم يعطنا ألسنة فتفننا في الكذب وزخرفة الزور؟ يعوزنا الكثير لنتعلم أدب تلقي الهدايا، وإلا فلنرجعها لأصحابها! ربي «فكأنما تُسِّقُنا المَل»، إذ تعطينا، فنعصيك، فتعود وتعطينا مجددا!

من مذكرات بابا جاسم، ١٢ أغسطس ١٩٧٩

لعبت ولعبت حتى غفوت، ثم استيقظت فزعة إثر حلم غريب. حلمت بأن أحد أسناني (القاطع الأعلى الأيمن تحديدا) يهتز، والدكتورة استقلال تحاول إرجاعه مكانه وتثبيته، لكنه في النهاية سقط بعد طول معاناة. أيتها الدكتورة الشريرة، يا أم الإنجكشن، أبعدي يديك عن أسناني الجميلة، أسناني اللولو! لم يكن حلما عاديا، ولا حتى كابوسا من الكوابيس المخيفة التي كنت أراها. كانت حلما مفارقا. هذه ليست المرة الأولى التي تظهر فيها الدكتورة استقلال في أحلامي، لكنها المرة الوحيدة التي تظهر في حلم واضح الألوان والمعالم.

ديموقراطيسية

سبتمبر، ١٩٨٨

حزتُ ترقية بالأقدمية، وصرت في الصف الثاني الابتدائي. «ثانية أوّل» طبعا بحكم قدري السعيد. كبرنا عاما، وما عدنا نرتدي بطاقات عليها اسمنا في أول العام الدراسي. ما عادت الطالبات الكبيرات ينظرن إلينا نظرات استصغار، بل انقلبت الآية وصرنا نحن نشير إلى مستجدات الصف الأول ونتضاحك: «صغيرات، صغيرات!» وكأننا لم نكن بالأمس هكذا. «أَلم تكن تصنعُ ما يَصنعُ إذ أَنت صبي؟»[٤٧]

يقولون «الكلام إذا تكرّر، تقرّر»، ولهذا أجمعوا أمرهم أن يجعلوا التلاميذ أشبه بكائنات ذات آذان طويلة تحمل أسفارا! وهذا لا يكون إلا بحشو الحقيبة بالكتب. فلا بد للتلميذ من وجاهة، وإن لم يكن له كرش، فليكن لحقيبته كرش من القراطيس الثقال العظام تمد به سلطانه وهيبته.
كل كتاب في الحقيبة يجب أن يكون مجلدا بجلاد لاصق شفاف، ويجب أن يكون عليه «طابع» أو ملصق نكتب عليه الاسم والصف والشعبة والمدرسة والمادة، ويزين الكتاب بملصقات منوّعة حسب الذوق والرغبة. وفي الحقيبة يوجد أيضا الدفاتر الهزيلة، والكشاكيل العُتُلَّة الضخمة. والاختيار بين الدفتر والكشكول ليس بمَلْكنا، بل للمعلمة فهي التي تحدد أصله

٤٧: شطر من بيت لأحمد شوقي.

وفصله وشجرة العائلة التي على أوراقه أن تنحدر منها وعدد صفحاته. بل أن بعضهن يتطرفن ويطلبن تجليده بلون معين حتى لا تختلط دفاتر صفوفها مع دفاتر زميلاتها في غرفة المعلمات. أما «المقلمة»، فأهم ما في الحقيبة، وفيها {... فليتنافس المتنافسون}! المقلمة كانت تعني الهوية، وإذا تشابهت مقلمتك مع مقلمة أخرى فأعلم رعاك الله أن ماء وجهك أريق، وأن عليك أن تحجبها عن العيان حتى تبتاع واحدة أخرى. وكلما اكتنزت المقلمة وكبر كرشها دل ذلك على الوجاهة وربما النباهة.

التسطير هو القاعدة. على الطالبة الشاطرة أن تكتب على السطور، وأن تسطّر دفترها بما يرضي المعلمة؛ سطر طولي على اليمين وآخر على اليسار لتحديد الهوامش، وسطر صغير على اليمين للتاريخ الميلادي، وآخر على اليسار للتاريخ الهجري، وسطر خفيض في المنتصف للعنوان. لا شيء أجمل من السيطرة على التلاميذ الصغار بالسطور! نختار ما نشاء من أقلام وملصقات، هذه ديموقراطيتنا المدرسية؛ ديموقراطيسيتنا. لكن السطور خط أحمر، ومن خرجت عن نواميس السطور، سطرت المعلمة وجنة دفترها باللون الأحمر.

* * * * *

التاريخ أعاد نفسه، فقبعتُ في المقعد الأخير لكن ليس بجانب «هيا» بل بلقيس، وهي تتمتع بخبرة سنة كاملة في هذا الصف فهي تعيد السنة بعد حصولها على كم وافر من «كعكات الفراولة» التي حدثتكم عنها. الطالبة الكسلى طالبة خائفة جدا، خائفة إلى حد التعبير عن فزعها هذا عن طريق

اللامبالاة بأمر الدراسة. ألا نتجمد حينما نخاف؟ الكسالى طلاب جمّدهم الخوف، فجنحوا إلى اللامبالاة يطببون بها فرط الفزع. وكثيرا ما يحوّل الوقت لامبالاتهم إلى مشاغبة وأذى.

انقلب اللوح هذا العام من لوح أسود على حواشيه غبار الطباشير، إلى لوح أبيض ناصع تتناثر على أطرافه سواد غبار أقلام اللوح القابلة للمسح.

وطفقنا نحضر معنا أقلاما للوح لنكتب عليه بين الحصص وفي الفرص.

كان شيئا غير عادي أن يتمكن الطفل من الخربشة على اللوح، فهو رمز السلطة ولا يمكن في الأحوال العادية أن يُكتب عليه شيء دون إذن المعلمة ورقابتها. من هنا تتولد تلك الرغبة التي تعتري الإنسان في كسر هيبة المحظور ومعاندته، ولا «يتأدب» إلا حينما يُفتضح أمره ويذهب في جولة قرب الشمس أو وراءها أحيانا! وهذا ما حصل لبلقيس المشاكسة، فقد أحضرت معها قلما ظنت أنه قابل للمسح، فتبين أنه لم يكن مخصصا للألواح وبقي ما كتبته على اللوح يصدح حتى دخلت المعلمة ورأته. انتهى الأمر بقدوم الاختصاصية الاجتماعية التي فتشت الحقائب حتى عثرت على القلم المشاكس لدى بلقيس، واقتيدت مخفورة إلى غرفة الناظرة. ما أكثر المشاكل التي يسببها اليراع في العالم العربي! بلقيس أيضا ملكة الأقلام الحمراء؛ وهي تدعونا بين الوقت والآخر لترينا قلما أحمر جديدا ضمته إلى قطيعها من الأقلام الحمر، فتضع على أيدينا نجمات مجانية، أو تتواقح وتسرق دفتر إحدانا لكتب عليه «حسّني خطك!» أو «راسبة» بحبر أحمر سائل جدا. وحين تكون منزعجة من معلّمة ما، تستخرج قلمها الأخضر الوحيد وتتقمص دور الموجّه، وتكتب ملاحظة للمعلّمة: «صفك ضعيف، حسّني مستواك!» ثم تقطع الصفحة إلى قطع صغيرة، وتتخلص منها بتوزيعها

على سلال مهملات مختلفة ومتباعدة. ذات مرة أهدتني بلقيس قلما أحمر، وقالت مفاخرة ومدللة على عظم قدره: «سرقتُه من أبلة اللغة العربية».

* * * * *

ذات مرّة، أحضرت دنى معها مقلمة من ألمانيا، قالت أن أمها اشترتها لها حين سافرت إلى مؤتمر طبي. الغريب أن أبي كان مسافرا في الوقت ذاته وإلى ألمانيا أيضا. لم أكن غاصبة لأني لم أحظ بمقلمة مشابهة، كنت مشغولة بالمصادفة العجيبة التي تصفعني مرة أخرى، تخرب عوالمي المُفَلْطَنة[٤٨]، وتشدني من شحمة أذني إلى كبد الواقع. بلعت الأرض ماءها، وتركتني أنشوي في حر الإشارات الواضحة.

٤٨: مفلطنة: يُفَلْطِن الشيء أي يجعله أفلاطونيا.

على باب «الاحتياط»

حينما يدق جرس طابور الصباح، يدق معه عنق النعاس. كنا نصطف مثل قناني المشروبات الغازية في صندوقها؛ موحَّدة ووفقا للمعايير. تقتشنا معلمة الحصة الأولى بحثا عن من تعقص شعرها بشكل غير ملائم، أو تستخدم شريطة بغير اللون الأبيض، أو لم تقص أظافرها. لكن صباح الثلاثاء من كل أسبوع كان مختلفا ومخيفا، فأبلة ناهد معلمة الرياضيات كانت معلمتنا في الحصة الأولى، ومفتشتنا في طابور الصباح. حتى سرمد تتخلى عن شريطتها البرتقالية في أيام الثلاثاء. لكن أبلة ناهد لم تظهر اليوم، بل وقفت بدلا عنها معلمة جديدة. وهذا يعني حدثا سعيدا جدا: «حصة احتياط».

بلقيس الخبيرة وفور دخولها الصف غيرت مكانها وغمزت لي لنجلس بالقرب من دنى. وسرعان ما فهمت بقية الطالبات الخطة، وجلست كل منها قرب من تريد من صديقاتها فالمعلمة لا تعلم أماكننا. الغريب أن «ثغرة الدافرسوار» (سرمد) لم تشِ بنا!

في اليوم التالي حصة احتياط أخرى، يا فرحتا! هذه المرة تولت أمرنا معلمة أخرى أتذكر وجهها المكفهر جيدا. «راسك في كراسك» هكذا زمجرت. وأظنها مدرسة تربية فنية لأننا كنا نطلق اسم «الكراسة» على دفتر الرسم لا الكتابة. الغريب أنني لم أجد لديها أي حس جمالي، على الأقل عند مخاطبتنا.

أخرجت بلقيس كيسا من «البفك» خبأته في الدرج وأخذت تأكل، قدمت لي بعضه لكني رفضت. لا، لست جبانة، فلنقل أني كنت أؤثر السلامة.
وكلما اصطبغت يد بلقيس باللون البرتقالي الذي يتميز به «البفك» مسحتها بثوبها تارة ولعقتها متى ما أمكنها ذلك دون أن تلاحظها المعلمة. لكن الفطنة كانت تعوزها، فقد اختارت نوعا بنكهة الفلفل، وسرعان ما عطشت فاستأذنت المدرسة كي تخرج للشرب فأذنت لها. ثم عادت تتلمظ، فلمحتها فتوح التي تجلس في المقعد الذي أمامها، ويبدو أنها اشتمت أيضا رائحة «البفك»، فالتفت نحوها وطالبتها بنصيب من الكيس وإلا أبلغت المعلمة.
وتمت عملية تهريب الدفعة الأولى من «البفك» بسلام على طريقة محمّد علي كلاي «تحرّك كالفراشة والسع كالنحلة». وفي المرة الثانية جفلت يد بلقيس وسقطت الحمولة وافتضح الأمر. وكدت أتهم معهما لولا أن رائحتي وراحتيّ تخلو من أي آثار «بفكيّة». طبعا كان مصير بلقيس وفتوح الوقوف على الحائط الخلفي بقية حصة الاحتياط حتى تفطرت أقدامهما.
أعلنت سرمد الخبر رسميا: أبلة ناهد وضعت مولودا، وستأتي لنا مدرسة بديلة غدا.

السبت سبنبوت والأحد عنكبوت

في عطلة نهاية الأسبوع ذهبت مع أمي إلى بيت دنى. سبب الزيارة الرسمي هو الدراسة مع دنى لاختبار الرياضيات الأسبوع القادم لأننا نعاني من شرح المعلمة البديلة المبتدئة. أما السبب غير المعلن فهو أن الوقت قد حان لتتعرف والدتانا على بعضهما عن كثب. لقد استمرت صداقتنا فترة طويلة، في حين ظلت العلاقة بين أهلنا عبارة عن معرفة وسلام، وهذا لا يصح طبعا. ألا تعلمون أن خيوط اللعبة الاجتماعية في يد الصغار؟ فعلى الأهل أن يصادقوا أصدقاء أبنائهم، وأن يعادوا أهل من يضرب أو يهين فلذات أكبادهم. أحيانا يتفذلك الكبار ويدّعون أن لهم دورا في توجيه أبنائهم واختيار أصدقائهم، لكن هذا كلام للاستهلاك العائلي المحلي فقط، والغلبة لمعشر الصغار.

كنت أريد أن أخبر أمي أن أبي يعرف الدكتورة استقلال سلفا وأنه يكلمها عبر الهاتف، وأنني رأيتهما ذات مرة يتكلمان طويلا وقت «الهدة» في إحدى المرات التي أتى فيها أبي لاصطحابي. لكني قررت أن أصمت وأن أتابع الوضع أكثر. ودخولي إلى بيت دنى سيؤهلني لمعرفة المزيد عن أمها؛ عن غريمة أمي، وربما زوجة أبي المحتملة. لن أخبر أمي الآن، ألم تصمت على كذب أبي في يوم موقعة الـ«إنجكشن»؟ أليست هي من تزوجته، فورثت عنه شعري الهائج ذا

الخصلات الغجرية المتماوجة؟ لا بد من معاقبتها قليلا، سأحتفظ بالسر إلى الوقت المناسب.

سألتني لولو: هل يمكن للمرأة أن تتزوج أكثر من رجل؟
وحينما أجبتها بالنفي، مطّت شفتيها. وجهها يقول بأن لديها معلومات تبيح للمرأة أن تتزوج أكثر من رجل!
مخيفة هذه اللولو! كتومة هذه الطفلة-الكهلة.

من مذكرات بابا جاسم، ٢ أكتوبر، ١٩٨٨

دلفت وفي يديّ باقة زهور أوكلت إلي أن أقدمها بطريقة مهذبة لـ«خالتي الدكتورة». تتعلم الفتيات «الأصول» الاجتماعية منذ سن غضة جدا، وإذا ما سارت على الطريق المرسومة، وفي هذه الحالة تصبح فتاة «شاطرة» طبعا حتى لو كانت متأخرة دراسيا. ما أوسع مفهوم الشطارة لدينا. كنت أريد أن أتواقح متذاكية، أو أن أتذاكى متواقحة وأقول لها: «أعتذر عن صراخي بنتيجة المباراة حينما كنت تكلمين أبي عبر الهاتف، لكنه يشجع القادسية وكان يجب أن أخبره بالنتيجة». أخذت أفاضل بين «الشطارة» و«الشطانة» حتى انعقد لساني. لقد عقدته «الشطارة» بأنشوطة معقدة، كتلك التي يعلمونها للمرشدات والكشّافة. كتلك التي تتقنها سرمد.
فرحت الدكتورة بالباقة كثيرا، حتى أنها بادرت بوضعها على الفور في مزهرية.
سألتها أمي:
- هل صحيح يا دكتورة أن وضع أقراص الـ«پندول» في المزهرية يطيل من عمر الزهور؟

زوجتي توبخني لأني لم أحضر لها زهورا في حياتي! تقول أن لي طباعا كطباع الفتيات (تقصد كتابتي لمذكراتي!)، والأجدر بي أن أشتري الزهور إذا كان ولا بد من التشبه بالفتيات!

لم أشأ أن أتجادل معها، أعرف أن إحدى صويحباتها صبت الفكرة في رأسها بعدما أخذتها من فِلم أو تمثيلية.

وماذا تريد المرأة بزهور تموت أمام عينيها؟ تضع لها السكر ومواد غريبة في المزهرية كي تموت ببطء أكبر. من يهتم بزهور تُحتضر في مزهرية، كمن يصلب إنسانا، ثم يطبب جراحه بمحلول اليود.

بدأت أشك في كون المرأة كائنا حساسا ورقيقا!

من مذكرات بابا جاسم، ٢٨ مايو، ١٩٧٥

طفقت أتأملها للمرة الأولى دون حجابها. للدكتورة استقلال وجه طويل ونحيل كوجه غزالة، حاجباها كثيفان دون وساطات الأقلام، وتصبغ شعرها بلون شعر الليدي ديانا. لكن من قال أن شكلها هو جواز سفرها؟

أخذنا نجلب ونتصاخب في أرجاء البيت مع أختها الكبرى آماد. أخذنا نغني:

«السبت سبنبوت.

والأحد عنكبوت.

والاثنين بابين.

والثلاثا منارة.

والأربعا بشارة.

والخميس نذبح إبليس.

والجمعة، عيدنا وعيد الرسول.
السبت سبنبوت.
والأحد عنكبوت ...»

«عنكبوت، عنكبوت!» صرختُ.
ظهر عنكبوت صغير جدا يقفز على جدار الممر. توجهت بالحديث إلى آماد على اعتبار أنها كانت أكبرنا سنا وعليها التصرف وتحمل مسؤولية قتله.
ازدردت ريقها، وزاغ بصرها، ثم قالت:
- قتل العنكبوت حرام. فالعنكبوت نسجت خيوطها على الغار الذي كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر الصديق -رضي الله عنه- يختبئان فيه! هذا مكتوب في كتاب الدين.
هاه! ويقولون كيف يقوم الناس بلي عنق الدين ليناسب مصالحهم الشخصية. هذا مثال لطفلة تقلد الكبار دون خجل أو وجل. جيد أنها لم تحرّم أكل الحمام، لأني أحب أكله. عرفنا لاحقا أن ما رأيناه لم يكن عنكبوتا بل «بوّاق العيش»[٤٩] أي لص العيش، وهو حشرة صغيرة جدا تشبه العنكبوت غالبا ما تعيش في الأرز.
تركنا الممر إلى غرفة دنى للعب بدمى باربي وهذه هي «سياسة التجنب» وغالبا ما ينتهجها الجبناء من الصغار، لكن لا أعرف لماذا يفعل الكبار مثل ذلك رغم أن عودهم قد اشتد؟ أخرجت دنى كنوزها من دمى باربي ومشتقاتها وملحقاتها. وأخذت أقلّب الدمى وأتخيّر أيها أريد أن أشبه. وامتشقت كل

٤٩: في الخليج نسمّي الأرز عيشا، بعكس المصريين الذين يطلقون هذا الاسم على الخبز. وهذا طبيعي فسيد المائدة والمعيشة يحظى دوما بلقب العيش.

واحدة منها باربيّة راقت لها، وأطلقت عليها اسما، وأخذنا نلهو بابتهاج وإلهاج. مرة تذهب الصديقات في نزهة صحراوية، ومرة يتسوقن للعيد، ومرة يذهبن إلى المستشفى. وفي كل مرة، كنت أصر أن تكون باربيتي طبيبة حمقاء، تؤذي المرضى وتصف العلاجات الخاطئة، وتقتل الحوامل، وينتهي بها المطاف في السجن!

وقعت في يديّ اليوم «باربي» التي تلعب موضي بها. هذه الشقراء تبدو لي كمسخ فشل الأطباء في علاجه. استعرت شريط القياس من علبة خياطة زوجتي لأكتشف أن محيط رأس «باربي» يبلغ ١٠ سنتمترات، ومقياس خصرها كذلك! من عادة الإنسان أن يكون خصره أعرض من رأسه، إلا أن «باربي» هذه رأسها خصرها. هي خصر مياس، في طرفه الأعلى رأس. هي كَمَثَل الطاووس، ذيل بهيج وفي طرفه الأدنى طائر هزيل.

كم هي متشابهة هذه الكائنات، كما لو سُبكت بقطّاعة البسكويت ذاتها. قد تختلف درجة لون الشعر قليلا، قد تختلف الثياب، لكن مقاييس الجسد غير الواقعية هي هي. كلها لها شعر لا يتساقط ولا يبلى وتكاد تجلس عليه من طوله، وعيون تحتل ربع الوجه تقريبا. كلها لها ذات الرموش المُستوصلَة، والحواجب المنموصة، والأنوف المطموسة، والابتسامة البلهاء المستديمة.

من مذكرات بابا جاسم، ١٥ مايو، ١٩٨٩

باربي، باربي. هذه الهيفاء، هذه الهوفاء الجوفاء التي أرهقتنا أملا. لقد أرهقتِ من بعدك يا باربي؛ فها هي «فلّة» أتأمل وجهها اليوم، لها أنفك الكاليفورني في وجهها العربي، وذات الساقين غير المبررتين تشريحيا. هي أنت مع تعديل قليل في الألوان، وتوسيع في العيون. إنها باربي لكن بعد اعتناق الإسلام وشيء من سفعة الشمس.

كلنا أسرى لك يا قطعة البلاستيك الخطلاء. لولاكِ لما مضغت في مراهقتي مناديل الورق وابتلعتها بدل الطعام (على اعتبار أن ألياف الـ«سليلوز» التي فيها مغذية!). لولاكِ، لما أهدتني «سمر» -رفيقة المراهقة المرهِقة- كتاب «ريجيم نجمات هوليود». كان واجبا على الناشر أن يزيل الياء من «ريجيم» لتصبح «رجيم»، فهذا هو الاسم الملائم لمحتوى الكتاب. عشت سنوات مراهقتي على الخضار وبعض أنواع الحبوب. وحتى لا أظلم الكتاب، أنا بالغت في الأمر، فهو لم يقل ذلك حرفيا، لكنها الرغبة في التطرف التي تعتري المراهقين؛ واحدهم يتطرف موسيقيًا، وآخر فكريًا، وأنا اخترت التطرف الغذائي، فجنحت وجمحت في تجويع ذاتي. كنت أزهو بنُحولي وبهزالي الذي جعلني قمينة بلقب «خيال المآتة»! كل هذا ما كان ليحدث، لولا أنك علّلتني أملا. كبرتُ، نضجتُ، لكن ما يزال في نفسي شيء من باربي. بربكِ يا باربي، ما أنتِ؟

* * * * *

لم أتمكن من معرفة كل ما أريد معرفته. والحل هو سياسة النافورة (سياسة

فاشلة في المدرسة، لكنها مجدية جدا مع أمي). حين حان وقت المغادرة، أخذت أبكي مطالبة بالبقاء والمبيت في بيت دنى. وامتدت عدوى المجاورة إلى دنى وآماد، وأمام «ترويكا» البكاء أوتيت سؤلي. من لم تسرع به حجته، أسرع به بكاؤه!

ولم أنس طبعا أن أوصي أمي أن تُسجل لي التمثيلية التي ستعرض في سهرة اليوم، فلا ضمانة أن تسمح لنا «خالتي الدكتورة» بالسهر.

موقعة الاستخبار

أخذتُ زيتونة ملتبس لونها من طبق الإفطار، وقلت لدنى:

- تصلح لأن تكون بطيخة في مطبخ باربي.

طفحت الغيرة على وجهها لكوني اكتشفت شيئا موافقا للمقياس الباربوي لم تتمكن هي من اكتشافه. قدمتْ دنى لي علكا بعد الإفطار، ثم طوت قصديره على شكل لفافة، وقالت:

- سأضعها في مطبخ باربي لتكون ورق قصدير تغطي به أطباق الأطعمة!

احتفظت بقصدير علكي أيضا، أنبش في أفكاري عن استعمال باربوي له. كنا نؤمن بأن للأشياء مقياسين: مقياس البشر ومقياس باربي. وفي كوننا الصغير، باربي –لا البشر– هي المقياس الأجمل والأكمل.

توجهت إلى «كن»[٥٠]، ووضعت القصدير على رأسه ثم ثبته بمطاطة؛ هذا هو «كن» المعرّب بغترة وعقال! قصة لعبنا اليوم كانت بقلمي، وملخصها أن «كن» أعمى البصيرة قرر أن يتزوج على باربي، واحزروا من؟ سيتزوج «سِندي» ذات الوجه العريض الأفطح، سيتزوج باربي مقلَّدة. لامتني دنى على تحاملي وأصرت على أن سندي ابنة خالة «كن»، وأنها نبيلة المحتد. أخذت تفتش في خزانتها عن علبة الدمية، ثم أرتني صك البراءة: «صنعت في بريطانيا العظمى»، ولا داعي أن أذكركم أن بريطانيا عاصمة لندن.

* * * * *

امرأة عابرة للقارات هذه الدكتورة، امرأة من طراز مختلف، امرأة لها مستقبل

٥٠: كن، :Ken لعبة ضمن مجموعة باربي صُنع ليكون خدين باربي، وكُنَّا نظنه زوجها!

مهني مستقل، امرأة لامعة يقول لسان حالها كما تقول الأغنية: «أنا حواليا كتير»! إنها تجعل زوجها يغار عليها أكثر مما تغار عليه. سياسة الدفاع بالهجوم!

أمي، ومن أمي؟ اليتيمة اللطيمة التي مات أبوها وهي جنين، وماتت أمها وهي تضعها، فتربّت في بيت جدي، وتزوجت ابن عمها. حصلت على دبلوم من «معهد المعلمات»، ثم قبعت في البيت. أمّا أم دنى، فنجمة تبرق في الأعالي. هي نجمة عالية غالية لا تُختطف أو لا تُقتطف. هي المرأة-المجرّة. حتى أمي معجبة بها، وتترع أذني بقولها: الدكتورة، الدكتورة، الدكتورة، حتى كدت أنسى اسمها.

> تبدأ مفيدة وبريئة؛ تبدأ أسماءً للعائلات أو ألقابا مهنية. ثم يطالها التفخيم، ومن بعده التضخيم، فيبقى اللقب، ويتلاشى صاحبه.
>
> **من مذكرات بابا جاسم، ٣٠ مايو، ١٩٧٧**

الدكتورة تعمل لدُنى ضفيرة فرنسية، أما أمي فلا تتقن ذلك أبدا. الدكتورة تحمل سلاحا فتاكا إذ لديها الصلاحية لصرف الإنجكشنات المؤلمات للدفاع عن أحبتها وقهر الأعادي. ألهذا أعجب بها أبي؟ لأنها النموذج المعاكس لأمي؟

أمي المرأة المكرّسة له بالكامل، أمي التي وظيفتها في الحياة هي أبي، أمي المرأة التي تحج حول زوجها، أمي المرأة المطيعة إلى حد الإزعاج، المرأة التي ترى في بعلها مصدر الحياة الوحيد، وسبب الوجود الوحيد، ومصدر الدخل الوحيد، فتخنقه باهتمامها. هي في حقيقة الحال حين تهتم به كل هذا الاهتمام، تهتم بنفسها وبمصلحتها وباستثمارها في شخصه. هي في الحقيقة تحافظ على

بيضها الذي وضعته في سلة واحدة، ثم تدعي أنها تفعل ذلك من فرط الحب. من فرط الحب لنفسها، ربما! لذا، يفر أبي عنها باحثا عن امرأة لا تعبأ به إلا قليلا. لكن لم عسى الدكتورة -هذه المرأة الكوكبية الفتاكة- أن تعجب بأبي؟ أبو دنى كان له منصب رفيع في وزارة الخارجية في حين أن أبي لم يكن إلا صاحب لمكتب مغمور؛ «مكتب الفكّار لبيع وشراء العقار».

المفارقة المضحكة هي أن أمي -ورغم كل هذا الدوران التام في فلك أبي- لم تفطن لما يدور حولها.

العربى ينبهر بالمرأة الفتّانة، يهيم بالمرأة الذكية الفتّاكة، لكنه لا يتزوج إلا المرأة المكرسة؛ المرأة التى لا تخرجه من إطار الأمان، ولا تستفزه بذكائها أو بطموحها. تلك التى لا وجود لها على إحداثيات الكون إلاّ من خلاله، هى النصف الضائع الذى يبحث عن حائط ظل رجل ، وما من طريقة للتنعم بظله إلا بالجلوس قرب قدميه. فى البداية تجلس فى ظله، ثم تتحول هى إلى ظله. الظل والذل بينهما قرابة من الدرجة الأولى الممتازة!

المجتمع يبرمجه على البحث عن المرأة الأعجوبة، المرأة <تحت الطلب> التى تتقن أن تكون له بألف وجه كما لو كانت جنى المصباح؛ تلك التى يمكنها أن تكون أمه، وزوجته، وأخته، وابنته، وسكرتيرته، وخادمته، ومهرجته، وبهلوانته، وكل فكرة ممكنة قد تخطر على باله. يريدها ريحانة تسعده، قهرمانة تخدمه، لكن إياها أن تكون إنسانة تنافسه. فالإنسانة التى تؤمن بأنها خلقت مثله للعبادة وعمارة الأرض، مشروع مثير للاهتمام جدا، لكن ليس إلى حد الزواج. هى بالنسبة له مشروع انتصار، فرس بريّة يطمح أن يفوز بشرف ترويضها وتأديبها

إن لزم الأمر. لا يريد شيئا منها سوى أن يثير إعجابها، هي شيء يفاز به لكن لا يُحتفظ به على المدى البعيد. وبمجرد أن تحنى له رأسها قليلا، سيغرس علم إنجازه فوق هامتها، ويتركها ويعود إلى عشه بريش جديد؛ ريش المنتصر. لهذا كان الرافعي والعقاد يتنافسان على مي زيادة، يتنافسان لا حبا فيها، بل حبا في الفوز بسبق ترويضها.

هذه النوعية من النساء لا يتزوجن إلا بإحدى طريقتين:

١. أن تتخابث عليه وتتظاهر بالبساطة وانعدام الطموح، ثم تستنسر بعد الزواج.

٢. أن يكون زوجها من سلالة رجالية نادرة، الرجال الرجوليون. وهذه فصيلة من الرجال مثل دببة الباندا، كائنات جميلة ومهمة للتوازن البيئي لكن مهددة بالانقراض!

من الملف الأخضر. مَنْ كتب هذا الكلام المفزع في عمقه؟

* * * * *

لمحت زجاجة عطر الدكتورة استقلال، كانت تلتف عليها أفعى، ولها رائحة لا تزال في أنفي حتى الآن. وا خيبتاه، تحامقت ذات مرة وأخبرت إحدى فتيات صفي أني أخطط أن أستعمل هذا العطر عندما أكبر. وتعرفون طبعا ما حدث؛ اختفى العطر من الأسواق تماما. فاتني أن أكتم وأن أستخدم «قانون الطرد».

كبرت «وفي نفسي شيء من» باربي. وكبرت وفي نفسي شيء من الدكتورة استقلال.

* * * * *

قبيل الغداء، شاهدنا مسلسل «خماسي» الذي حصلت دنى على أشرطته قبل

عرضه في التلفزيون.

«خماسي خماسي شخصية،

خمسة أجزاء علمية،

خمسة أجزاء عملية،

اتحدت في جسم واحد،

لأهداف إنسانية».

وحملتنا الحناجر الذهبية التي تعودنا عليها في طفولتنا إلى عالم من الأخيلة العلمية الجميلة.

تعسًا لإبليس! الدكتورة استقلال -المرأة التي لا تُكسر ولا تُعصر- لطيفة جدا معي اليوم. لقد طلبتْ من دنى أن تعيرني أشرطة «خماسي» حينما لاحظت انبهاري بها. الكارثة أني قبلت الرشوة، وهُرعت بها الخميس الذي يليه إلى بيت جدي لأشاهدها مع بقية الرفاق.

خميس رائع آخر، والأحفاد يتحلقون حول «دوّة»[٥١] البيت، جهاز الڤيديو! اليوم أحضرت لولو معها أشرطة لمسلسل اسمه «خماسي». أبطاله أربعة فتيان وفتاة اسمها «شيزورو». مؤهل «شيزورو» الوحيد هو أنها حفيدة الدكتور «نَمْبارا» مبتكر خماسي. ما سر الفتيات المخصصات لرفع العتب في مسلسلات الأطفال؟ ماذا تفعل «راي» في مسلسل «جونگر» سوى التطفل على «كنتارو»؟ ولم كانت تنورتها قصيرة هكذا؟ ولماذا هناك ٩٩ سنفورا وسنفورة واحدة؟

الغريب جدا في «خماسي» هو «أورليانا» أم القائد «گارودا» الذي نذر نفسه

٥١: دُوّة: مدفأة تستخدم في دول الخليج.

لتدمير الأرض، فشكلها يطابق تماما شكل تمثال الحرية الأمريكي! الأغرب من ذلك هو أن القائد «گارودا» له شكل في الأحوال العادية، لكن في أوقات القتال يتحول إلى نسر، كذلك الذي على شعار الولايات المتحدة الأمريكية. حسب معلوماتي المسلسل ياباني، ولا أظن أن اليابان كانت تعادي أمريكا أثناء إنتاج هذا المسلسل، أم أنها محاولة تصفية حسابات بعد «هيروشما» و«ناگازاكي»؟ حتى الرسوم المتحركة صارت خادمة للأيديولوجيا؟

من مذكرات بابا جاسم، ورقة غير مؤرخة موضوعة في مذكرة العام ١٩٨٧

* * * * *

على الغداء، أسرت لي دنى إسرارا:

- عندما أكبر أريد أن أصبح باربية!

«لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين.» كتمت ما في وجداني، ولم أتهور وأخبرها بأنها سرقت أمنيتي. بل حجبت الريح عن شمعتي العزيزة بالسكوت. وددت أن أقول لها «لا تبوحي»، لكن قد فات الأوان. أعلم يقينا أنها لن تكون باربية حينما تكبر. هكذا يقول «قانون الطرد» المجرَّب.

بعد الغداء عرضت الدكتورة استقلال أن تعمل لي ضفيرة فرنسية. «لا وألف لا. 'تأبى المروءة'. عذرا، لا أتلقى الصدقات!» هكذا وددت أن أصرخ في وجهها.

ثم أخذت أفكر في كذبة ما، كذبة برتقالية أو حمراء. أجل، سأخبرها أن الطبيب أوصى أمي ألا يُشد شعري. لكنها طبيبة وستكشف الكذبة. أخذت أبحث عن كذبة معقولة في قوس قزح الأكاذيب الذي ورثته عن أبي. وفي

النهاية أسلمتُ وتلتني للجبين، وأخذت تضفر لي شعري. وشعوري شعور المواطن المرتشي، لا يفسد نشوته سوى وخز الضمير. ضميري يلاحقني بـ«إنجكشن» كبيرة في مناماتي. عليك الإنجكشن يا أحلامي، عليك الإنجكشن يا احتياجاتي. لك سكتّ، ومن أجلك ارتشيت، وإكراما لعينيك تنازلت عن قضيتي. وخسرت موقعة الاستخبار.

اعتذرت الدكتورة استقلال عن عدم البقاء معنا إلى حين حضور أمي العصر. كان لديها اجتماع طبي طارئ، لذا أبقتنا في عهدة زوجها. هي امرأة لا تقبل أن تتنازل فقط لأنها امرأة، بل لديها قدر من الأنانية يمثل القدر الذي لديه تماما. هي امرأة لا تدور في فلكه، لا تسبح بحمده وتقدس له، هي ليست من النجوم المسخرات بأمر هذا الرجل. هي لا «تشعل أصابعها العشرة شمعا له»، تشعل له ثلاثة أو ربما أربعة، وتستأثر بالباقي لنفسها ومجدها. لهذا هي تحتفظ به وتجذب غيره. هي من طراز خاص، غير قابل للاقتناء. يظل طوال عمره يركض خلفها ليفوز بها. هو مشغول بها عن غيرها. كل النساء كحليب «نيدو» القابل للذوبان، الدكتورة استقلال كحليب «نستله» المركز والمحلّى!

مقتطف مختطف (٢)

من كشكول لبابا جاسم عنوانه: «مسرحيات للصغار الكبار». لا يوجد تاريخ على أي من نصوصه.

سندباد

الشخصيات:

سندباد

زَغَل

المكان:

منطقة ما في الصحراء.

- زغل، زغل، اخرجي أنا سندباد.
- سندباد، ما خلتك تأتي بقدميك إليّ!
- مهلا، هذه المرة الأمور مختلفة. لعل «بولبا» أخبرك بخلاصة الموضوع.
- أحب أن أسمعه منك، بلسانك يا سندباد.
- حسنٌ، أنا مستعد لفتح صفحة جديدة معكم. فلننس الماضي، أعني فلنتناساه. هذه القافلة من الجِمال الأصيلة هدية، عربون تعاون.

- ما أكرمك، ما أكرمك! مُذ متى صرت تمحضنا كل هذا الود؟

- حتى أكون صريحا، أنا لا أحبكم يا زغل، لكن مصلحتي تقتضي علي التعامل معكم والتعاون.

- أفهمك جيدا، يعجبني بنو البشر حينما يضعون قلوبهم على الرف، ويفكرون بعقولهم. ماذا تطلب في المقابل؟

- ياسمينة، يجب أن تبقى عصفورة.

- عجَبٌ عُجاب! خلتك ستطلب مني أن أعيدها فتاة! قل لي، ماذا تدبر يا سندباد، هل هذه إحدى حيلك أنت وعصابة أصدقائك؟

- لا، أنا جاد في طلبي.

- وأنا أشك في كل كلمة تقولها. ثمة شيء غير منطقي في طلبك. أنت تريد بنا شرا، وهذه الصفقة التي تريد عقدها معنا ما هي إلا واجهة لمكر مكرته أنت ورفاقك!

- لا يا زغل، أنا صادق في كل ما أقول. لو كنت ماكرا، لما جئتك وحدي وتركت رفاقي. يمكنك إرسال عفريت الصحراء ليتأكد من بقائهم في الخيمة وسط الصحراء يغطون في سبات عميق.

- ولم يريد سندباد الطيب والخيّر (أكره هذه الكلمات!) إبقاء ياسمينة تعاني؟

- من قال أني أريدها أن تعاني؟ أنا أريد الخير لها. خيرٌ لها أن تبقى عصفورة.

- أظنك تعلم أن ياسمينة كانت أميرة، فكيف يكون أفضل لها أن تبقى عصفورة؟

- وهل لو لم تكن عصفورة، لأتيح لها أن ترى العالم هكذا، وتخبر الحياة؟

كانت ستحبس في القصر، كانت ستعيش سخيفة، لا تعرف من الحياة سوى اللهو والدعة. بقاؤها معي أفضل لها ولي أيضا.

- ولك؟ أجل لك. ياسمينة ليست مجرد حيوان أليف، هي جاسوستك التي تستطلع الأخبار لك، ومتنبئتك التي تخبرك بالكوارث الجوية قبل وقوعها، وتحمل لك الرسائل، وتقضم الحبال عنك لو أوثقك بها أحد، وتسليك وتسلي ضيوفك. هي «سكينك السويسرية»!

- ما هذه الأراجيف يا زغل؟ أنا تهمني مصلحتها وحسب. ثم قلتِ سكيني الماذا؟

- سكينك السويسرية، شيء لا تعرفونه بعد في زمانكم.

- ما قولك يا زغل؟ موافقة؟

- إذا يا سندباد، أنت تريدها أن تبقى عصفورة مهيضة الجناح. يا لك من فتى أناني، ستكبر لتكون رجلا أنانيا أيضا. تَأَنْسُنُها ليس من صالحك، حريتها حرمان لك. تدعي أنك تفهم مصلحتها أكثر منها؟ تدعي أنه خير لها أن تكون حيوانة من أن تكون إنسانة وأميرة؟ أنت تبحث عن مصلحتك، ثم تلبسها لبوسا يجعل الأمر يبدو كما لو كنت فعلا تبحث عن مصلحتها.

- لم آت لأسمع مواعظ، جئت لعقد صفقة.

- ستنال صفعة ممتازة يا سندباد.

- ماذا تقصدين؟

- أنت تعلم أني نصف امرأة ونصف بقرة. نصفي بشر، ونصفي الآخر يملكه الزعيم الأزرق.

- وبالتالي؟

- وبالتالي، إخلاصي لبنات جنسي لا يسمح لي بمطاوعتك. كما أن إخلاصي للزعيم الأزرق الحانق عليك أيضا لا يسمح لي إلا بأذيتك.
- إذا ترفضين؟
- أبدا! لدي حل مثالي، حل مجانيّ، لا حاجة لي بهديتك.

تتمتم زغل بكلمات غريبة وتوجه شيئا نحو سندباد الذي سقط يتلوى على الأرض، ثم تحول إلى شيء ما.

- طر يا سندباد، حياة العصافير أفضل بكثير من حياة التجار. صدقني، أنا أريد مصلحتك حينما حولتك إلى طائر ناطق! والآن يمكنك أن تضمن بقاء ياسمينة معك طوال العمر، فلا يوجد على الأرض عصافير تتكلم سواك وإياها.

وتقهقه زغل بصوت عالٍ، ثم تطير بعيدا. في حين يجرب سندباد جناحيه للمرة الأولى!

الممحاة العظيمة

وجاء يوم الامتحان، أعني الامتهان.
كنت أظن أن على الممحاة أن تمسح الفداحة بكفاءة، وإلا لم عساهم أسموها ممحاة؟ وبعد ذاك الموقف، أقول أن تلك «مسألة فيها نظر». الممحاة للمحو أحيانا كثيرة، وللإثبات في بعض الأحايين. كانت ممحاة كبيرة جدا، بحجم ممحاتين أو أكثر وكانت بعض الطالبات يحضرنها معهن رغم أنها غير عملية وكبيرة على أياديهن الصغيرة، لكنها نزعة الاستعراض الطاووسي. أتذكرها بجلاء، أذكر غلافها التي تلتفع به، كان أبيضَ بخط برتقالي. تلك الممحاة كانت شاهد إثبات، لو أنها كانت تنطق.

كانت أبلة ضحى -معلمة الرياضيات الجديدة- صغيرة وغريرة، و«طيّبة». والكبار عندما يكونون شطارا لا يُسموّن شطارا، بل يُقال عنهم أنهم طيبون. الشطارة مصطلح للصغار فقط. شرحها كان متواضعا، لكن يشفع لها أنها كانت تنتهي مبكرا من الدرس وتسمح لنا بالكتابة على اللوح. الأجمل من هذا كله أنها لم تكن تكلفنا بواجبات إلا فيما ندر، ولا تطلب دفاترنا لتصححها.
جاء يوم الامتحان، يوم الممحاة العظيمة! حين رأت الوجوم على وجوهنا، استعارت تلك الممحاة التي حكيت لكم عنها من إحدى الطالبات وقالت:
- من تنتهي من الاختبار تأتي إليّ، وسأمسح لها الإجابات الخاطئة.

وتهللت وجوهٌ! كنت أريد أن أذهب كما ذهبت كثيرات ودنى منهن. ومالي ألاّ أذهب وقد توافدن كلهن ينتظرن حكم المحاة العظيمة. أزيح الكرسي إلى الخلف، يخزني شيء ما وأعود جالسة. فالمعلمة ستظن أني لست شاطرة، وأمي حذرتني من أن تأخذ المعلمات فكرة سيئة عني. أزيح الكرسي مرة أخرى، وشيء في صدري يخزني، «إنجكشن» صغيرة وخزتها محرقة. كلهن تهالكن، لم يصمد أحد سواي وبلقيس التي كانت ورقتها فارغة تماما ولا تحتاج لتدخل المحاة!

«لا هم إلا هم العرس، ولا وجع إلا وجع ~~الضرس~~»
بل وجع الضمير!

من كتيب صغير لبابا جاسم، جمع فيه بعض الأمثال الشعبية، دون تاريخ

نلت خمس درجات من أصل عشر، وجن جنون أمي وأبي حين اطلعا على الورقة. حكيت لهما قصة المحاة العظيمة، وتقدمت أمي بشكوى، وتم تغيير المعلمة. وحينما عُلم بأني وراء تغيير المعلمة اللطيفة «الطيبة»، نلت ما نلت من المقاطعة والتحقير.

لا تزال تلك الدرجة التي نلتها تفتك بي في منامي، أراها وأرى وجه أبي العَتُوب. أرى المحاة العملاقة تسألني: «لِمَ لَمْ تستفيدي من خدماتي الجليلة؟» وتأمر رفيقتها المبراة العظيمة بأن تقشّرني كما تقشر قلم الرصاص.

أيتها المحاة الضخمة العظيمة،
لِمَ تعجزين عن محو الذكريات الأليمة؟

المصحف الوردي

لا شيء في حقيبتي أعز على قلبي من كراسة الرسم. يا لي من ثرثارة! يبدو أني اعترفت بحبي للرسم أمام أحد، فعمل قانون الطرد البغيض عمله. صارت مادة التربية الفنية من المواد الثانوية التي لا تحتسب في المجموع، ولا تحدد تفوق الطلبة.

ثمة جانب فني مدفون في كل المهيّئين لمهنة الطب. إذ تقودهم رهافة حسهم إلى امتهان عمل قريب من الفن، عمل يبدو في ظاهره قاسيا وفجا، لكن في باطنه الرحمة. قد يبحث الأطباء عن شيء من الترطيب والسلوى في الفن هربا من الدماء والأوجاع التي يصادفونها في نهارهم، لكني متأكدة أن الطبيب والجرّاح تحديدا فنان، فحتى خياطة الجرح فن. طبيب لا يدرك الجمال ولا يسعى وراءه حجر مُصْمَت لا مكان له في مهنة تتطلب قدرا كبيرا من شدة البأس ورباطة الجأش، ولكن قدرا أكبر وأعظم من التحنان والحس الجمالي. وإذا أردت لابنك أن يكون طبيبا في يوم، فلا تنهره لانشغاله بالخربشة، فهذا أولى مقومات الطبيب الناجح خاصة إذا كان يجنح إلى كتابة اسمه بالمقلوب!

* * * * *

وَيْ، إن للفن لشطحات! ذلك المصحف الموضوع في غرفة الاستقبال لم يكن جميلا لي بما فيه الكفاية. غلافه أسود حالك، والكتابة المذهبّة التي فيه وقورة وجادة أكثر من اللازم. كانت جدتي تقرأ فيه بعد الصلاة عندما تزورنا. لم تكن تقرأ فعلا، بل تجيل عينيها وتعتمد على ما تحفظ من آيات

إذ أنها لا تجيد القراءة. كانت تناديني لأفتح لها الصفحة على سورة الضحى أو سورتي الفلق والناس.

قررت أن أزيّن المصحفَ لجدتي! خصفت على الغلاف جلاّدا زهريا مليئا بالزهور ثم أخذت ألصق عليه ما تيسر من «الترتر» والخرز! وأخذت نفسي تؤزني أزًا لمزيد من التفنن. فتحت صفحات المصحف وأخذت أزخرفها. فتارة أرسم زهورا على الجوانب وأسطّر الحواف الفارغة بدرجات اللون الوردي، وتارة ألصق حبات من «الترتر» القرمزية على الحواشي. لكن كل هذا لم يكن كافيا، فصرخت:

- ريشمي، أحضري لي ملصقات سنفورة من غرفتي بسرعة!

فنهتها أمي، وأتت مسرعة تنهرني:

- كم مرة قلت لك لا تلصقي شيئا على حوائط غرفة الاستقبال، هل نسيـ ...

صعقت أمي بما رأت! وفشل مشروع تجميل المصحف. لكن مهلا، لماذا لا يوجد حتى الآن مصحف بغلاف وردي مثلا؟ تخيلوا غلاف وردي وزخرفات باللون الفضي، سيكون جميلا بهيّا. لماذا لا يوجد نسخة من جزء عم خاصة بالأطفال، نسخة ملونة وجميلة. أتساءل وفي التساؤل مُقاساة.

لم تأتِ جدتي للزيارة، بل أنا من ذهبت إليها. جئتها ومعي المصحف، وحقائبي. ربضت في بيت جدي بضعة أشهر، ربضت غريبة وشبه يتيمة!

(٢)

غُبار عالِق

شهور اليُتم

بهجتي بوعود الهدايا الوفيرة ينغصها ذاك الشعور المزعج. هل تعرفونه؟ ذاك الشعور الذي يتفرعن في الحشا حين تظهر الأمور على غير طبيعتها. حين تعتمر المصائب قبعة كبيرة من الريش الفاخر لتخبئ تحتها رأسا أصلعَ أو شعرا أشعثَ. قد يغزو هذا الشعور البطن، أو الحلق، أو الفؤاد. حينها نحس بشيء مزعج يتحرك ونحاول تكذيبه. هذه حاستنا السادسة تحاول أن ترفع لنا العلم الأصفر أو الأحمر فلنصدقها، فإن القولَ ما تقولُ. قمعتُها -للأسف- مقابل وعود بلُعاعات بلاستيكية تسمّى باربي. صراع البشارة والخسارة يحتدم.

سيسافر والداي إلى ألمانيا «لبعض الوقت». تملصا حينما سألتهما عن المدة، لكن سمعت أمي تقول لجارتنا وسن أنها مسألة شهور!

- بابا، لماذا تذهبان الآن، فلنذهب جميعنا إلى ألمانيا في الصيف.

- آآآآ ... هذه «رحلة عمل» ويجب أن نذهب الآن.

- أريد أن تبقى ماما معي!

- لا يمكن. يجب أن تأتي ماما معي.

- لماذا؟

- آآآآ ... كي تطبخ لي. إذا أكلت من المطعم، فقد يكون في الأكل لحم خنزير أو خمر. حرام!

قالها أبي وهو يلمس أنفه.

- لماذا لا تذهب ريشمي معك لتطبخ لك؟
- لا يجوز أن نسافر معا وحدنا، أنا لست محرما لها.
- ماذا يعني «محرما لها»؟
- يعني إذا سافرت معها وحدنا، قد يظنها الناس زوجتي!
صحيح، طبعا! هو يريد الزواج بالدكتورة استقلال، لا يجوز أن يظن الناس أنه تزوج بريشمي، لا يجوز. يقطع أبي أفكاري بوعد منغّم بالبهجة:
- سأشتري لك باربيات لا توجد إلا في ألمانيا!
أصمت للحظة، ثم أقول بنبرة تسلطية آمرة:
- وأريد بيت باربي! مثل الذي لدى سرمد، فيه مطبخ ومسبح.
- حاضر، سأشتري لك واحدا. وسأشتري لك سيارة باربي. هل لدى سرمد سيارة باربي؟

عليكِ من الله ما تستحقين يا باربي، كم من الأخاديع بلعت بسببك. تنافسنا فيك، وتناوشنا، وتشاكسنا، كلنا إماء النهج الباربوي.

بدأت لاحقا أشك أن يكون للرحلة هذه علاقة بالدكتورة استقلال، فلربما علمت أمي بالأمر وأرادت أن تبعد أبي عنها لبعض الوقت لينساها. أو ربما تريد قتله هناك في ألمانيا عقابا له على التفكير في الزواج بأخرى (شاهدت تمثيلية أو مسلسلا هذا مفاده)، وقد اختارت ألمانيا لأنها قريبة من «لندن» وستستعين بمعن ومنهل ليساعداها إذا لم تسر الأمور كما ينبغي.

صرت أفترش الصحيفة كل يوم وأتجرع أحرفها الصعبة، خوفا من أن تقتل

أمي أبي وينشر الخبر. وكنت أيضا حريصة أن أسأل دنى بين الفينة والأخرى عن أخبار أمها وإذا ما كانت في الكويت أم لا، خوفا من أن تفطن أمها لخطة أمي وتسافر وتقتل أمي في ضربة استباقية! (شاهدت تمثيلية أيضا مفادها أن امرأة قتلت زوجة حبيبها عندما علمت أنها كانت تخطط لقتل الزوج).

أودعاني وريشمي مع بابا جاسم وماما نورة[٥٢] في بيت العائلة القديم. كان عمي غازي يقيم معهم في البيت أيضا، لكنه كان مسافرا في بعثة دراسيّة خلال الشهور التي أقمت فيها معهم. أما عمي عبد اللطيف، فيسكن في بيت مستقل مع زوجتيه وقطيعه الصغير. وتسكن في البيت أيضا عمتي سلوى، ومشاري وموضي طفلا عمتي سعاد التي توفاها الله، فتكفّلت برعايتهما عمتي سلوى نظرا لكثرة أسفار والدهما رجل الأعمال المشهور المشغول.

مشاري يكبرنني بسنتين، وموضي تصغرني بسنتين. أن يُقال لي -وأنا الطفلة الوحيدة- أني سأمضي شهورا مع طفلين من عمري ألعب معهما، فإن هذا لعَمْري نعيم عظيم!

* * * *

أمي: أين ستنام لولو؟

ماما نورة: في غرفة موضي.

عمتي سلوى: لا، ستشغلان بعضهما البعض عن الدراسة. ستنام خيال في غرفتي. ثِقا بأنها ستلقى الرعاية الملائمة.

٥٢: في الكويت ننادي الأم «يمّه» أما الجدة فتُنادى «يمّه فلانة» أو «ماما فلانة»، وكذلك الحال مع الأب الذي ينادى بـ«يبه»، بينما يُنادى الجد «يبه فلان» أو «بابا فلان».

يزعجني تخييبهما لآمالي، فأركض لأدفن رأسي في حضن جدي قائلة له:
- يبه جاسم، اشتر لي دبدوبا. أريده كبيرا، أكبر من الذي عند يمنى.

الدب المفترس صار كائنا أليفا يصنعون الدمى على شاكلته، بل ويسمونه «دبدوبا». والأسد الكسول الذي ينام قرابة العشرين ساعة في اليوم، يقولون أنه ملك الغابة!
فليحشوا الدمى بالقطن، لا أدمغة أطفالنا!

من مذكرات بابا جاسم، ١٣ نوفمبر، ١٩٨٨

* * * *

لم تكن عمتي سلوى «طيبة» مثل أبلة ضحى! لكن أؤكد لكم أنها لطالما كانت لطيفة. ترى، ما الذي حدث لها؟ حين صارت في موقع المسؤولية كشّرت عن وجه آخر لم أعهده فيها. في بيتنا كان نظام الحكم ديموقراطيا، وعند عمتي سلوى نظام الحكم بيروقراطيا مع شيء من الفانتازيا! أسلوبها التربوي يعتمد على مبدأين عتيدين مجيدين: مبدأ الشَرْطية، ومبدأ التخويف التراثي!
من مقولات مبدأ الشرطية الذي تعتنقه عمتي: «إذا أكملت صحنك كله تحصلين على لوح شوكولاتة»، و«إذا أنهيت واجباتك، تحصلين على لوح ويفر». ما أكثر الألواح السكريّة التي كانت تصرفها على مشاريع التربية والتهذيب، ومبادرات التقويم والإصلاح! أما التخويف التراثي، فعالم شنيع،

تعرفت عليه منذ أول ليلة قضيتها في بيت جدي.

سافر محمد وحصة إلى ألمانيا اليوم، وسلوى سترعى لولو. لطفك اللهم!

من مذكرات بابا جاسم، ١٣ نوفمبر، ١٩٨٨

إعادة تدوير التراث

ألم أخبركم عن مقدرة البشر العجيبة على إعادة التدوير؟ يبدو أن عمتي سلوى أيضا من حماة البيئة ومن دعاة التدوير، وقد اختارت أن تعيد تدوير قصص التراث لتضمن كمال الانصياع وحُسن الإنصات!

بعد العشاء، صرفت عمتي مشاري وموضي. ثم اقتادتني لتلقنني قواعد الحياة تحت جناحها! أمطرتني بسلسلة من اللاءات، ثم أخذت «تُخَزْبِل»، و«تخزبل»[٥٣]. من بنود سياسة الردع بالترويع التي صاغتها عمتي: إذا خرجت وقت الظهيرة للعب خارجا فثمة مختطف للأطفال اسمه «أبو خيشة»، يحمل «خيشة» كبيرة على ظهره يكدس فيه الأطفال ويذهب بهم إلى «حمارة القايلة» (التي تخفّت وما عادت تظهر علنا، بل صارت ترسل وكيلها المعتمد أبا خيشة ليجمع لها الأطفال!) فتقوم الحمارة بشوي الأطفال وأكلهم وفقا لرواية عمتي الحداثية، التي أضافت أن شاورما المطاعم مصنوعة من هذا اللحم، وبطاطس المطاعم مقلي بدهن الصغار، ولذا عليّ ألا أطلب منها أن تشتري لي أي شيء من أي مطعم! أما الخروج في الليل فعاقبته الوقوع بين يدي «الطنطل» وهو وحش فارع الطول أيضا يترصد بالأطفال، ولا أدري كيف يضيع وقته في اصطياد الصغار ولا يذهب ليعمل حارسا لمرمى في فريق كرة قدم مثلا. وهناك الواوي والسعلو وغيرهم كثير، وكل هذه الشخصيات

٥٣: تخزبل: تخترع الخزعبلات.

تظهر بمظهر بشر مبتسمين بشوشين كثيرا ما يقدّمون الحلوى والدمى، لكنهم يتحولون إلى أشكالهم الحقيقية متى ما اختطفوا الطفل.

قشّرت عينيّ وكشّرتهما، وهززت رأسي معلنة فهمي/خضوعي لبنود الدورة التعريفية. ثم خلدت إلى النوم في سرير معدني صغير وضعوه لي في الغرفة. كان لون غطاء السرير بنيا، اللون الذي أكره، لون الفريق «الأدعم» إيّاه. لم يكن هناك وقت لاستخراج غطاء باربي الزهري من أمتعتي، فالنوم مبكرا من أهم قواعد الحياة تحت رعاية عمتي سلوى، عمتي الخالدة! والتاريخ يزخر بأمثلة لنسوّة خُلّدن في التاريخ بسبب قسوتهن: ماري أنطوانيت صاحبة البسكويت، زوجة أب «سنووايت» أكّالة القلوب، ريا وسكينة صويحبتا القبو الحافل بالجثث، الآنسة «منشن» في مسلسل «سالي»، ومؤخرا عمتي سلوى!

أين سريري الكبير الوثير الذي كنت أخبز فيه أحلامي أنّى أشاء؟ تقنفذت تحت لحافي، أغني لنفسي تهويدة أمي المعهودة: «دللوه، دللوه، نامي نومةٍ هنيةْ، نومة الغزلان في البريةْ، ولا خلا منك حضيني». أين فراشة «تسي تسي» الأسطورية التي كانت أمي تناديها وتطلب منها مساعدتي على النوم؟ لم يكن هناك إلا مروحة السقف القديمة تئز فوق رأسي.

استيقظت ليلتها في جوف الليل أشكو من «سوبر فولكن»[٥٤] يخرج من بين ثنايا الستارة ويطير في الهواء ويمد يديه باتجاهي وينظر إلى بعينين برتقاليتين (كشريطة سرمد) محاولا اختطافي إلى الجانب المظلم من القمر حيث بنى «فيگا» قاعدته. واستمر السيد الأوكسفوردي «سوبر فولكن» في

٥٤: سوبر فولكن: رجل-صقر يمكنه الطيران، كان شخصية رئيسة في مناهج اللغة الإنكليزية للصف الأول المتوسط.

زيارتي كل ليلة، لينغص على عمتي نومها. أمضت عدة أسابيع تقنعني بأن كل هذه خرافات، وأن لا داعي للخوف من شيء. وبعد أن أصيبت عمتي بفقر حاد في النوم، توقفت عن تخويفي بأي كائن تراثي أو غير تراثي. وصهر «سوبر فولكن» ستار عمتي الحديدي. حتى الصغار لديهم أساليبهم التربوية والتأديبية الخاصة!

بعد فترة، أخذ حلم آخر يتكرر. لم يكن حلما مخيفا، لذا لم أفاتح أحدا بشأنه. كنت أرى بابين عظيمين، ثم يُغلق أحدهما إلى الأبد. وكنت أرى سني العليا الأمامية تتقلقل، والدكتورة استقلال تحاول إرجاعها مكانها وتفشل! أشعر بتلك القطيطات المتقافزة في معدتي. إنها حاستي السادسة تعلن عن نفسها، وكعادتي الميمونة تجاهلتها!

ذهب وثلج

يحدّب مشاري ظهره، ويعرج، ثم يصرخ فينا:
-أنا كامل الأوصاف، اللي يخوف ولا يخاف!
وكنت أنا زوجته زليخا الشريرة، التي غيرتُ اسمها إلى «استقلال»! وموضي كانت هند أو الفارس الملثم، كانت تصر على أداء هذا الدور المركّب. هكذا كنا نفعل عندما نقرر أن نلعب «كامل الأوصاف». وطبعا كانت لدينا لعبة على كل مسلسل شاهدناه: «علاء الدين» و«بدر الزمان» و«علي بابا» و«مذكرات جحا»، وكلها كانت تصوّر في بيئة عربية قديمة تدور رحى أحداثها غالبا في سوق المدينة الذي يميد بالحياة، وتميد به.

كان فناء بيت جدي مخبز خيالنا ومختبره. فيه بنيتُ مع مشاري وموضي «مدينة الذهب». كان فيها سوق يتوسطه محل كبير لشاهبندر التجار، ومقر للقاضي، وقائد العسس، والوالي طبعا. كان لدي كيس فيه عملات معدنية قديمة جمعتها من والديّ وأقاربي كثيري السفر وأحضرتها معي كي نلعب بها ونتداول ونجري الصفقات في سوق المدينة، نستقبل القوافل ونتفاوض مع تجارها. الخيال هو الأصل والواقع طارئ عليه في عالمنا.
وحين تعترينا نزعة المغامرة، نلعب «فلونة». فنصنع الشمع، ونستخرج السكر من القصب، والترياق من لحاء الشجر. نشق أجواز الجغرافيا، فنلعب «حكايات عالمية». ونتماهى مع الحداثة، فنلعب «بومبو» أو «سهم الفضاء».

يا لغرابة هذا السحر الآتي من تلك الشاشة الضيقة. التلفاز مصنع للمعرفة، وحصّانة للتثقيف إذا أحسن استغلاله. التلفاز، دققوا في اسمه؛ تلفاز، «تلف» و«فاز». انتقوا لأبنائكم ما يشاهدون، فإن هما إلا خياران اثنان لا ثالث لهم، إما «التلف» وإما «الفوز».

من مذكرات بابا جاسم، ١٥ فبراير، ١٩٨٦

* * * * *

«ونتفة الثلج اللي كنا نشتريها بألف تعب،
كنها لولو أو ذهب،
أصبحت في كل مكان.»
الشاعر عبد الرحمن رفيع

ذات يوم، شاهدنا حلقة من حلقات «لولو الصغيرة»، تلهو فيها لولو ورفاقها بكرات الثلج. فقررنا أن نُدَف الثلج يجب أن تتساقط في مدينة الذهب. «سنجمد الماء في المِثْلَجَة الموجودة في الممر. هي فارغة ولا أحد يستعملها.» اقترح مشاري.
جمّدنا كميات من الثلج في كل وعاء وقع بين أيدينا، وأخبرت موضي «ريشمي» بأن لدينا حفلة في الفناء (ولم تكذب فبالنسبة للأطفال كل لعبة جديدة هي حفلة!)، وأقنعتها بأن عليها أن تعيرنا كل جهودها لتجميد أكبر قدر من الثلج. وظنت ريشمي المسكينة أن حقا ثمة حفلة ستُقام، وتفانت في مهمة تصنيع الثلج معنا خاصة حينما طلبنا منها أن تخبرنا عن أبنائها، وأن

تقص علينا القصص عن بلادها. أخذت تثرثر حتى تمنينا لو أننا لم نطلب مساعدتها.

ماذا كان النِّفَّرِيّ يعني حين قال «**كلما اتسعت الرؤية، ضاقت العبارة**»؟ هل كلما اتسعت الرؤية، عجزت الكلمات عن التعبير عنها؟ أم كلما اتسعت رؤيتنا، كنا أقدر على التعبير عما يجول بخاطرنا بأضيق قدر من الكلمات؟ أرى أنها الثانية، فالإيجاز إنجاز لا يقدر عليه إلا واسعو الأفق.

تهذر ريشمي مع زوجتي ومع سلوى. زاد عدد الهذّارات في البيت مؤخرا. كنت أظنها خصلة نسائية بحتة إلى أن لاحظت أن سائق فيصل يهذر أضاعف النسوة الثلاث إذا مُنح الفرصة. هي خصلة ثقافية وبيئية ولا شك. كلما حلّق عقل الإنسان، بَصُر بما لم يَبْصُر به غيره، وتعاظمت قدرته على اختيار أبلغ وأوجز عبارة تلخص الأفق العليّ الذي أحاط به علما.

عجيب أن نتعوذ بالله ألف مرة من المرأة الذكية أو الراجحة العقل أو المستقلة ونقول أنها متمردة و«تتفلسف» وتمرق عن «دورها الطبيعي». في سرنا، نتعجب منها، ونُعجب بها ونهيم. لكننا نخشاها ونحاربها بملء قدرتنا في العلن. لماذا نفعل ذلك؟! والله لا شيء أسعد للرجل من امرأة اتسعت رؤيتها فعرفت كيف تمسك بزمام الكَلِم.

أقول ذلك، وأنا المحشور بين كومة من النساء الجاهلات. لا أتوق لشيء سوى أن تكون لولو كما أريد وأحلم. ستكون بُنيتي ذكيّة وقويّة وحرّة. كلا، لن أدفعها إلى الطريق، سأشير لها عليه فقط.

من مذكرات بابا جاسم، ٢٧ ديسمبر، ١٩٨٨

في اليوم التالي، ادعينا أننا وجدنا البديل الحداثيّ لمصباح علاء الدين، «ريموت» علاء الدين! أخذنا جهاز التحكم عن بعد الخاص بالتلفاز وادعينا أنه يحقق الأمانيّ (أكثر من ثلاث أمانيّ بطبيعة الحال).تسللنا إلى المِثْلَجَة وأخرجنا الغنائم الجليدية وفرشنا بها أرض «مدينة الذهب»، وادعينا أن المارد حقق أمنيتنا.

أخذنا نغني:
«كانت مدينتنا ذهب، والناس للناس.»[٥٥]
...
صارت مدينتنا ثلج!

علت نبراتنا من فرط الابتهاج، فجاءت جدتي تستقصي الأمر. عوقبنا بحرماننا من اللعب في الفناء لمدة أسبوع، لكن من قال أنه كان يمكننا أن نلعب حتى لو لم يعاقبونا؟ مرض مشاري وموضي بنزلة شُعَبيَّة حادة بسبب الماء البارد الذي عمر ملابسنا، وصمدت أنا. أمضيت عشرة أيام معافاة، أتجرّع المشروبات الغازية لوحدي! فقد كنا تعاهدنا على شرب أكبر قدر من قناني المشروبات الغازية كل يوم طمعا بالفوز بسيارة ألمانية كان سيجرى سحب عليها لمن يجمع أحرفا معينة من أغطية القناني. كانت فكرة مشاري، وتعرفون هوس الفتيان بالسيارات. لقد أقنعنا بأنه إذا فزنا سنبيع السيارة ونتقاسم ثمنها وتشتري كل منا ما تريد من لعب وقرطاسيات بنصيبها. أما هو، فسيشتري دراجة نارية.

٥٥: مقطع من أغنية مسلسل «الغرباء» الشهير أيضا باسم «كامل الأوصاف».

حبنا -معشر الرجال- للسيارات هو حب لِمقْوَد السيارة، لا حب لها بذاتها.
أسوأ شيء يحدث لنا، هو أن يخترعوا سيارات تمشي ذاتيا. سيارات لا نفرض عليها زعامتنا وقيادتنا وتوجيهاتنا الرشيدة!
اليوم نحب السيارات، وقبل ذلك كنا نحب الخيول والجمال. أمس كان خطاما، واليوم هو مِقْوَد.
حينما انشغل سيدنا سليمان -عليه السلام- بالجياد (سيّارات زمانه) حتى جاء وقت المغرب دون أن يذكر ربه العصرَ، كفّر عن ذنبه بذبح جياده والتصدق بلحمها، {... فطفق مسحا بالسوق والأعناق}. من منّا يجرؤ على التبرع بسيارته إذا شغله الاعتناء بها أو متعة التجول بها عن الصلاة؟!

من مذكرات بابا جاسم، ١٥ إبريل، ١٩٩٢

ما أن شُفيا، حتى مرضت أنا وصرت أقبقب بسبب الحمّى. قد يكون تضامنا متأخرا مع ابنيّ عمتي، وقد يكون لكثرة ما شربت من المشروبات الغازية الباردة المترعة بمكعبات الثلج.
بعدما كانت تهددني، صارت تهدئني وتهدهدني. وجه جديد لعمتي سلوى ظهر لي بجلاء في أيام مرضي. ما أكثر وجوه هذه المرأة، وما أعجبها!

بيض وبوظة

فيض القلق والتحنان الذي خصفت به عليّ في مرضي أسقط قناع التجبر، وكشف عن روحها الرقيقة، روح شفافة لكن مثقلة بالمسؤولية وحريصة على الإخلاص والإتقان؛ فهي ترعى ثلاثة صغار ليسوا بأبنائها، هي تصطنع الأمومة معهم، وتعلم أنها مهما حاولت لن تكون أمهم، لذا نراها أفرطت في العناية والحماية والرعاية، وكل هذا عن حسن نيّة وطيب مقصد. فماذا لو حدث مكروه لأي منّا؟ أما كان الناس سيقولون «لو كانوا أبناءها حقا لما أهملتهم وحدث لهم ما حدث». اليوم فقط صرت أفهم سر قسوتك الموسمية عليّ يا عمتي، فاعذريني. وأعتذر إلى نفسي أيضا إذ ظلمتها يوم ظننت أن عمتي تقسو علي لأنني لم أكن «شاطرة» بما فيه الكفاية. هل علي أن أعتذر أيضا إلى لشطارة التي علقت عليها كثيرا من مخاوفي وهمومي؟ أظن أن على العرب أن يعتذروا إلى الشطارة عن كل الجرائم التي ترتكب باسمها. أخشى أن تلجأ للقضاء لتقتص منّا!

أرتجف مزكومة، محمومة، مزحومة. وتضع عمتي كمّادات الثلج على جبهتي المشتعلة بالحمى. أيعقل أن يكون الثلج سببا في مرضي، ووسيلة في تخفيفه أيضا؟ سبحان الذي يُشْقِي ويشفي بالشيء ذاته!

يسألني مشاري اليوم:

خلق الله إبليس من النار، فهل سيتألم إذا ذهب إلى النار يوم القيامة؟

من مذكرات بابا جاسم، ١٢ أغسطس، ١٩٨٥

تسجّرت الحمى أكثر وأكثر، فركضت بي عمتي إلى المستشفى في جوف الليل الأدهم. وكنت على موعد مع العميس، الشطون، الضروس: الـ«إنجكشن». ليست واحدة، بل مجموعة كبيرة منها ولعشرة أيام.

تسأل عمتي عاملة الاستقبال في المستشفى الخاص:

- من أطباء الأطفال المناوبون الآن؟

- الدكتور تيسير، والدكتورة سوزان.

- هل فيهما استشاري؟

- نعم، الدكتور تيسير استشاري. أما الدكتورة سوزان فاختصاصية.

- احجزي لها عند الدكتور تيسير من فضلك.

- سبعة دنانير من فضلك.

لِمَ لَمْ تأخذني إلى مستشفى حكومي؟ هل كانت تريد التفاخر بأنها أخذتني إلى مستشفى خاص؟ أتوقع أي شيء من حزب الكبار، لا أحد يعرف ماذا يضمرون. يا لعمتي البخيلة! كلفت نفسها أخذي إلى مستشفى خاص ثم اختارت الطبيب الأقل أجرا؛ الاستشاري! كنت أظن أن الاستشاري أقل مرتبة طبيا من الاختصاصي، لأن الطبيب الاستشاري يعطي مجرد رأي استشاري غير ملزم! أمّا الاختصاصي فهو متخصص في الأمر وضليع فيه! الدكتور «تعسير» المؤذي! ألا يعلم أني أهاب الحقن؟ أم تراه علم بغياب أبويّ فاستقوى عليّ؟ أم أني لم أكن شاطرة، فاستحققت ما حل بي؟ نظر إليّ من خلف نظارته ذات الإطار البني (الأدعم يلاحقني مجددا!) وأشهر سيفين أفقيين بين حاجبيه، ثم أحذ يحذّر ويزمجر:

- ما تاكلي بوظة!

كدت أغفر له الحقن التي أمر بغرسها في جسدي المقرور، كدت أقفز وأقبله شكرا وعرفانا على صنيعه، لكن غلبني الخجل. شكرا لك، أتمنى لك من كل قلبي أن تحصل على ترقية وتصبح طبيبا اختصاصيا مشهورا. بقوله هذا خلصني من أبغض الأطعمة على قلبي: البيض! كنت لا أحب البيض، بل أخاف منه لأن عيون المدمّرين في مسلسل «جونگر» تشبه الـ«بيض عيون»! حين عدنا إلى البيت، هُرعت إلى جدتي لأخبرها بأوامر الطبيب، وأملي عليها التعديل المجيد على قائمة الطعام:

- يمّه نورة، الطبيب قال لي أنه يجب ألا آكل البيض.

فصاحت عمتي:

- خيالوه! الطبيب قال بوظة، ولم يقل بيضا.

نظرت إليها منافحة عن المنحة التي حصلت عليها:

- لكن أليست البوظة تعني البيض بلهجته؟

تجاهلتني جدتي وعمتي، وأسمع ضحكة مشاري المعبأة بحرف الخاء (يقلد أنيسا في «افتح يا سمسم» عندما يضحك)، الذي قال لي بشماتة:

- بوظة يعني «برّد»، يعني «دندرمة»، يعني «آيس كريم»!

ثم فتح مشاري فمه وأخذ يحاول إخافتي بسنّه المتقلقلة، ويوهمني بأنه سيخلعها بيده. لم أعره أي اهتمام، كنت مكلومة على أمنيّتي القتيلة. هذا هو التفكير التمنيَويّ في أبدع تجلياته. كنت أحلم أن يأتي فَرَمَان من عَلٍ يُعتقني من تناول البيضة الصباحية التي تجبرني عمتي على تناولها، وظننت أن الطبيب كان فعلا الملَهم المخلِّص الذي سيحل العقدة، لكن وا خيبتاه!

ذهبنا اليوم إلى سينما الأندلس لمشاهدة فِلْم «بس يا بحر». أخذت زوجتي تبكي حين عُرض مشهد النساء المتجمعات على الشاطئ. وحينما عدنا إلى البيت، لامتني على جمودي وقالت أني قاسي القلب!
لست كذلك، لكن ما كنَّ يفعلنه غير منطقي أبدا! فحين كان الرجال يتأخرون في العودة من موسم الغوص على اللؤلؤ (القفَّال)، كانت النساء يمارسن طقوسا تمنيَويّة أقرب إلى الفانتازيا العلمية لتسريع الزمن وإعادة الغائب. كن يكوين البحر بشعلة من نار، ثم يرمين بمادة مُسهلة في البحر كي يتأدب ويرجع الأحباب، ويغطّسن هرّة بريئة في ماء البحر، وبمجرد أن يسحبنها وتشهق «نااااااو» يتفاءلن ويدّعين أن الهرّة قالت «يَاو» أي «جاؤوا»!

من مذكرات بابا جاسم، ٢٧ مارس، ١٩٧١

أهكذا تفعل بي أيها الاستشاري الهَرِم؟ تشكُني بدزينة من الحقن وفوق ذلك تمنعني من أحب الأطعمة إلى قلبي؟ سأنتقم منك! سأصبح طبيبة عندما أكبر. سأكون الدكتورة لولو، وسأغرس جميع أنواع الحقن في جسدك، سأكتب لك حقنة من المضاد الحيوي كل يوم، أنت والدكتورة استقلال! عليكم من الله الإنجكشن أيها الأطباء.
لا، مهلا. لكني أريد أن أصبح باربية عندما أكبر. فكرة! سأخبر الكبار علانية بأني أريد أن أصبح طبيبة، وأحتفظ برغبتي الباربوية لنفسي. هكذا أموّه عليهم، فلا يعرفون أحلامي الحقيقية، ولا يلوون ذراعي بها.

{... هذه الشجرة ...}

يا له من نهار مُسَنْفَر! انسللت من الباب الموارب دون أن أحركه، كقطة تتعامل مع المسالك الضيقة باحتراف ودون أدنى جهد. اخترت وقتا خرج فيه مشاري وموضي، فما كنت أسمح لهما بالاستيلاء على أمنيتين من أمنياتي الموعودة.

وجدتها! كنت أعلم أنه في هذه الغرفة المليئة بالنفايات ثمة كنز ما؛ مخطوط سحري، أو بساط ريح، أو ربما خريطة كنز، أو شجرة عجيبة أكشط لحاءها فتُحل كل مشاكلي. لا بد من وجود شيء عجيب في هذه الغرفة، وإلا لم عسى جدتي أن تمنعنا من دخولها؟

لمحت صندوقا كبيرا مقفلا بعناية بعكس بقية الصناديق المتروكة هملا. أسرعت إلى فتحه، وحين واجهني كيس بلاستيكي معتم عرفت أن المحتوى ثمين. قلبت الصندوق على جانبه وأخرجت الكيس الذي تلكز جنباته أشياء مستطيلة. تخليت عن حذري، ومزقت الكيس بعنف. الحذر لا يليق بالصغار، الحذر تشبّه مصطنع بالكبار. وا خيبتاه! لم أجد سوى مجموعة هائلة من المذكرات السنوية التي كان جدي يدون يومياته فيها.

أخذت أجيل عيني في الغرفة، فرأيت إطارا صدئا. يجب أن يكون هذا ما أبحث عنه، فمصباح علاء الدين أيضا كان متهالكا. لم أتمكن من تحريك الإطار، فقد كان كبيرا جدا وثقيلا. طفقت أزيح الأغراض الصغيرة المكدسة حوله، كما لو كانت وُضعت لتحرسه. وجاءت لحظة المسح على الإطار. هل سيظهر لي مارد مهيب يلبي لي ثلاث رغبات؟ أم «جني متحني» كما تقول

عمتي سلوى حين تنهرني؟ أم سأرجع بشعر أغبر وحسب؟ هل عليّ أن أردد: «سِحِرْ، بِحِرْ، بو داوود»[٥٦] حتى يعمل الإطار السحري؟ لا، لا! مدرسة الدين تقول أن السحر حرام، لن أفعل ذلك.

مسحت بيدي على زجاج الإطار، فقرأت عبارة «إسماعيل عليه السلام».

تسللت خلسة إلى المطبخ، وأحضرت خرقة تنظيف لأكمل المهمة. وكلما مسحت، كلما ظهرت المزيد من الأسماء والمزيد من الأسهم المزركشة.

عاهدت نفسي ألا أقرأ الموجود إلا بعد تنظيف الإطار كله، فقد أقرأ الطلسم بشكل خاطئ ويحدث ما لا تحمد عقباه! صعدت على صندوق قديم لأتمكن من مسح أعلى الإطار الطويل، فظهر لي في طرفه القصيّ الأعلى: «آدم عليه السلام».

وبعد التنظيف المضني، كيف سأستدعي مارد الإطار؟ هل أقرأ الأسماء من آدم -عليه السلام- إلى الأسفل، وأي أسهم أتبع في القراءة. أجلتُ عيني في الشجرة لعلي أجد كلمة سرّية أستدعي بها المارد. وفجأة أجد اسم عائلتنا: «الفكّار»! تتبعت السهم حتى آخر الشجرة وإذا بها تتوقف عند أربعة أسماء: خالد، وحسين، وأحمد، وجاسم، وهذه أسماء جدي وأشقائه.

كانت تلك شجرة عائلة، لكن من النوع المتشعب الذي يصل إلى نبي الله آدم! وكانت تلك المرة الأولى التي أرى أو أسمع فيها عن شيء من هذا القبيل. وقع الأمر في نفسي وانتشيت، ونسيت مسألة الأمنيات الثلاث. وما حاجتي بها فأنا إنسانة قدري سعيد وجدي الأكبر هو آدم -عليه السلام- بكل

٥٦: سحر، بحر، بو داوود: عبارة يرددها الأطفال عند اللعب متأملين أن يفوزا في اللعب بطريقة سحرية. وقولهم «بو داوود» إشارة إلى نبي الله سليمان -عليه السلام- رغم أن لا علاقة له بالسحر! {... وما كفر سليمانُ ولكنَّ الشياطينَ كفروا ...}.

فخر.
أخذت أتأمل الشجرة الساحرة، فاكتشفت أننا ننتمي إلى قبيلة مشهورة. كان هذا أمرا غريبا جدا على دماغي الصغير الذي لم يخبر الحياة الاجتماعية بعد. نحن حضر، فكيف نكون منتمين إلى قبيلة؟ لم يشغل الأمر بالي كثيرا، فكل ما أهمني هو إيجاد طريقة كي آخذ الإطار معي إلى المدرسة لتراه دنى، وبقية الزميلات، وأيضا معلّمة التربية الإسلامية التي كانت طبعا ستقدِّر أني من نسل الأنبياء وتعفيني من الواجبات والاختبارات. {... تلك أمانيّهم ...}!
نفضت الغبار العالق بي ما استطعت، وهرعت إلى جدي أستعطفه كي يلبي مطلبي بأخذ الإطار إلى المدرسة. فاستشاط غضبا، لا لأني تسللت إلى غرفة المخزن وعثت فيها فسادا، بل لأني سمحت لنفسي أن أقرب تلك الشجرة وأفرح بها. أسمعني محاضرة طويلة تحت عنوان {... إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ...} حتى كدت أحسب الشجرة التي وجدت شجرة الزقوم. أخذ يخبرني أنه له أخوات لم توضع أسماؤهن في شجرة العائلة فقط لأنهن إناث. وأخذ يقول أشياء كثيرة، أشياء كبيرة. لا أتذكر معظم كلامه، فقد اخترقت تلك الشجرة لوقت طويل نياط قلبي، ولم تفد محاولات جدي التنويرية-التثويرية في شفائي من ثمارها الساحرة.
أركض إلى المطبخ وأسأل جدتي:
- يمّه نورة، لماذا لا يريد جدي تعليق شجرة العائلة في غرفة الاستقبال؟
- جدك «غير نمونة»[٥٧].
لم أكن أعرف معنى كلمة «نُمُونَة»، وظننت أنها «نمونا»! لماذا جدي نموه «غير

٥٧: غير نمونة: النمونة هي النموذج. وقولنا فلان غير نمونة، أي أنه مختلف عن بقية الناس ويسبح عكس التيار.

نمونا»؟ ما الشيء جعله ينمو بشكل مختلف عن البقية؟ ثم سألت جدتي، إذ قد يكون طبخها هو السبب في إبطاء نموه أو تسريعه:

- لماذا؟

- سلوى تقول أن السبب هي الكتب التي يقرؤها، لقد خرّبت مخّه.

* * * * *

ركضت في اليوم التالي أقص على دنى رؤيتي. تحمست وابتهجت، فقد نكون ذراري الشجرة نفسها. وعدتني بأن تنقب في بيتهم اليوم، وتسأل أهلها، وتخبرني بالنتائج هاتفيا.

انتظرت اتصالها طويلا، وحين تأخرت تخوّفت من أن تكون دنى مثل «دايسكي» قادمة من كوكب «فليد»، أو مثل «كنتارو» نصفها بشري ونصفها من كوكب فضائي. لا يعقل أن يكون لها هذا الشعر المثالي؛ شعر مفرط بل متطرف في ملاسته، شعر مطواع وقابل للتصفيف على شكل ضفيرة فرنسية كل يوم، قد تكون فعلا تحمل عرقا فضائيا! وكي أقطع الشك باليقين اتصلت بها فقالت لي أمها أنها نائمة، رغم أن الشمس كانت قد غربت للتو. شمس أمل دنى غربت عصر ذلك اليوم، يوم اكتشفت أنها لا تملك شجرة عائلة تثبت نسبها «الآدمي». وبدأت منذئذ ألاحظ في عيني دنى شعورا بأنها أدنى مني، رغم أني -في قرارة نفسي-أشعر بأني أدنى منها؛ فأنا لم أحظَ بضفيرة فرنسية في حياتي، وليس لدي مثلها أخت تلعب معي كل يوم، ورقم هاتفهم يبدأ بـ ٥٣٣ ورقم هاتفنا يبدأ بـ ٥٣١، وإحصائيا عدد باربياتها أكبر من عدد باربياتي، وأمها هي الدكتورة استقلال التي يمكنها توجيه حقنة

مؤلمة لكل من يعاديها، فكيف بعد كل هذا أكون أفضل منها؟

خيال هذه تنبش مثل الهرّة البرية في أي شيء تراه. لم أتوقع أن تتوصل إلى الإطار الذي كان يتربع في صدر المجلس قبل وفاة والدي. ظننته صار نسيا منسيا في غرفة المخزن. ربما كان الأجدر بي التخلص منه نهائيا.

حالة التمسك بأشجار العائلة مفهومة حينما تكون عند شعوب مهددة بالانقراض مثل الهنود الحمر، لكن لم هذا التمسك بها في مجتمعاتنا؟ نحن نفني أنفسنا في الشجار على أشجار العائلات، في حين يفني بعض الناس أوقاتهم من أجل زراعة الأشجار وتخضير الأرض.

ثم لماذا نحتاج إلى أشجار عائلة لنثبت نسبنا إلى أبي الأنبياء؟ هل وزارة الصحة -لا قدّر الله- تمنح شهادات ميلاد لغير «الأوادم» مثلا، وعلينا إثبات أننا منهم عبر أشجار مؤطَّرة؟

من مذكرات بابا جاسم، ورقة مطوية غير مؤرخة، موضوعة بين المذكرات.

حليق الرأس والرمش

كان صباح جمعة شفيف. استيقظت مبكرا على غير عادتي في أيام العطل. كان أحد أسناني يؤلمني، لكني كنت أكابر ولم أخبر عمتي بالأمر. أخذت أغني في سرّي:
«أسنانك تلمع كاللُّولُو، ويفوح شذاها كالأزهار
علمنا كيف تنظفها لننظفها ليلا ونهار».

أظن أن سياسة «الرُشى الحلوياتيّة» التي اتبعتها عمتي تسببت في هذا التسوس الشنيع. لكن لم يكن ألم سني هو ما أيقظني باكرا. بل كانت تلك الحاسة السادسة تتمطّى؛ القطيطات أخذن يتقافزن في حلقي.
ذهبت إلى غرفة بابا جاسم الذي يستيقظ مع ساعات الفجر الأولى ليصلي في المسجد. ثم يعود إلى البيت يقرأ القرآن الكريم، ويدلف إلى أكوام كتبه التي تسميها عمتي سلوى «قراطيس إبليس»! عمتي شبه الأميّة التي تركت الدراسة وهي شبه طفلة لأنها كانت تكره المدرسة، وتزوّجت زواجا جائرا انطفأ وأطفأها. فخسرت عنب اليمن وبلح الشام وسلال الفواكه كلها.

سلواي العنودة. آخر حبة في العنقود، الحبة التي قصمت ظهر آمالي

العظام. كنت أطمح أن أرى الدال أو الميم قبل اسمها. كنت أطمع أن يشار إليها/إليّ بالبنان. فتخذلني بكرهها الدراسة.

كلهم احتشدوا ضدي، وكلهن! كلهم كانوا يقولون أنها ستتزوج عاجلا أم آجلا، وأنّ الشهادة لن تنفعها. كلهم كانوا يقولون أني أعذبها بإجبارها على الدراسة، وهي لا تسيغها. يقولون أن هذه هي حدود عقلها.

بعد سنوات أرى الصفعة مختمرة على خد صغراي سلوى. تولول أمها وتريني سنها المكسورة، وتقسم بأنها لن تعيدها إليه. تقسم بنفس الحماس الذي كانت تقسم به أنه لا حاجة لها بـ«قطعة ورق» تعلقها على الحائط. "حائطها هو رجُلها"، كانت زوجتي تقول. رجلها الذي صفعها وركلها عقابا لها على عقمه هو!

وَيْكأني في فلم عربي!

من مذكرات بابا جاسم، ورقة غير مؤرخة مدسوسة بين كومة المذكرات

أباغتُ جدي:

- ماذا تفعل؟

- أسافر!

قالها فورا ودون أدنى جهد أو تفكير، كما لو كان يتوقع سؤالي وجهّز له الإجابة. ثم طالعني بطرف عينه وابتسم. لم أفهم ما يعني، فالتزمت السكوت.

- لولو، هذه أسفار. هل تعرفين معنى أسفار؟

- أصفار؟

وأخرج لساني هازلة، ثم أتدارك نكتتي السمجة وأقول بثقة:

- أسفار يعني أن نسافر.
- صحيح. أسفار جمع سَفَر. لكن هل تعرفين أنه في اللغة العربية تسمى الكتب الهامة والثمينة أسفارًا أيضا؟ الكتب العظيمة رائعة، هل تعرفين لماذا؟ لأنها تجعلنا نسافر ونحن في مكاننا.
- مثل بساط الريح يعني؟
- حين تقرئين قصة حدثت في مكان أو زمان لست موجودة فيه، ألا تشعرين بالسعادة؟ بلى تشعرين، لأنك تزورين مكانا آخرَ رغم أنك في مكانك.
- أريد أسفار ألمانيا. أريد أن أرى أمي وأبي.

خطفني بابتسامة مباغتة، وأخذني في أحضانه. ثم سرّى عني قائلا:

- سأتصل بهما عصر اليوم، وسأجعلك تكلمينهما. ما رأيك؟

ترى هل سيقدر أحفادي يوما ما أحاول أن أبثّه في رُوعهم؟ هل سيكون لديهم الجرأة للبحث عن المعاني المغايرة في بطون الحياة؟ أم أنهم سيقولون أن جدهم كان شيخا كثير التبرّم، وأكّال كتبٍ غريب الأطوار؟ كان مشاري يقرأ درسا عن التصحر والتشجير في كتاب العلوم، فانتهزت الفرصة وأخذت أحدثه عن تشجير من نوع آخر. قلت له أن علينا أن نحرص على تشجير قصورنا في الجنّة بغرس النخيل بالقول «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

يطالعني مشاري بعينين مدورتين تماما، ثم يعود لقراءة الدرس وكأني لم أقل شيئا.

ترى، هل أورثته سلوى ما في نفسها؟

من مذكرات بابا جاسم، ٢٦ إبريل، ١٩٨٩

* * * * *

أستجدي هطول العصر كي أحظى بمكالمة والديّ، فقد مضت أربعة أيام منذ آخر اتصال لهما. رن جرس الباب وذهبت ريشمي -التي تستيقظ باكرا لتساعد جدتي في بعض أمور المنزل- لتستطلع الأمر. من تراه يأتي في هذا الوقت المبكر؟ ثم عادت متهللة الأسارير تسحب حقيبة سفر كبيرة، ومجموعة من الأكياس المكتوب عليها بأحرف غريبة. وضعتها في الصالة دون أن تنتبه لوجودي، وغادرت مسرعة.

اعتمرني الفضول، ويمَّمت عينيّ ويديّ نحو الأكياس لأتلصص على ما فيها، لكن قطع نيتي صوت قادم من المدخل، صوت مألوف جدا، مألوف إلى حد إثارة الفزع. ليس صوتا واحدا، بل صوتان. هل؟ هل؟ منعت نفسي من الفرحة، تماسكت وركضت نحو المدخل لأتأكد.

رأيت رجلا نحيلا جدا يقف بالقرب من المدخل ويناول ريشمي بعض الأغراض لتدخلها، يبدو أنه بائع متجول أو مندوب توصيل. وحين استدار ناحيتي قليلا ورأيت قسما من وجهه، شممت رائحة مألوفة في الجو. الذاكرة البليدة تأبى أن تُسعفني، بل تسفعني برحيلها البارد.

رجل هزيل وشاحب الخد، رجل لا أعرفه، لكن له أنف مألوف. أنفه يشبه كثيرا أنف أبي لا، لا. لا بد أنه التفكير التمنيَويّ يطل برأسه مرة أخرى ويحاول خداعي. التفت الرجل ناحيتي تماما، فتهلل وجهه حين رآني، وفتح ذراعيه لي، وناداني:

-لولو! لولوتي!

يا للهول! إنه أبي، هذا هو صوته. لماذا تغيّر شكله هكذا؟ أين شاربه الأكث؟

هرعت لأعانقه وأتشبث به، والأسئلة تفسد فرحتي الصَبوح. كم هو مؤلم أن تعرف من تحب من أنفه فقط، لأن كل ما عدا ذلك قد تغيّر!
كانت أمي عند السيارة، فأسرعت تركض نحوي. تركت نفسي في ذراعيها أرضع من جديد الرضعة الأولى التي تبني مناعة الطفل. مناعتي العاطفية المتضعضعة كانت تنتظرك يا أماه، فتعالي ارقبي حاليهْ، تعالي بددي يُتميَهْ. الحياة دونك مذلة. أين كنتِ حين كانت عمتي -عليها الإنجكشن- تنسى أن تضع لي مناديل ورقية في جيب فستاني المدرسي، حتى أني اضطررت أن أستعير مناديل من سرمد ذات مرة. أين كنتِ حين نعبت عمتي في وجهي لأني أقلقت قيلولتها لأصلِ العصر كما أمرتنا المعلمة؟ لقد حرمتُ من مشاهدة التمثيليات يا أمي في عهد عمتي الميمون/المجنون، كانت تقول أن التمثيليات والأفلام تخرّب مخ الصغار. وحين كنت أطلب منها شراء شيء شاهدت إعلانه على التلفاز، كانت ترفض وتقول أن السلع الرديئة والكاسدة فقط هي التي تضطر للإعلان في التلفاز. لقد نهرتني حين قلت لها أني أريد غسل شعري بـ«شامبو» «شعرٌ يعجبك ولا يتعبك»[٥٨]، بل أجبرتني على «شامبو» «لا دموع بعد اليوم»[٥٩]! وحين طلبت منها شوكولاتة «فليك»، أجبرتني على أكل «الدرابيل»[٦٠]. ذات مرة يا أمي، ألصق مشاري وموضي علكة بشعري، كانا كثيرا ما يستنسران عليّ. لقد عرفتُ يا أمي شعور اليتم الذي جثم على «هايدي»، و«ساندي بيل»، و«سالي»، و«ماروشكا»، و«سندريلا»، و«سيباستيان». لقد ذقت أشواقه وأشواكه.

٥٨: شعر يعجبك ولا يتعبك: عبارة كانت ترد في إعلان «شامبو» وبلسم «پيرت پلس».
٥٩: لا دموع بعد اليوم: عبارة كانت ترد في إعلان «شامبو» «جونسون» للأطفال.
٦٠: درابيل: حلوى على شكل لفائف هشة.

أجلسني أبي في حجره، ثم رفع جناحي غترته فوق رأسه، فلاحظت التصحر الذي أصاب عارضيه المصقولين ووجهه. أخذت أتصفّح أبي، وأتفحّصه؛ أين شعره الكثيف الذي أورثني إياه؟

- بابا، لماذا شكلك هكذا؟

- لقد حلقت شعري.

- لماذا؟ شكلك ليس جميلا هكذا.

- لقد ذهبنا إلى العمرة. والرجال يحلقون شعرهم بعد الحج أو العمرة.

لم يكذب أبي هذه المرة، لقد ذهب وأمي فعلا إلى العمرة بعد رحلة ألمانيا. لكن هل يحلق الرجال شواربهم ولحاهم وحواجبهم ورموشهم أيضا في العمرة؟! لم أدرك حينها ما كان يحدث، ولم يخبرني أحد.

- تعالي شاهدي بيت باربي والباربيات التي اشتريتها لك.

- هل اشتريت لي سيارة باربي؟

- نعم، واشتريت لك عيادة باربي أيضا. عيادة الدكتورة باربي!

لم يمض وقت طويل، إلا وقد كنت على موعد مع المزيد من الفقد والوجد.

(٤)

الرؤيَة

متعذِّرة

حجاب وحجاب

عاد شعر أبي للنمو، صار شعره بني اللون بعد أن كان أسود. وصار ناعما بعد أن كان أجعد. كيف تغير شعر أبي هكذا؟ أتراه أيضا يتجمل من أجل الدكتورة؟

أمعن النظر فيه صباحا حين يستعد للسباحة في دوامة «الدوام». يسحب غترته البيضاء ويشهدها حول وجهه حتى تضارع حجاب أمي بشكل لا يصدّق، يضع طرفيها تحت ذقنه ويتأكد من هندام مقدمتها ويسبك الثنية العلوية التي تعلو جبينه. كنت أضحك حين كان يفتح فمه حينما يثبت العقال على رأسه. وكنت أضحك حين أرى أمي أيضا تفتح فمها حين تضع الكحل. مهمتان ديدنيتان[٦١] مثل هاتين، لم عساهما تتطلبان من الكبار فتح الفم؟ أليس في الحياة ما هو أكثر إبهارا منهما؟

يطوي أبي جناحي غترته إلى الأعلى فوق عقاله المستوي على هامته ويستعد للخروج. لم أكن بعد أدرك معايير الوسامة أو الجمال كما يدركها الكبار، لكنّ شكل أبي بالغترة كان بهيّا، وزاهيا، وأفضل من شكله دونها. على عكس أمي التي تفقد معظم رونقها حين تضع حجابها. كيف يمكن لقطعة القماش الأبيض نفسها أن تفضي إلى نتيجتين متعاكستين؟

أراقب شعر أبي ينمو، وشعور ينمو في داخلي. لا، ليست القطط المتقافزة إياها، بل غربان سوداء ناعقة تحوم في أذني.

٦١: ديدنّي: بديلي المتواضع لكلمة «روتينّي».

تُرى يا أبي، هل يعلم عمي ياسين بما يدور بينك وبين خالتي الدكتورة استقلال؟

لماذات كثيرة تتكاثر وتتآمر.

- لماذا -ومن باب الكياسة- نخاطب في طفولتنا المرأة بقولنا خالتي، والرجل بقولنا عمي؟

مجتمعنا الذكوري يفضّل رابطة الأصلاب على رابطة الأرحام. ولهذا، يـُقصي المرأة -ما أمكنه- من أن تكون ضمن رابطة الصلب. فالأليق - من وجهة نظره - أن تكون المرأة خالة لا عمة. ولهذا نجد -وفي كثير من الأحيان- المرأة ذاتها في غاية اللطافة مع أبناء أختها (أي حين تكون خالة)؛ وفي غاية اللؤم مع أبناء أخيها، (أي حين تكون عمة)!

تقول الأهزوجة الشعبية:

يا الخالة، ويا الخالة، لك إيدين شحّالة.

يا العمة، ويا العمة، لك إيدين ملتمّة

*****

- لماذا يخجل بعض العرب من ذكر أسماء أمهاتهم؟

ليس هذا وحسب، فالعربي يخجل حتى من الانتساب لعائلتها عن

طريقها. فلا يقول أمي من آل فلان، بل يقول أخوالي من آل فلان.
أَفَنتوقع منه أن يصدح باسم أمه بعد كل ذا؟

*****

- لماذا لا يخلّد العرب امرأة إلا إذا خلّدت رجلا؟ وهل خَلَدت الخنساء إلا من خلال صخر؟

ليس العرب وحدهم، ألم يقل الغرب <وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة>؟ هي لا تكون عظيمة إلا إذا كانت وراءه. من تكون بجانبه أو أمامه، فهي عشبة ضارة واجب اجتثاثها.

*****

- لماذا يتجادل الرجال هل النساء <رياحين خلقن لنا> أم <شياطين خلقن لنا>؟

لأنهم لم يقرؤوا الآية الكريمة (وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون)!

من الملف الأخضر.

قررت ألا أستمر في قراءة هذا الملف، فالإدراك مُرهق!

سيل الرُشَى

أخذني أبي إلى محل «ألعاب وليد» ليشتري لي زيا تنكريا قد يساهم في تخفيف مزاجي المتعكر بعد تجربتي الأولى في اقتلاع سن لبني وديع بريء، ومتسوس حدّ الاهتراء. شكرا عمتي سلوى على الرشاوى اللذيذة!

كانت بقعة طباشيرية كبيرة، من كان يظن أن التسوس يبدأ بهذا البياض؟

لا يغرّنكم البياض، البياض لون الهيروين، ولون عيون الموتى، ولون بعض الذئاب العقورة، ولون الدببة القطبية النهومة، ولون بعض أنواع العفن.

الأبيض لون الأكفان!

بما أن أزياء باربي التنكرية المتوفرة لديهم موجودة لدي سلفا، أخذ البائع يعرض عليّ أزياء غادات «ديزني» المكروبات، الغادات اللاتي ينتظرن هطول الفرج والفجر على يدي فارس أو أمير. كان البائع مصرا على زي «سنووايت»، وطبعا كنت أرفض فزيها المرقوع بألوان ثلاثة ليس من بينها الوردي لا يمكن أن يحظى بصك غفران مني. فبادر باقتراح زي سندريلا، ولقي اقتراحه المصير نفسه. وكيف يتوقع مني أن أقبل أن ألبس زيا أزرق اللون؟! وحده زي «الجميلة النائمة» الوردي حاز على رضاي.

* * * * *

هذا الصباح، ترك أبي عمله ليأخذني إلى الطبيب على غير العادة، فهذه مهمة

عادة ما تقوم بها أمي. عادت حاستي السادسة تقرقر في معدتي. وحين كنت تحت رحمة المعاول والجحافل استأذن أبي من طبيب الأسنان ليستعمل هاتف العيادة. من برأيكم كان يكلم؟ الدكتورة استقلال مجددا! أنا متأكدة، لقد سمعته ينطق باسمها، لقد كان يقول لها «دكتورة» دون تحديد، من باب التمويه. ترى ماذا يناديها حين لا يسمعهما أحد؟ ربما «لولو»، فهي الأخرى ينتهي اسمها بحرف اللام. الدكتورة لولو! أنا أيضا سأصبح دكتورة عندما أكبر. للأسف، لم أتمكن من سماع الحوار رغم أنه كان بالعربية وذلك بسبب أصوات آلات الحفر، لكني كنت متأكدة أنه أخبرها بأنه سيأخذني إلى مكان ما قبل أن يعيدني إلى البيت مما يعني أنه سيتأخر عن الموعد. تعسا لإبليس! يبدو أن أبي فعلا سيتزوج أم دنى! ذهبنا إلى «ألعاب وليد»، ورشاني أبي بزيّ تنكري، وصمتُّ. أجل، لقد تركته يذهب في موعده. ماذا عساني أن أقول؟ لقد اشترى سكوتي!

عمتي ترشوني كي أسير مستقيمة على صراط تسلطها، وأبي يرشوني كي أتركه يسير على صراط هواه. إنه لعالم معبّأ بالرُشى يا قوم!

* * * * *

في المساء يناديني أبي مبتهجا:

- لولو! عمك ياسين اتصل قبل قليل، هل تعلمين ماذا قال؟

حدقتاي المرتشيتان ترمقانه، وشفتاي يعلوهما شريط لاصق شفيف. هذا هو تاجي الجديد، الذي لا يراه سوى الراشون المستعدون لشراء حديثي الفضي، أو صمتي الذهبي.

- قال أنه يعرف أحد العاملين في التلفزيون، وستذهبين بعد غد مع دنى لتظهرا مع «ماما أنيسة»[٦٢]!

رشوة جديدة! يعمرني الفرح، ويغمرني سيل الرُشى، أتضخم، أتضخم جدا. لم يتقزّم الديناصور حين انقرض، بل اختفى متضخما، وقبيحا، وهائلا. أشعر بأني أسد الأفق بصغار نفسي. أنا القزمة المتعملقة.

٦٢: ماما أنيسة والأطفال: برنامج شهير للأطفال.

ماما أنيسة

تقول دنى لأبيها بتوسل مغمور بالابتهاج:
- بابا، فلنذهب عبر شارع الاستقلال.
- شارع الاستقلال بعيد عن مبنى التلفزيون حبيبتي.
- أرجوك، فلنذهب إلى شارع الاستقلال.
- سنتأخر. أعدك أن نمر عبر الشارع في طريق عودتنا.
كل ما في الأمر أن دنى تريد أن تخبرني أن هناك شارعا باسم أمها!

كنت طوال حياتي أحلم بأن أقابل ماما أنيسة. كان أحد أحلامي التي حرّزتها في مكان أمين، ولم أبح بها لأحد. مرة أخرى يثبت «قانون الطرد» جدواه، ويتحقق حلمي.
مُخِيفة ومُخْفِية هذه الأكمة. أشياء أخذت تتراءى لي من خلفها وتفسد عليّ بهجة تحقق الحلم؛ ما المقصد من هذه الرحلة بالضبط؟ أهي رشوة أخرى من أبي؟ أم تراها مؤامرة انتقامية من أبي دنى؟ هل سيخطفني عقابا لأبي؟ أظن أني رأيت فِلْما بهذا المضمون. أم أن هنالك شيئا آخر لا يغطيه إرسال عقلي الصغير المشوش؟ ماذا يحدث بالضبط بين الغريمين؟ تعاظمت مخاوفي، حتى تمنيت لو أني بحت لأحد بالحلم كي لا يتحقق.
مسحوقة بالاحتمالات، غطست في مقعدي ساحقة تسريحتي وشريطتي.

ترتعش رجلاي خوفا، فأهزهما في الهواء للتمويه وأنا أدندن أغنية افتح يا سمسم:

«آهٍ، آهٍ، أسناني، توجعني وتعذبني.»

تلتقط دنى دندنتي الهامسة وتشاركني الغناء بصوت عالٍ:

«اذهب لطبيب الأسنان، وتخلّص من هذا الضيقْ.

حالا رُحْ، قُمْ، واجرِ الآن، فطبيب الأسنان صديقْ.»

يتدخل أبوها:

- أليس لديكما أغنية عن الأطفال الشطار الذين لم تتسوس أسنانهم؟

اللّهُمَّ بلى! لديّ، لديّ! أغنيتي المفضلة «أسنانك تلمع كاللُّولُو»، وأغنية «الأسنان اللولو نظفها، ها ها ها ها». لكني أصمتُ، شيء يمنعني من الابتهاج باسمي.

تنهش دنى الفرصة، وتبدأ بغناء أغنية «افتح يا سمسم» التي أكرهها؛ أغنية عن الأسنان ولا ترد فيها كلمة «لولو»، أغنية يغنيها القرش المفترس قائلا:

«أسناني مثل التاج،

ببريقها الوهاج.

أسناني تلمع،

بالقوة تسطع،

مصقولة مثل العاج.»

أكتفي بالتصفيق، وأهز رجلي المرتعشتين للتمويه.

* * * * *

لا تحفل، ولا تجفل، فكلهم مجرد أحجار شطرنج وإن اختلفت ألوانهم. بعضهم يخيفك بتاجه، وبعضهم الآخر ترهبك ملامحه الحيوانية. لا تبتئس، تذكر أن يدا عليّة عُليا هي التي تحركهم. هم بذواتهم لا يضرونك، ولا ينفعونك. البشر كائنات شبه وهمية، تبدو مخيفة ومضرة وقادرة، لكنها لا تتحرك ذاتيا لا ضدك ولا لصالحك. هم مجرد أسئلة خداعة في امتحان صعب. {... إنما نحن فتنة فلا تكفر ...}.

لم يسجل التاريخ تحول بيدق شطرنج إلى غوريلا، فنم قرير العين.

من مذكرات بابا جاسم، ٩ يناير، ١٩٧٩

لم يقطع شرودي سوى إصبع دنى يشير إلى مذيع نشرة الأخبار في الاستديو الذي كنا نمر بقربه. كانت مبتهجة، وكنت مصدومة. كنت طوال هذه السنوات أظن أن المذيع ينحشر في غرفة صغيرة بحجم الأبعاد الظاهرة لنا على الشاشة، وفيها فتحة صغيرة للكاميرا، وباب جانبي صغير يخرج منه متى ما أتم قراءة النشرة. أي شيء شبيه بغرفة «الساونا»! وإذا كنتم الآن تنقلبون على ظهوركم قهقهة، فاعلموا أن موضي كانت تتصل برقم ١١٣ (الساعة الناطقة) وبمجرد أن تسمع «تووت، عند الإشارة تكون الساعة ...» تغلق الخط، ظنا منها أن هناك شخصا يرد على الاتصال مباشرة!

مشاركتنا في البرنامج كانت في فقرة المسابقات. كان على أعضاء كل فريق أن يركبوا أجزاء لوحة مفككة. دخلت المسابقة مدججة بالثقة الفنية، وخسر فريقي وربح فريق دنى. الأمر كان يحتاج إلى السرعة والنباهة، لا إلى الحس الفني فقط. فازت دنى بلعبة أدوات الجرّاح، أما أنا فحصلت على دفتر تلوين

جائزةَ ترضية.

* * * * *

أنصبُ خيمة الصمت ونحن في طريق العودة.
«بابا، لا تنسَ أن تطلب من صديقك أن يعطي أهل لولو أجوبة مسابقات رمضان، حينما يحل رمضان القادم.» قالت دنى مفاخرة بوساطات أبيها العابرة للقارات، أبيها المخدوع. ثم قلبت لعبتها وكتبت لي على الجانب الفارغ من الكرتونة الخلفية:
«اكتب لكي بالمقلوب، لتدوم المحبة في القلوب.
الذكرى ناقوس يدق في عالم النسيان.
أتمنا لكي حياة كريمة في ظل والديكي الكرام.
صديقتكي: دنى ياسين»[٦٣]
ثم ناولتني لعبتها وقالت:
- خذيها، هي لك.
- لا، أنتِ فزتِ بها.
- لكن أريدك أن تأخذيها حتى تتذكريني.
كنت على وشك أن أشاكسها وأقول لها لقد مللت من رؤيتك كل يوم في المدرسة، ولا أريد أن أتذكرك في البيت أيضا. لكن شيئا في عينيها ألجمني، ونظرات أبيها إلينا عبر مرآة السيارة الأمامية بدأت تخيفني. أخذت أسأل نفسي: هل سينتقم أبو دنى من أفاعيل أبي ويقتلني؟ شاهدت في أحد الأفلام

٦٣: هكذا كتبتْها، واصفحوا عن أخطائها اللغوية.

أن المقتول يحق له أمنية، ولعلهما يعطياني هذه الهدية على اعتبار أنها الأمنية الأخيرة لي قبل الموت.

ابتدر أبو دنى الحديث:

- بابا خيال، سنسافر هذا الصيف إلى السعودية.

- ونحن سنذهب إلى الشاليه، هكذا قال لي بابا!

رددتُ عليه بعدائية مختمرة.

- لكننا قد لا نزور الكويت مجددا إلا في الصيف الذي يليه يا بُنيتي.

التفتتُ مفزوعة إلى دنى:

- إياكِ! سيفصلونك من المدرسة، وسترسبين!

- سأدرس في السعودية.

ظللت معقودة اللسان هنيهة، حتى تلقف أبو دنى الحديث قائلا:

- سأسافر للعمل في السفارة الكويتية في السعودية، وسنعيش هناك.

لقد عرفت السبب، لقد عرف أبو دنى بأمر أبي والدكتورة استقلال، والحل هو أن يغادروا إلى دولة أخرى. كنت أقسم أن هذا هو سبب مغادرتهم، لكن لم أجرؤ أن أصارح أحدا بذلك. حسنا، على الأقل لم يكن ينوي قتلي!

أخذت عدّة الطبيب على مضض، وأودعت دفتر التلوين في عهدة دنى للذكرى. للذكرى، هكذا يقولون. أجل الذكرى مرة أخرى. هاه!

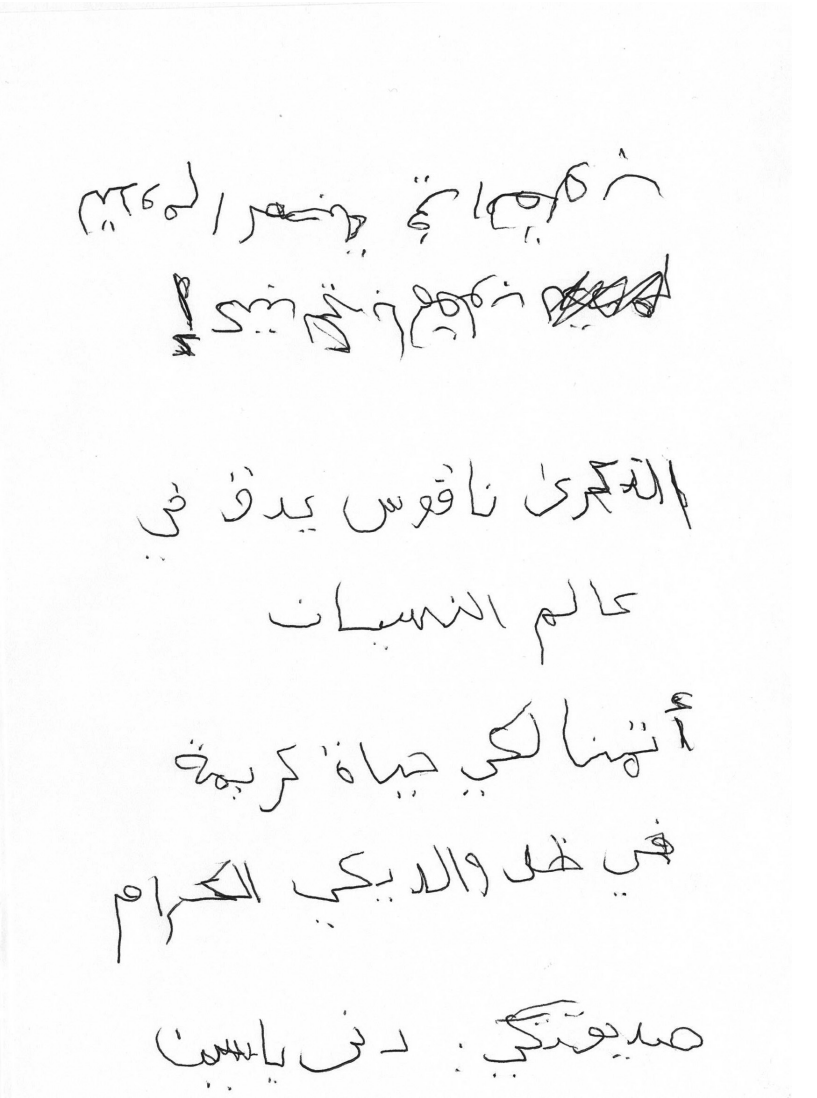

الرسالة التي كتبها لي دنى على كرتونة اللعبة التي فازت بها.

أرض الملح والسكر

الصيف سيف، إن لم تشحذه تثلّم! لكن ذاك الصيف كان مشحوذا بأحداث كادت تكسر نصله.

مع بدايات أزيز الصيف، كانت نقلة كبيرة وغير مبررة تنتظرنا؛ سننتقل إلى بيت جديد. أظنني عرفت السبب، بما أنّ أُسّ الشر (الدكتورة استقلال) قد غادرت، كان على أبي أن ينساها ويُعيد المياه إلى مجاريها مع أمي. والبيت الجديد هدية واعتذار، تماما كما يفعل الأزواج الخائنون في الأفلام. وهذا يعني -يا للهول- أن أمي كانت تعرف بالأمر، وإلا لم عساه يعتذر إليها بهدية باهظة الثمن؟

الانتقال إلى منطقة جديدة يعني مدرسة جديدة، يعني صويحبات جديدات، ووجوها جديدة، وسِجِّلا جديدا لكل شيء. الكبار يخافون من التغيير ويقاومونه، أما أنا فكنت أكبر المشجعين للانتقال، إنها نزعة الانطلاق وعدم القلق التي تحفل بها صدور الأطفال، هل رأيتم طفلا يمسك ورقة وقلما ليتخذ قرارا أو ليرجح وجهة نظر على أخرى؟ كم ألوب لأن أعيش ولو يوما واحدا بهذا الانطلاق. لكن، لعل الدافع الرئيس وراء إلحاحي وفرحي بالانتقال هو أني لا أريد أن أرى المدرسة مرة أخرى! لا أريد أن أراها دون دنى. أردت التخلص من جميع المشاعر المتعاكسة والمتشاكسة، ومن جميع الأركان والجدر والبلاطات التي تزيد من وطأة الذكرى.

يبدو أن الهدية لم ترضِ أمي بما فيه الكفاية، فكان عليه أن يهديها سفرا.

الله أكبر كبيرا، بدأت أحب الدكتورة استقلال هذه! عاد أبي يسعل مجددا. وانتبهت للتو أنه هذ المرة الأولى تقريبا التي عاد فيها السعال إليه منذ عودته من ألمانيا. ثمة شيء غريب في عيني أبي، وفي أنفاسه، أتراه لا يزال يحبها؟

طبعا كنت أريد أن أزور «دولة لندن» وأرى عاصمتها (وبريطانيا عاصمتها كما صرتم تعلمون). لكن أمي أصرت على أن نذهب إلى البحرين. تبين لي لاحقا أنها كانت تأمل أن تكون الزيارة سبب في إقناع معن ومنهل بالانتقال للدراسة في جامعة الخليج العربي في البحرين لدراسة الطب. فيكونان بهذا أقرب، وتكون زيارتها أسهل، والقلق عليهما أهون، والاعتماد عليهما أيسر في حال «حدث شيء»!

* * * * *

طيران وجيز، فهبوط وثير في مطار المحَرَّق. ها هي البحرين، دلمون، تايلوس، أوال. الرطوبة تتسيد اللحظة، كان حبّا من أول نشقة هواء. لا تسألوني لِمَ، ولا تواجهوني بالسؤال المدرسي الشهير «عَلِّلي»، فلا جواب لدي إلا أن قلوبهم بيضاء. ألم يقولوا عن الحب أنه شيء «لو فُسّر فسد»؟ فلتسقط كل التفسيرات.

الهواء المالح يدغدغنا، هواء لذيذ هو. ألا تقول العرب عن الجميل بأنه «مليح»؟ وهي كلمة تحوّرت لتصبح «منيح» في بعض اللهجات. وأما قال الشاعر «كل ما يفعل المليحُ مليحُ»؟ وألا نقول في العامية عن الجميلة بأنها «مملوحة» و«كلها ملح وقَبْلة»؟

مَلاَحة البحرين مرشوش عليها الكثير من السكّر. أتأمل صور الآثار القديمة في الكتيب التعريفي الذي حصلنا عليه من المطار. وأخالني أمشي

فوق قطعة سكر هائلة تطفو فوق المياه، جزيرة عجيبة هذه المعبّاة بكل هذا التاريخ.

البحرين قطرة عسل في مياه الخليج المالحة. تنيب الملوحة ولا تذوب فيها. هنالك كل شيء حلو، الحلوى البحرينية، الأرز المسكر المحمر (البرنيوش)، السمبوسة الحلوة (اليوامع)، والأحلى منهم الروح البحرينية. وهذه الرطوبة التي تثير النزق، كيف يتحملها البحرينيون ويحتفظون بهدوؤهم وطيبتهم في وجودها؟ روح سكريّة حلوة تلك التي تسرى في أجساد البحرينيين ولا شك.

من الساذج الذي يقول أن البحرين صغيرة؟ مع البحرين لا أصدق علماء الجغرافيا، بل أصدق علماء التاريخ، وأصدق بصمات الحضارة. البحرين هي الشقيقة الكبرى في الخليج! هي الأقدم والأعرق، مع كل هذه الحضارات التي اختارت هذه البقعة لتحط رحالها وتعشش فيها. الحضارات كائنات ذكية لا تختار إلا البقع الاستثنائية. كل الحضارات التي تعاقبت على البحرين لم تخترها إلا لأنها مخضّبة بالحلاوة، ومخصّبة بالمجد.

من مذكرات بابا جاسم، ١٦ أغسطس، ١٩٧١

دلفنا إلى أحد فنادق جزيرة المحرّق، ويفترض أن يلحق بنا معن ومنهل خلال بضعة أيام. التقيت عند مكتب الاستقبال بفتاة من عمري تقريبا؛ «رُقيّة». هي ابنة مدير العلاقات العامة في الفندق الذي كان أبي يكلمه بشأن برنامجنا السياحي. تبادلنا الابتسامات. كانت تحمل باربية في يدها،

وهذه حتما بشرى حسنة.

في أول صباح، ذهبنا إلى قلعة عراد في رحلة سياحية تضم مجموعة من سكان الفندق، ولا أتذكر الكثير عن هذه الزيارة، سوى أن الدليل ظل يكرر أن أصل اسم عراد هو «أرادوس»، فقد كنت مشغولة ألعب مع رُقية وأثرثر.

وفي صباح اليوم الثاني، زرنا «عين عذاري»، وكنت أظن أن هناك فتاة اسمها عذاري مشهورة بجمال العينين وسنزور قبرها، إلا أنني اكتشفت أنها عين ماء، تسقي النخل البعيد وتترك القريب.

من أمراض العيون العربية:

ملازمة عين عذاري، التي تَسقي البعيد، وتُقصي القريب.

متلازمة عين الرضا، التي هي «عن كل ذنب كليلة».

متلازمة العين المحبة، التي تحب فتحابي. «إذا حبتك عيني، ما ضامك الدهر».

متلازمة العين الحمراء، التي تحل كل شيء بإغماضة عين أو انتباهتها.

من مذكرات بابا جاسم، ١٦ ديسمبر، ١٩٨٦

أخذت أطالع النخيل، لم يعجبني كثيرا، لأنه لا يشبه النخيل الذي يظهر في «مغامرات سندباد»، ولا يشبه النخلة الشهيرة التي تظهر في برنامج «سلامتك».

ضمن الوفد السياحي كانت «جينا» هي فتاة من إحدى الدول الأوربية لا أتذكر اسمها، تعرفتُ ورقيّة عليها رغم أنها لا تجيد من الإنكليزية أكثر مما

نجيد، لكننا كنا نقضي وقتا ممتعا معا رغم اختلاف الألسن وصرنا نسميها «زينة» بدلا من «جينا» وننشد لها أغنية مسلسل «زينة ونحول»:

«أنا زينة، أنا زينة وحدي في البساتين.

أنا زينة الجميلة، أزهو في كل حين.

يا أحلى نحلة، زينة.

تمضي في رحلة، زينة.

لا تهجرينا يا زينة.»

وكانت تفرح رغم أنها لا تفهم.

زينة، النحلة المارقة المفارقة، الخارجة عن طوع الخلية. كأحفادي، أحب زينة!

زينة لا «تفكر خارج الصندوق»، زينة تركل الصندوق على وجهه وتقف فوقه فترى أفضل مما يرى مدجّنو الخلية.

أخشى على زينة كثيرا، أمثالها لا يعيشون طويلا. وأن عاشوا، عاشوا تعساء. بيد أن التاريخ يذكرهم طويلا بعد وفاتهم.

من مذكرات بابا جاسم، ١١ يوليو، ١٩٨٧

* * * * *

في ثالث صباح، تملصنا من نطاق الجاذبية الأهلية، وقررنا أن تناول الفطور وحدنا. سمحوا لنا، فجلسنا على طاولة خارجية في شرفة تطل على المسبح. تدّبقنا الرطوبة ولا نعبأ بها. الاستقلال أغلى، الحرية أحلى. نهرب من عيون الكبار، كي نقلدهم. جُل لعبنا ونحن صغار، تقليد للكبار!

أغلب حديثنا مع زينة كان بعربية مطعمة ببعض الكلمات الإنكليزية الشحيحة التي نعرفها، وكثير من لغة الإشارة والضحكات. ذهبتُ مع زينة إلى «البوفيه» مرة أخرى لنستزيد. وحين رأيت شرائح البطيخ الأحمر، قلت لزينة: «هذه رُقية»! لم تفهم ما كنت أقول، وظنت أني أقصد أن رُقية تحب البطيخ الأحمر. لكن كنت أقصد أن هناك شبها بين اسم رُقَيَّة والرَّقِّية بالعامية وهي تعني البطيخ الأحمر. هاه، مشاغبة طفولية!

زار ديوانية فيصل الليلة مجموعة من أصدقائه القادمين ضمن وفد من دول عربية عدة. أمضينا أكثر من نصف ساعة نناقش أسماء البطيخ الأحمر!

الخليج: رقِّي، جِح، حَبْحَب.

مصر: بطيخ.

بلاد الشام: بطيخ، جبس.

المغرب: دلاع.

الغريب أننا في الكويت إذا قلنا بطيخا، فنحن نعني البطيخ الأصفر أو الشمّام. وسيكون موقفا محرجا إلى حد الظرافة أو ظريفا إلى حد الإحراج أن يطلب كويتي بطيخا في مصر أو الشام، فيؤتى له بما لا يتوقع.

ولا ينافس البطيخ في كثرة أسمائه إلا الهررة.

بالفصحى: قِط، هِرّ، سِنَّور.

بالعامية: قَطُو، عِتْوِي، قُط، سَنُّور، بِس، بسَيْن، بَزُّون، عُزِّي، كَدِيس، {... ويخلق ما لا تعلمون}!

من مذكرات بابا جاسم، ١٢ مايو، ١٩٧٧

أخذت زينة طبقا ثانيا ووضعت فيه شرائح من البطيخ الأحمر وقدمتها لرُقيّة وقالت لها بإنكليزيتها المتضعضعة «You»! كانت تقصد أنها أحضرت هذا لها، بينما فهمت رقية أني أخبرت زينة بالتشابه بين اسمها والرقي وغضبت منا، فقد كنا أمس نتكلم عن تسميات الطعام في لهجاتنا وأخبرتها أننا نسمي البطيخ الأحمر بالرَّقي. ولم تفهم زينة المسكينة سبب غضب رقيّة من سلوكها الطيب.

لم يطل ضيق رقية كثيرا، إذ أخذت أحاول أن أتحدث باللهجة البحرينية وأقول لها «ورا هاللون زعلتي؟» وأحاول أن أمد الكلمات بالطريقة البحرينية المحببة، وأخذت وزينة تشاركني وتتمتم «هاللووون هاللووون» دون أن تفهم، فانفجرت رقية ضاحكة من قولنا. ثم أشارت إلى وقالت لزينة «مادونا، مادونا!» في إشارة إلى خصلات شعري المتعاركة والهائجة جرّاء الرطوبة.

فانفجرنا ثلاثتنا في غيمة ضحك وردية.

في المساء أحضرت رُقية أعدادا من «مجلة ماجد» وجلسنا في بهو الفندق نتصفحها مع زينة التي أعجبت بـ«فضوليّ» أيما إعجاب، وأصرت أن تبحث في بقية الأعداد عنه. آه يا مجلة ماجد، كم تعلمنا منك، كم تعلمنا من زكية الذكية، وموزة الحبّوبة وشقيقها رشّود، ونبهان وخلفان، وشمسة ودانة، وأبي الظرفاء. حتى «كسلان جدا» كان في كل أسبوع يعلمنا درسا ما.

* * * * *

مرّت الأيام سُراعا، وحان وقت العودة. لم يقتنع معن ومنهل بتغيير جامعتهما رغم إصراري عليهما أن يفعلا. وعدتهما بزيارتهما كل شهر، وكنت في الحقيقة أريد زيارة رُقية، لكن لا مانع من ضرب عصفورين بحجر واحد.

حتى أني فكرت بمشاكسة لم تخل من سذاجة أنه يمكنني أن أقنع منهل وأعده بتدبير أمر زواجه من «زينة» عندما تكبر بعد عقد أو عقد ونصف من الزمان مثلا إن هو وعد بإكمال الدراسة في البحرين! فزينة أجنبية وشعرها أشقر، وإلا لم عساه يريد الزواج بأجنبية إلا من أجل أن يكون لديه باربي بالحجم الطبيعي؟ هكذا كنت أظن، ولا أظن أني تجنيّت على الحقيقة كثيرا! فغلاء المهور ما كان ليكون حجة، ولا أظن أن منهل يحتاج إلى الحصول على الإقامة الدائمة هنالك. لماذا يقدم على ذلك إذًا سوى لأسباب «باربوية» قاهرة قد تتخفى تحت دعاوى تحسين النسل أو نشر الإسلام! كدت أعرض اقتراحي، لكن خشيت أن تتعقد الأمور وتغص أمي مرة أخرى، فكثير من الأمور نراها سهلة سائغة «كالشعرة في العجين» وإذا بها تكون كالعجينة المعسّلة الدبقة حين تتشبث بالشعر! فآثرت الصمت.

أما أمي فظلّت تتوجس خيفة وتخشى أن يكون لمنهل صديقة، وأن يكون مضطرا إلى الزواج بتلك الفتاة التي تحدّث عنها ذات مرّة، وأنها ستحظى بكنّة خارقة تلد طفلا مكتمل النمو بعد ستة أشهر أو أقل من الزواج!

صديقة؟ «گيرل فرند»؟ جلت الصداقة عمّا يفعلون ويقولون. فليسموهما كما سماها الله، «خدينة».

إنه مُلك الشِمال!

من مذكرات بابا جاسم، ١٣ يوليو، ١٩٧٩

لكن هواجس أمي لم تكن سوى أضغاث مفتوتة. فرغم الغربة، ورغم بعض المشاغبات التي تظهر في سلوك شقيقي ومنهل بشكل أخص، إلا أنهما

لم يفقدا دينهما ولم تضع التربية هباء. لم يكن بذر والديّ لهما حرثا في البحر، فقد لاعباهما سبعا، وأدباهما سبعا، وها هم يصاحبانهما سبعا، وقريبا يتركان لهما الحبل على الغارب. وإن كنت أشك على أي حال أن أمي -وما أدراكم بقلب الأم؟- تستطيع أن تترك الحبل من يديها!

* * * * *

منهل من النوع الرومانسي جدا مقارنة بمعن العملي والجاف بعض الشيء. أين أصحاب الأبراج والفلك؟ أين من يرصدون الأفلاك والأنجم لا ليطيروا إليها ويسبروا أغوارها، بل ليطيّروا بهذا الكوكب وبذاك الطالع؟ في عالم يتنافس فيه البشر في علم الفلك، صرنا نتنافس في «الكَلَك»[٦٤]. أين منظرو برج الثور والعقرب والسرطان والجدي والحمل وبقية الحشرات والقشريات والبهائم؟ فليفسروا لي كيف يكون توأمان -لا يفصلهما عن بعضهما سوى دقائق- بهذه الطباع النفسية المختلفة والمتنافرة أحيانا؟

صدق عمر بن الوردي حين قال:
صدّق الشرع ولا تركن إلى *** رجل يرصد في الليل زحل
أجدني اليوم مدفوعا أردد دعاء أبينا إبراهيم -عليه السلام- مع بعض التعديل: وأجنبني وبنيَّ أن نعبد «الأبراج»؛ ربِّ إنهن أضللن كثيرا من الناس!

من مذكرات بابا جاسم، من الدفتر المخصص لكتابة الملاحظات عن شقيقيّ

٦٤: الكلك: الكذب والنصب.

لم أستغرب من خبر طلاق الأمير «تشارلز» والأميرة «دَيانا» في صحيفة اليوم، فالتنافر بينهما كان واضحا منذ البدء، هما مختلفان تماما على مستوى الشخصية والمزاج.
شعرت بالذنب قليلا حينما شعرت بكثير من الفخر والنصر حالما قرأت تاريخي ميلادهما في التقرير المنشور في صحيفة اليوم! تشارز من مواليد برج العقرب، وديانا من مواليد برج السرطان. شريكان مثاليان، وبرجان مائيان متوافقان جدا وفقا لدجّالي النجوم. هاه، ماذا تراهم سيقولون؟

من مذكرات بابا جاسم، ٣٠ أغسطس، ١٩٩٦

* * * * *

عدنا إلى الكويت. أفتقد دنى، أفتقد خربشاتي البريئة-الجريئة على الجدران. لقد صارت كلماتي «شاطرة» ومستقيمة ونقيّة بعدما كانت شقيّة، ولا أظنني أستطيع أن أكتب اسمي بالمقلوب، نسيت كيف كنت أفعل ذلك، إنها الذاكرة تماحكني تارة أخرى و«تتنوخذ».
مضى أسبوعان، ثم سافر أبي وحده في رحلة أخرى إلى ألمانيا (أو ربما عرّج على السعودية حيث الدكتورة استقلال، من يدري!)، ولم تمانع أمي أبدا! يبدو أنه مفعول الهدية/الرشوة/البيت الجديد. أظن أن علي أمي الساذجة أن تشاهد المزيد من التمثيليات لتعي حقائق الحياة!

مقتطف مختطف (٣)

من كشكول لبابا جاسم عنوانه: «مسرحيات للصغار الكبار». لا يوجد تاريخ على أي من نصوصه.

زينة ونحول

الشخصيات:

زينة

نَحُّول

المكان:

على خط التماس بين الخلية الوادعة، والغابة الواعدة.

- زينة، زينة! أين تذهبين يا زينة؟
- نحول، ما ظننت أنك ستلحق بي.
- أتتركينني وحدي يا زينة؟ أترحلين؟
- أنا راحلة إلى الحياة يا نحول. أنا راحلة إلى الغابة.
- لا يا زينة، إياكِ! أما سمعتِ المثل الذي يقول ... ماذا يقول المثل؟ ... آه، نسيت!
- أنت دائما تنسى يا نحول، أنت مصاب بالنُحول!
- نُحول؟ انظري إلى بطني يا زينة، أنا سمين ولست نحيلا!

- أنت مصاب بالنحول في عقلك. «جسم البغال وعقول العصافير»!

- زينة، أنت وقحة يا زينة! كيف تقولين هذا؟ ثم أنا أكبر منك، وأعرف بالتالي أكثر منك، كما يقول القول الشائع!

- أنت صنيعة المعلمة سلمى، أنت دجين الخلية يا نحول. أنا نحلة منطلقة، وأنت نحلة منغلقة. لذا فأنا ...

- نحلة؟ أنا لست نحلة، أنا نحّول، أنا صبي!

- يا نحول، النحلة في العربية تطلق على المذكر والمؤنث. لكن من أين لك أن تعلم؟ هل تعلم يا نحول أن العرب كانوا يسمون ملكة النحل باليعسوب؟ كانوا يظنونها ذكرا نظرا لكبر حجمها، فأطلقوا عليها اسما مذكّرا.

- حقا؟ أنت تعرفين أشياء كثيرة يا زينة!

- قوة القراءة!

- لكن في الخلية نتعلم القراءة يا زينة، فلماذا تريدين أن تهاجري إلى الغابة؟

- في الخلية يجعلوننا نقرأ ما يُراد لنا أن نقرأه، ونعتقد ما يراد لنا أن نعتقده. أريد أن أقرأ في الغابة، أريد أن أقرأ الغابة.

- حذار يا زينة، المعلمة سلمى تقول أن علينا ألا ندخل الغابة إلا على شكل جماعات. الغابة مليئة بالدببة، والدبابير، والعناكب، وأحيانا البشر.

- المعلمة سلمى، ضحية-جلاّد آخر، فرد آخر يَفنى ويُفني في سبيل المجموع. البشر؟ وما للبشر؟

- زينة، إنهم يأسرون النحلات. سيستعبدونك يا زينة، سيربونك في خلية مصطنعة ويجبرونك على العمل، ثم ينهبون العسل.

- العسل. آه من العسل. ولماذا نصنعُ العسل؟ أليس من أجل الآخرين؟ تهبنا الأزهار الرحيق، لنهب العسل بدورنا للدببة وللبشر وغيرهم. هم لا ينهبون يا نحول، بل نحن نهبهم إيّاه. وهل سُمينا نحلا إلا لأن الله نَحَلَ البرايا -أي أعطاهم- خيرنا وعسلنا؟

- النحلات يصنعن العسل كي نتغذى عليه في الخريف والشتاء، حينما تذوي الأزهار.

- إلى متى هذا الكَنْز الفاحش للعسل؟ ما يُشارك، يُبارك. قوة العطاء يا نحول!

- لكن المثل يقول يا زينة، يقول ... نسيت!

- يقول المثل يا نحول «أي الجزاءِ الغيثُ يبغي إن همى؟»

- لا، ليس هذا المثل الذي حفّظتني إياه المعلمة سلمى.

- المعلمة سلمى بيدق شطرنج، بيدق تقليدي آخر.

- تدق... تقد... ت ت ت، تقليدي؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟

- إنها تتبع العادات والتقاليد. إنها تفكر داخل نطاق الخلية، «داخل الصندوق» إذا جاز التعبير.

- أي صندوق؟

- خليتنا يا نحول مجرد صندوق، ونحن مجرد أجناد مبرمجين مُسترقّين، عُمال سخرة نحن، عبيد المجموع نحن، أقنان الأرض نحن، أو أقنان الخلية بتعبير أدق.

- زينة، أنا لا أفهمك. زينة، أنا أخاف عليك.

- وأنا أخاف منك يا نحول، أخاف منك أن تسحبني إلى الوراء. أن تقنعني بالبقاء، فأكون مجرد نحلة بين كومة نحلات.

- إذًا هو الفراق يا زينة؟

- هي البداية يا نحول، إنه «فراق يحمل في طياته بداية»، كما يقول التعبير الشائع يا نحول!

- أنا باقٍ يا زينة. ارحلي وحدك.

- عزيزي نحول، أنت أيضا عليك الرحيل. نحن مملكة أمومية بإفراط، مجتمع أنثوي شوڤيني. هل تعلم ماذا قرأت في الكتب يا نحول؟ ذكور النحل يفقسون فقط في موسمي الربيع والصيف. لماذا؟ لأن أمثالك يا نحول يُقتلون سنويا بعد أداء مهمتهم. مجتمعنا ينظر للذكور نظرية جسدية بحتة. لهذا من الضروري أن تظلوا جهلاء، أغبياء، كي لا تثوروا. كي لا تعرفوا أن وظيفتكم الوحيدة هي التزاوج مع الملكة. يمنعونكم من العمل ومن مخالطة الأزهار، ويقولون أن عليكم البقاء في الداخل خوفا عليكم. ولم عساكم تخرجون والنحلات العاملات يخدمنكم ويتكفلن بعرك الحياة وأنتم تنعمون بالرفاهية والدعة؟ لكنكم مخدوعون يا نحول، أنتم مجرد آلات في نظر مجتمعنا، أنتم مجرد أجساد في خدمة الملكة والمملكة. إنها ديكتاتورية الإناث!

يصم نحول أذنيه ويدندن النشيد الوطني للخلية:

أحلى الممالك ما يبنى على العملِ *** واللسع عند محبيهن كالعسلِ [٦٥]

أخذت زينة تهمس لنفسها:

- يعز علي يا نحول أن أراك ميْتا، يعز عليّ.

بعد فترة، وُجدت زينة ميتة في الغابة. لقد انتفخ بطنها بالعسل ولم تجد مكانا تحفظه فيه، فقضت نحبها!

٦٥: مع الاعتذار للمتنبي!

مدرسة جديدة

سبتمبر، ١٩٨٩

تمضي الحياة رغم أنف كل شيء، وتتوالد اللحظات، وتنتفش عجائن الخبز كل صباح. أمشّط شعري، وأربط حزامي، وأتسربل بقلقي، وأمضي.

دخلت إلى حرم المدرسة الجديدة والمخاوف تقرصني وتقرضني. لا يطمئنني سوى أسماء الله الحسنى المثبتة على لوحات حديدية تطل على الساحة.

صبرا، صبرا! يبدو أن الوضع ليس مأساويا جدا. الأدراج المستخدمة في المرحلة الابتدائية منفردة، وهذا فتح كبير! دعوني أشرح لكم الأمر.

ففي معظم المدارس تكون الأدراج في المرحلة الابتدائية عبارة عن درج كبير تستخدمه طالبتان، وهذا سبب في توأمة جبرية مع الرفيقة اللصيقة.

أما في المرحلة المتوسطة فتحظى كل طالبة بدرج خاص بها. شعرت بأني حصلت على علبة من حبات الشوكولاتة المحشوة بكريما الفراولة دون أن أطلبها؛ هديةً غير متوقعة أو مسببة. جاش صدري بمشاعر أزعم أن «نيل أرمسترونگ» لم يَخْبُرها يوم وضع قدمه الخفيفة على القمر. حفرت اسمي مقلوبا على الدرج، خوفا من أن يعرف أحد أني الفاعلة. هل قلت لكم أني نسيت كيف أكتب اسمي مقلوبا؟ كنت أمزح!

يكتب الناس على الحوائط العامة، وعلى أبواب الحمّامات، وعلى أعمدة النور، لا لقلة الأوراق، بل لأن هذا ممنوع.

من مذكرات بابا جاسم، ١٥ يونيو ١٩٨٢

لا داعي أن أذكر لكم أنه تم ركلي إلى آخر الصف، فأنا طويلة، ومستجدةٌ غريرة. تجلس بجانبي «قماشة» والجديد في الأمر أنها لم تكن تعيد السنة، بل مستواها كان جيدا، لكنها مثلي كانت من ضحايا الطول. كلما تذكرتها، تذكرت زميلا عربيا في المستشفى قال لي ذات مرة لي مستنكرا بعد أن كان يطالع ملف مريضة اسمها قماشة:

- أعاقل هو ليسمي ابنته قُماشة؟ هل هو تاجر أقمشة مثلا؟

وكم كانت دهشته عظيمة حين أخبرته أن القْمَاشَة (تنطق القاف جيما مصرية) هي اللؤلؤة الصغيرة، في حين أن الدانة هي اللؤلؤة العظيمة.

ما بالهم يخجلون من تلك الأسماء الجميلة؟ موزة، هيلة، بزة، سبيكة. كلها أسماء لأشياء كانت تعد نفسية. فالموز والهيل مثلا لا يبلغهما القوم إلا بشق الأنفس وبمخر عباب البحار، أما اسم «برّة» فلعله مشتق من الفعل «يبز» أي يتفوق ويبرز. لا أظنكم مثلا ستسخرون من فرنسي يسمي ابنته «مارون گلاسيه»!

القوم في الماضي لم يكونوا مهووسين بالجرْس الموسيقي ولم يصروا على أن تكون هنالك ألف ممدودة ممطوطة مغناج في آخر الاسم، أو ياء زائدة مقحمة لا أصل لغويا لها مثل ريهام وريناد وريتاج! وحمدا لله أن موجة التغنيج الممجوج هذه لم تطل أسماء حفيداتي، وإلا لصارت أسماؤهن: خايال، ومودي، وسارا!

من مذكرات بابا جاسم، ٥ أغسطس، ١٩٨٧

خيال، لولو* لمعت هذا العام. أتراها تعوّض خيبتي في سلوى؟ هي ابنة محمد، الوحيد الذي طاوعني وأكمل دراسته. قمين بي أن أعقد آمالا عليها، كما عقدت على أخويها من قبل. لكن لن أخبر أحدا أني أعوّل عليها، البشر محترفون في وأد الآمال.

---

* لؤلؤ = لولو (من باب تسهيل المهموز).

كتبها جدي على الغلاف الداخلي لمذكرة العام ١٩٨١

وكما أن جميع أنواع مساحيق الغسيل هي «تايد»، وجميع أنواع المحارم الورقية هي «كلينكس»، فإن فتيات مدرستي يسمين الرسوم المتحركة «باباي»، في حين أسميها أنا «ميكي» وكذلك معظم فتيات مدرستي القديمة. هذا – تقريبا- هو الأمر الوحيد الذي كان يزعجني. أجل، تذكرت! في مدرستي القديمة كنا نرسم النجمة بأن نبدأ بكتابة رقم ثمانية، ثم نكمل النجمة، أما في هذه المدرسة فقد علموهن أن يرسمن النجمة بكتابة الرقم سبعة. كما أن معظمهن يسمين اللون الرمادي بالرصاصي، بخلافي أنا.

بدأت أعتاد الوضع، وكلما جمحت نفسي إلى الماضي، أذكرها أني لو كنت في مدرستي القديمة، لكان لزاما علي أن أتجرع روية سرمد العام ما بعد القادم ترفل باللون السماوي وقد صارت ضمن فريق المرشدات.

قرقيعان

أوصل محمد حصة ولولو اليوم، وغادر دون أن يشاركنا فرحة القرقيعان.
قال أنه لا يشعر أنه على ما يرام هذه الأيام.
يتكتلن ويتهازجن:
«قرقيعان وقرقيعان، بيت قصيّر ورميضان.
عادت عليكم صيام، كل سنة وكل عام.
يا الله سلم ولدهم، يا الله خله لأمه.
عسى البقعة ما تخمَّه، ولا توازي على أمه.
عطونا الله يعطيكم، بيت مكة يوديكم.
يا مكة يا المعمورة، أم السلاسل والذهب يا نورة.»

وفي حين يكتفي الصبيان والفتيان بما قل ودل وما جلَّ ولم يُمل،
فيرددون: «سلم ولدهم يا الله، خلّه لأمه يا الله»،
تظهر مقدرات الصبايا والفتيات اللغوية، والتخيلية، بل والجغرافية.

ملاحظة هامة جدا ليوم غد: الاتصال بأبي خالد (وزارة الصحة).

من مذكرات بابا جاسم، ١٠ إبريل، ١٩٩٠

كعمتي سلوى، يخزبل مشاري على موضي. قال لها اليوم بأنها إذا أرادت

الصيام، فعليها ألا تبلع ريقها أثناء النهار! وعدلت موضي عن فكرة الصيام، لأن اليوم يوم خاص وبهيج.

فرحتان معا! فرحة القرقيعان، وفرحة عودة عمي غازي من السفر بعد أن قضى سنة يدرس في الخارج في بعثة من جهة عمله لتحسين اللغة الإنكليزية.

من همسات الكبار، نعرف أن عمي غازي لا يحمل سوى الشهادة المتوسطة، فيهمس لي مشاري:

- لن أكمل دراستي. سأكتفي بالمتوسطة، ثم سأسافر لأدرس في الخارج مثل عمي غازي.

- لا يا غبي! يجب أن تذهب إلى الجامعة. صدقني، هذا أفضل.

- السفر أفضل.

- افعلْ مثل معن ومنهل، ادرس الجامعة في الخارج.

- ولماذا التعب؟ ماما سلوى تقول أن الشهادة قرطاس.

- وهل تريد أن تكون مثل عمتي سلوى التي تسمي «شامبو» «هد آند شولدرز» «هَدَر شيدَر»؟!

يقهقه مشاري قهقهته المعهودة والممزوجة بحرف الخاء.

- لن تحصل على وظيفة جيدة دون شهادة، هكذا يقول بابا جاسم.

يشرد قليلا، ثم يقول لي:

- بلى! سأصبح لاعب كرة قدم مشهور! وماذا ستصبحين أنتِ؟

لا بد من الحذر. لن أخبره أني أخطط لأكون باربية، يجب أن أموّه أمنياتي.

- سأصبح رسامة، أو دكتورة.

- ممتاز، ادرسي الرسم واعملي أبلة رسم. لكن، إياك أن تصبحي دكتورة.

- لماذا؟
- لن أتزوجك إذا أصبحتِ دكتورة!
- ومن قال لك أصلا أني سأقبل أن أتزوجك!
- بلى ستقبلين لأنك يتيمة!
لأنّ أبويّ مسافران صرتُ يتيمة؟! {وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ...}! كانت جدتي تقول له أني يتيمة كي تقلّم نزعاته الاضطهادية، كانت تقصد أني أكاد أن أكون يتيمة مثله بالضبط، فعليه مراعاتي. وها هو يترك اليتم لي وحدي!
ثم يتابع مشاري قائلا:
- عمي عبد اللطيف يقول المرأة إذا تعلمت كثيرا تتفلسف على الرجل.
- ماذا يعني؟
- يعني اعملي أبلة أفضل. رواتب الأبلات قوية، هكذا يقول عمي عبد اللطيف.
أهز رأسي بطريقة أُشعر فيها مشاري -عليه الإنجكشن- بامتناني للنصائح الثمينة التي ينثرها عليّ. منذ أن تركاني وسافرا، صرت أجمع الإهانات تحت السجّادة حتى شكّلت تلا. ألصق قطع الاثاث فوق السجادة الفاخرة، ويتحلق الناس معجبين بالتلة الفاخرة، أطوقها بسياج أزعم أنه لحماية المقتنيات الفاخرة، وما هو إلا لحماية نفسي. ماذا لو رفع أحدهم السجادة، ورأى آلامي المكدسة تحتها؟ آلامي التي نجحت في تحويلها لمَعْلَم سياحي جميل حتى كدت أنا نفسي أن أصدّق جماله.

* * * * *

يجمعنا عمي غازي خلفه (أنا ومشاري وموضي، والثقلاء أبناء عمي عبد اللطيف!) لنصلي معه ركعتين من صلاة التراويح، ثم يوزع علينا ما كنا

نسميه بـ«بيبسي أمريكيا» وهي «الكوكا كولا» التي كانت ممنوعة آنذاك بسبب المقاطعة. كنتُ ومشاري نسمي أمريكا «أمريكيا»، في حين تسميها موضي «أموريكا». كنا نضحك عليها ونستهزئ بها، دون أن نفطن إلى أننا «في [الجُرم] شرق»!

الصلاة مع عمي غازي كانت لذيذة، إذ غالبا ما كنا نُكافأ بعدها إما بوافر من الحلوى أو بمشروب سكريّ لذيذ. لم يكن يرشونا كما كانت عمتي سلوى تفعل. لم يقل لنا يوما «إذا ...»، لم يقل أنها مكافأة، كان يفعل ذلك بصمت احترافي.

لذِذُوا الصلاة في أعين وأفواه أطفالكم. «اضربوهم عليها لعشر»، لكن هل أمرتموهم عليها لسبع قبل أن تفعلوا ذلك كما أمركم رسولنا ونبينا صلوات ربي وسلامه عليه؟ وهل لذذتموها لهم وهم أبناء أربع أو خمس في عصر بات كل مهلك وموبق لذيذا؟ تلذيذ الخير للأطفال صار فرضا وواجبا يا جماعة، ولا تظنوا أن الطفل سيهتدي لوحده للحق والخير والجمال دونما ثواب وتشجيع. قدموها لهم بقفاز من حرير، لا بقفاز ملاكمة! إنها الخَمْس التي تعدل خمسين، ولهذا تقول أغنية الزفاف «يا مصلي الخمسين». رشوا السكر على الخَمْس، وسيأتيها صغاركم ولو حبوًا.

خاطرة موضوعة في ورقة منفصلة في مذكرة العام ١٩٧٥، وكتب بابا جاسم ملاحظة إلى جانبها:

تم إرسالها إلى مجلة * بتاريخ ١٩٧٥/٢/٢، ولم يصلني أي رد.**

وإلى جريدة * بتاريخ ١٩٧٥/٣/١٣ ولم يصلني أي رد.**

ورفضتها مجلة * بتاريخ ١٩٧٥/٤/٢٧ بدعوى اكتفاء الصفحة الدينية حاليا.**

العيد أفلَّ هلاله

إبريل، ١٩٩٠

لكل شيء أمارات، وأمارات العيد آنذاك هي سماع اسم المستشار أحمد البطي بوطيبان رحمه الله في بيان رؤية الهلال، ورؤية المعطف الأزرق الذي يرتديه محمود الكويتي صاحب الأغنية الشهيرة «العيد هل هلاله».

أحيانا، قد تتجاور النجاد والوهاد.

من مذكرات بابا جاسم، جملة مكتوبة على الغلاف الداخلي لمذكرة العام ١٩٩٠

لكن هذا العيد كانت مختلفا. صبيحته شَرِقَتْ بعويل مر. بعد أن كنا أعددنا العُدَد ورسمنا الخُطَط للعيد، هكذا بكل بساطة ترك البيت الجديد وسافر دونما حقيبة. لم أكن صغيرة وسادرة عن حقائق الحياة حتى يُقال لي «بابا مسافر»، ولم أكن واعية ورابطة الجأش والمراس لأتلقف الصدمة دون رضوض. هل كان مشاري ثاقب البصيرة يوم دعاني يتيمة؟!

كانت النسوة يتهامسن: كان مريضا بـ «الخبيث»، «المرض إياه»، الـ«كانسر»، «البعيد»، «الشين». و كلها كلمات لتجنب قولنا «سرطان». وهل إذا أسمينا الشيء بغير اسمه سيتركنا؟ نظن أننا بهذا نضلله عن طريقنا، وما نضلّل إلا أنفسنا.

«المرض الشين»، العبارة بحد ذاتها أكثر إخافة وبشاعة من قولنا سرطان!

سرطان كلمة توصيفية غير محمّلة بالمشاعر. سَرَطَان، من الفعل «سَرَط»

أي ابتلع. لكن كم منا يعلم هذه المعلومة؟ الاسم في الحقيقة كان ترجمة للكلمة الأجنبية، التي جاءت لأن أحد الأطباء الإغريق اختار هذا الاسم نظرا لشبهٍ تخيّله بين ورم كان يعاينه وبين سرطان البحر! سرطان كلمة جيدة، كلمة موضوعية، كلمة ليس لها إرث لغوي-عاطفي مثقل. في حين أن «الشين» كلمة شنيعة، كلمة ندعي أنها كلمة تمويهية تساعدنا على تجنب مواجهة ما نخاف منه، وإن هي فعلا إلا اعتراف وتعبير مفجع بمدى خوفنا منه. إنها كلمة معبأة بالفزع والإفصاح.

هذا تأويل رؤياي؛ البابان العظيمان هما والداي، والباب الذي انغلق إلى الأبد هو أبي. السن التي سقطت هي أبي، أما الدكتورة استقلال فقد كانت فعلا تحاول إرجاعه إلى مكانه، أو وضعه الصحي السليم!

من ثرثرات النسوة في العزاء عرفت القصة كاملة. الدكتورة استقلال هي التي كانت تسهّل له أمور علاجه في فترة كان يخفي فيها عن أمي أمر مرضه الأوَليّ –الذي استمر سنوات. لم يخبرها إلا حينما تردت حالته لاحقا واشتبه الأطباء بوجود ورم خبيث.

الظرف الأبيض إياه كان ظرف أشعة مختوم بختم الدكتورة، وتلك المكالمات كانت استشارات واستفسارات لم يكن يريد لأمي أن تعلم بها، وذلك الموعد الذي ذهب إليه بعد أن اشتري لي الزي التنكري كان لقاءا دبرته له الدكتورة للقاء استشاري زائر. وتلك الرحلة إلى ألمانيا للعلاج كانت بوساطة من الدكتورة استقلال التي سهلت له السفر للعلاج في الخارج، بل وسهلت إجراءات سفر أمي مرافقةً معه! وتلك الرحلة بعد سفرنا للبحرين، كانت للمراجعة الدورية.

كانت تتصدر مجلس العزاء كنجمة نقية عليّة عصيّة تمتدحها الألسنة رغم

بعدها. نجمة لا ينالها لسان السوء ولا تنال منها ظنوني الأثيمة. هذه التي أنعمت على أبي، فأنعمت عليها باللعائن والشكوك. كم كنتُ مريعة، وكم كانتْ هي رائعة. هي تتألق، وأنا أشعر بالذنب وأقلق.

فقاعتي المنيعة فُقِئت. يبدو أن التمثيليات -مثل الكبار- كاذبة، سفّاحة حقيقة، وسفاكة أمل. يا من زرعتِ الأشواك في ضميري، ويا من استأصلتِ رحيق حسن الظن من مجرى روحي، أتمنى أن ترتد «حوبتي» عليك، عليكِ عليكِ من الله ما تستحقين أيتها التمثيليات. أجل، عليكِ الـ«إنجكشن»! مهلا، يبدو أن عمتي كانت صادقة، التمثيليات فعلا تخرب مخ الصغار!

أبي هل تسامحني؟ بل عليك أن تسامحني، هل نسيت حينما كذبت {وفعلت فَعْلتك التي فعلت ...} وأنت من الكاذبين فوأدت الروض الموعود؟ ربما كنت أنتقم، لقد توعدت الكبار يومها وأنت من حزب الكبار، وقد طالك انتقامي البريء، انتقامي غير المخطط له، انتقامي اللاواعي. سامح عقلي الباطن يا أبي، سامحه فـ«كربون» الورق الذي يستخدمه في توثيق الأحداث حساس جدا، يطبع كل شيء، وأي شيء. وكيف يكون كربون الورق كربونا إذا لم يكن بهذه الحساسية؟

دنى، هل تسامحينني لأنني ارتحت أو ربما فرحت حين عرفت أنكم ستغادرون وأن العلاقة المزعومة بين أبي وأمك ستنتهي؟

«خالتي الدكتورة»، هل تسامحينني؟

الحياة الدنيا قصيرة، مثل تنورات سرمد، مثل أقلام سرمد. كانت سرمد تحرص في كل حصة على الاستئذان من المعلمة لتذهب إلى سلة المهملات لتبري قلمها، وتلقي نظرة تفحصيّة-تجسسية على الصف في الوقت ذاته.

وذات مرة، ... أعتذر، كنت أقول أن الحياة قصيرة جدا، لذلك كثيرا ما تنتعل

حذاءً بكعب عالٍ لتتجمل وتكذب في آن. تتزيا، تتزين، تتزيف. احذروا تدليسها عليكم!

* * * * *

تفاصيل ذلك اليوم تدعي أنها تلعب معي «اللبيدة»، ثم تهرب! أعلم أنها هناك في تلافيف دماغي تجلس وتتربع في بقعة ربداء عتماء، لكنها تأبى الظهور حين أبحث عنها، تأبى أن تلعب معي وفق القواعد المرعية. ثم -وحين أشعر أني تخلصت منها وأنه يمكنني أن أبدأ حياة جديدة- تظهر في وجهي عيانا بيانا، جهازا نهارا. أجل، إنها الذكرى الحَرُونة، قد ننسى شيئا منها هربا من الألم لكننا لا نبرأ منها. لم يتجرأ أي من جهابذة جراحة الأعصاب الذين درست على أيديهم أن يفكر في ترياق شافٍ من الذكرى، ترياق يسكِّن آلام النفس وينسيها ما كان.

أردت أن أهرب، أردت أن أعود إلى السائل الأمينوسي في بطن أمي أرتع وألعب ويأتيني رزقي رغدا، لكن صفوف نمل الحزن تهرول في نفسي.

أتذكر ثلّة من الوجوه لا معالم لها، ثلّة من الأيادي، بعضها تربِّت والأخرى تحتضن، وأتذكّر ثلة من الأفواه تلتهج وتتمتم بأشياء ما. حينما تحل الفواجع والمواجع، لماذا لا يتركنا الآخرون ننتحب بسلام؟ يثقلون علينا ويظنون أنهم يواسوننا! أرتال من الأسئلة كانت تنوس في رأسي، وتنوشني برماح منقوعة بمزيج غريب من الأسئلة المعتّقة والمرعوبة. «الناس بالناس، والكل بالله» كانت خالتي لطيفة تردد وكأنها تقرأ أفكاري! ثم تضعني في حجرها، وتغطيني بعباءتها لأغفو.

تعلّم أنفي في تلك الأيام مهارة جديدة، صار يقيس حرارة الدموع التي تمر على جانبه، ومنها صرت أعرف مدى تحسن حالة حزني وفقا لدرجة حرارة

أدمعي. أتذكر جيدا طعم الدمع المالح حين كان يهبط في فمي تارة، ويخط نسقه ويحفره على وجنتيّ ليستقر في أذني تارة أخرى حين كنت أستلقي على ظهري باكية. الملح مطهر رائع. مؤلم حين يمس جرحا، لكنه ضروري. يمسح ذاكره أفواهنا المنتحبة، ويغسل آذاننا من درن الأخبار المفجعة. لا يرد الدمع العزيز، لكنه يبتر سياط الألم ويقلّم أنياب الفجيعة. ولهذا قال الحبيب- صلوات ربي وسلامه عليه- «تدمع العين ويحزن القلب» مقدما الدمع على الحزن، فإن لم تدمع العينان كيف يحزن القلب حزنا حقيقيا؟ هل سمعتم عن أولئك الذين يموت لهم عزيز فيتجلدون ولا يبكون؟ أظنكم تعرفون أنهم كثيرا ما يلحقون بأحبتهم سريعا. الدموع مفتاح بوابة الحزن، ولولاه لقبع الحزن في أقفاصنا الصدرية يخرب ويدمر ويدمي حتى يقتل. شكرا وحمدا لك ربي على ملح العيون. ثم ألم يسمى القلب قلبا إلا لأنه نزّاع إلى الانقلاب والتقلب، فكيف نجبره على الثبات على حالة واحدة؟ كيف لا نسمح له أن ينعتق من رُهاب الحزن؟

إذا ما أتى يوم يفرّق بيننا *** بموتٍ فكن أنت الذي تتأخرُ

يقولون أن حاتم الطائي قال هذا البيت. و اعجبا! فما أبون هذا البيت عن الكرم.

لماذا نقول عبارات غارقة في الأنانية مثل «جعل يومي قبل يومك»، و«تقبرني»، و«يا بعدي»، ونظنها قمة الإيثار واللطافة؟ ما أرى القائل سوى شخص أناني لا يريد أن يتوجّع لموت من يحبه، فيكون الحل أن يموت هو أولا كي يريح نفسه من عذاب الفراق!

المحب شفوق، وكيف يستطيع المحب أن يتمنّى لحبيبه أن يبوء بوجد

الفقد وحده؟! أما إذا كان القصد أنه حبه لحبيبه أكبر من حب حبيبه له، فالأولى به أن يتمنى موت حبيبه أولا كي يدرأ عن الحبيب لوعة الفراق، وإن قلّت.

أسعدهم الله، أفلا قالوا: اللهم لا تفجع أحدنا بالآخر، اللهم اقبض أرواحنا في اللحظة ذاتها.

من مذكرات بابا جاسم، ١ مايو، ١٩٩٠

قلبي صار يعمل بثلاث حجيرات فقط. أما الرابعة، فقد تعطلت عن العمل وتحوّلت إلى مخزن للحزن يستودع فيها ذخيرته ومتاعه. من هذا المستودع تغرف الذكرى ما تريد، وقتما تشاء. لا أحد يستطيع أن يوقف الذكرى عن حدها، إنها تتصرف كقائدة لفرقة مافيا في جمهورية من «جمهوريات الموز»! الذكرى تقتات على النكبات، ومن ذا الذي يزعم أنه يمكنه أن يحتاط للنكبات؟! من يمكنه أن يحتاط للفقد، واليتم، والطلاق، والترمل، والخوف؟

يا لهؤلاء الأيتام الذين يتكاثرون حولي! بالأمس مشاري وموضي. واليوم معن، ومنهل، ولولو.

كم قاسيت يا نبي الله، بأبي أنت وأمي. فداك كل الأمهات والآباء.

من مذكرات بابا جاسم، ١ مايو، ١٩٩٠

* * * * *

أتجرع حياتي الجديدة، ولا أكاد أسيغها. أتجاهل طعمها وأنزع قابس الخوف من حائط روحي، ثم أمشي في مناكب الأمل. فلول السواد تندحر، الحزن يعسعس، والحياة تتنفس نفسا لذيذا جديدا. الأمل ترياق الألم.

(٥)

ريح السَّموم

استخارة

٢ أغسطس، ١٩٩٠

صبيحة الخميس، ذاك الخميس.

كان أنفها أحمرَ ومنتفخا، وعيناها كذلك. أعرف متى يكون ذلك بسبب الحساسية، ومتى يكون بسبب البكاء. أتمعن في شفتيها، فإذا كانتا منتفختين فهذا يعني أنها كانت تبكي. حان وقت حيلتي الشهيرة التي أقدّمها متى ما رأيتها متعكرة المزاج: «استعراض البيجاما». صدقوني الطريقة مجربة ويمكنها أن تضحك أقسى حجر على الأرض.

لا تحتاجون سوى إلى بنطال «بيجاما». ضعوا الجزء الذي تضعونه عادة على خصركم، على رأسكم واتركوا مكان الساقين متدليا على جانبي الرأس. هذه الخطة اسمها «خطة پلوتو». لا، ليس «پلوتو» الكوكب المطرود من المجموعة الشمسية -أعانه الله- بل «پلوتو» كلب ديزني ذو الأذنين المتهدلتين -أكرمكم الله-. ويمكنكم للإمعان في الإضحاك أن ترفعوا الأذنين إلى الأعلى وهذه «خطة الأرنب الجائع». أما «خطة الخوخة»، فتقضي تكون بأن تلفوا بقية البنطال على رأسكم ليبدو شكله مثل المنشفة الملفوفة على الرأس بعد الاستحمام. وحينها سيفقد الكبار صوابهم أمام هذه المحاولة الظريفة لتقليد الخارجة من الحمّام و«كل خد عليه خوخة». لكن احذروا، فقد ينقلب السحر على الساحر. قد يفرط الكبار في إعجابهم، فينتقلون من

التقريظ إلى تقريص خدودكم، وتقعون إذا بما يسمى بـ «معضلة النحلة»، ولا مفر منها ولا برء. كونوا حذرين ولا تستعملوا هذه الخطة لإضحاك الكبار إلا في الضرورات العظام.

هُرعت إلى خزانتي، ومنها إلى أمي. وللمرة الأولى في تاريخي الطفولي يفشل الاستعراض بكل خططه الممكنة. كانت عيناها جامدتين، رفعت طرف شفتيها للأعلى في محاولة رديئة لاصطناع ابتسامة، ثم مسحت على شعري. وعادت تحدق في الحائط.

«أرجوك أمّاه، قرّصي خدي وافركيهما حتى التخدر، أرسلي كل النحلات النهومات إليهما، لكن لا تكوني هكذا» هكذا صرخت في أغوار نفسي. ظل الوجوم مخيّما في مضارب جفنيها، وعلى أهدابها غصة. فسألتها:

- كنتِ تبكين؟ لماذا؟

- كلا.

- بلى، بلى، شفتاك حمراوان ومنتفختان. الكذب حرام!

وأخرجت لساني مازحة هازلة. هاه! ما ألطفني حين أتقمص دورها، وأدعي أنه يمكنني أن أعرف كل شيء حين أنظر في عينيها، وأن طبيب الولادة قد قطع الحبل السُري، لكن يداه لم تطالا الحبل السِري الذي بيننا.

«حسبي الله ونعم الوكيل». رفعت رأسها إلى الأعلى، وقالتها مباشرة إليه، بلا طلسم ولا طوطم. ثم غابت في غياهب الشَّدْه والشِّدَّة. أشغّل آلة أسئلتي الملحاحة المعنادة، فتنطق بها أخيرا؛ «غزو».

صمتُّ قليلا لأراجع معجمي الطفولي تنقيبا عن كلمة «غزو». للوهلة الأولى، لم أجد سوى الغبش. هل للكلمة علاقة بعمي غازي؟ تذكرت! مسلسل

جونگر اسمه الحقيقي «غزاة من الفضاء». أجل تذكرت! حين كنت ألعب مع أطفال العائلة في إحدى الجُمَع بمجموعة دمى «النمور الصاعقة»، اقترح أحد الصبيان أن «يغزو» بعض النمور بعضهم.

الغزو، هو ما تفعله النمور الصاعقة ببعضها. تذكرت أيضا! الغزو هو ما يفعله السوس:

«يا بختك عمي يا بختك، أسنانك يخشاها السوس.

لا يسكنها، يهرب منها.

ماذا تفعل حتى تسلم من **غزو** السوس؟»[٦٦]

غزو؟ لكن لماذا لم تُطلق صافرة الإنذار؟ أم أنها أُطلقت ولم أسمعها؟ لماذا لم توقظني أمي؟ أنا أحب سماع الصافرة كثيرا، وكنت أوصيها دائما أن توقظني في أوقات التشغيل التجريبي للصافرة لأستمع لها. ربما لا تعمل الصافرة يوم الخميس لأنه عطلة؟ لا، لا، السبب الحقيقي أن الصافرة لا تستطيع أن تنذرنا من جيراننا وأشقائنا، فهي مسكينة لم يخبرها أحد بأن الخديعة قد تأتي من الأقربين. هكذا حدّثتني نفسي. الصافرة لم تقصد أن تخذلني، ولا أمي.

شغّلت التلفاز وأنا أكاد أغص بأنفاسي، وأشرُق بريقي. تمنيّت حينها أن يكون لدي «إشعاع محوّل»، كذلك الذي حازته «رانزي» في إحدى الحلقات، أطلقه من عيني لأتحكم بقلوب البشر، وأَحُلَّ النزاعات، وأُحِلَّ السلام.

كانت الاتصالات الدولية مقطوعة في منطقتنا نتيجة تدمير مقسّم الهاتف، فلم نتمكن من الاتصال بمعن ومنهل. علمنا لاحقا أنهما حاولا الاتصال بنا فجرا إذ علما بالخبر من محطة أجنبية، لكن أمي كانت قد نزعت قابس

٦٦: مقطع من أغنية برنامج «أسنانك تلمع كاللولو» المذكورة آنفا.

الهاتف درءا للإزعاج في صباح يوم العطلة. كان معن ومنهل هنا لمدة شهر، ثم عادا لبريطانيا للتجهيز لأخذ سَنَة الامتياز (التدريب العملي) هنالك.
رنَّ الهاتف، عمي غازي على الخط. أخذت أتمسح بأمي كي تسمح لي بمحادثته، لكنها تجاهلتني تماما. كنت أريد أن أخبره أني تمكنت البارحة من الوصول إلى مرحلة متقدمة في لعبة «مغامرة البطريق»[٦٧].
لعمي غازي قلب من ثلج؛ البياض النَصوع من ناحية، والأعصاب الباردة من ناحية أخرى. كان بعض الكبار يضيقون ذرعا بهذا البرود، ويرون أنه نوع من اللامبالاة بالآخرين والتبلد أمام الأحداث الهامة. أما نحن معشر الصغار، فكان هذا الطبع الثلجي يعني أفقا واسعا من التسامح مع أخطائنا الطفولية. أي لا صراخ، ولا توبيخ، لذا كان الأثير لدى أطفال العائلة، والمذموم من كبارها. كنا نرى ما لا يرون.

اليوم استخدمت زوجتي تعبيرا أدبيا دون أن تقصد. كنا نتكلم عن غازي، فقالت أنه مثل الفطائر الناضجة بإفراط من الخارج، في حين أن داخلها ما يزال على حالته الأصلية، ولم تغيّره النار. تعبير مطبخي قليلا، لكنه أعجبني.
آه يا بني، كيف حرقت الدنيا جِلدك، ولم تحرق جَلَدك وروعة نفسك؟
علّمني لأتعلّم!

من مذكرات بابا جاسم، ٣٠ مايو، ١٩٧٥

أتذكر حين كان يجمعنا في سيارته «الكريسيدا» الصغيرة (كانت بيضاء

٦٧: مغامرة البطريق: «Penguin Adventure» لعبة حاسوبية راجت في الثمانينيّات.

هي الأخرى بالمناسبة)، ويأخذنا ليشتري لنا الحلوى والقرطاسية والألوان رغم ضيق ذات يده. ترى، هل يفعل ذلك فقط لأنه محروم من الذرية بعد زواجين ذابلين؟ هل لو كان له أبناء لعاملهم بهذه الأريحية حقا؟ لا، لا، تبا لهذه الأفكار، بياض قلب هذا الإنسان لا يصدق، يا لي من ناكرة للمعروف! عمي غازي، أرجوك سامحني، لم أقصد الإهانة يوم قدمت لي مشروبا «غازيًا» بعد الصلاة فقلت لك «انظر، اسمك مكتوب على القنينة يا عمي». رحلت يا عماه، ولم أعتذر إليك. أعلم أن قلبك اليَقِق لا يحمل الضغينة، لكني كنت أحب أن أعتذر.

لم يكن بياضه قط مدعاة ليكون ألعوبة أو مضْحَكة لأحد. فجانبه الأبيض لم يكن ليظهر إلا معنا نحن، أما مع الكبار فمُناخه سيبيري قارس البرودة وقارص التثلج، ورياحه شمالية عتيّة عصيّة. كان مثل جبل الجليد، هادئ وساكن، لكنّ أطرافه حادة وقاتلة. أظنه كان يحمي نفسه ويحمي مشاعره من التخدُّش. لكن على العموم، كان الجميع يراه قويا عند الشدائد، ربما أقوى من اللازم، إنه كتمان المشاعر الذي كان حريصا عليه مع الكبار. أظنه يوم الفاجعة كان أكثر من تماسك، لكني متأكدة أنه وفي داخله أكثر من تألم، فثلج قلبه لا يقوى على فيح الغبن ولا فحيحه.

* * * * *

«لا، لن نخرج.»
قالتها أمي بحدة وأخذت تتجادل مع عمي على الهاتف. لا أستطيع تذكر

مضمون الحديث لكنها كانت مكالمة مشدودة وكئيبة. لكن أتذكر أنها أوصت ورجت بأن يتصل أحد الخارجين بمعن ومنهل ويطمئنهما على الحال. أما أنا فأخذت ألوم نفسي. فقد تمنيت بداية الصيف أن يحدث زلزال أو كارثة كي نضطر للسفر. كنت أتوق كأي طفلة للسفر واللعب، لكن ما خطر ببالي أن الأمنيات حينما تتحقق تكون بهذا القبح والخوف. «أتراني أنا السبب؟ لو كنت صرّحت بالأمنيّة لما حدثت. تبا لقانون الطرد حين يكون لئيما. هل عليه أن يحقق كل شيء أكتمه في ضميري؟» أخذت أقضم أظافري متسائلة.

مضى اليوم الأول كما لو كان فِلْما سينمائيا، لا أتذكر سوى الكثير من المكالمات من مجموعة من الأقارب محاولين إقناعها بأن إجماع العائلة استقر على ضرورة إخراج النساء والأطفال في حين سيعود الرجال لاحقا. لكن قولها كان واحدا: «لسنا أقل شأنا منكم، إن كنتم ستبقون، فنحن أيضا باقون».

* * * * *

تزّملني أمي في فراشي، تبتهل، وتُصَبْتِل[٦٨]، فأسألها:

- سنسافر؟

وكنت أتمنى بكل الشوق الموجود في الكون أن تقول «لا». كان الشعور بالذنب جاثما على وجداني، ولا سبيل لتكفيره سوى فعل عكس ما تمنيت وعدم السفر.

٦٨: تُصَبْتِل: تصبُّ تلاوتها.

- لا أدري، سأصلي صلاة الاستخارة.
- ماذا يعني؟
- قبل أن نفعل شيئا، نصلي ركعتين وندعو الله أن ييسر لنا ما ننوي فعله إذا كان خيرا، أو يمنعه إذا كان شرا.
- والله؟ يعني إذا صليتها قبل الاختبار وكان صعبا، ستغيب المعلمة ويلغى الاختبار؟ الله! الله!

«وعضّت على العُنّاب بالبَرَدِ» لتخفي ضحكتها. أجمل أسنان في الدنيا هي أسنان أمي. أسنانك يا أمي تلمع كاللُّولُو، قلبك يا أمي أبيض كاللُّولُو، جبينك يا أمي صفحة معبّدة من اللُّولُو. دثرتني بقبلة على جبيني وخرجت. أخذت أفكر في صلاة الاستخارة وفوائدها الجمّة. كان يمكن لسنفورة استخدامها يوم قررت الزواج، بدلا من أن تترك سنفور قوي وسنفور شاطر يتعاركان وتنقسم القرية. كان يمكن لفلونة أن تصليها بدلا من أن تمسك بغصن وتقطف أوراقه قائلة «أذهب، لا أذهب» يوم هربت العنزة وكان والداها قد منعاها من الخروج من بيت الشجرة.

للمرة الأولى، تقمصت دورها. نهضت من فراشي وذهبت لأطمئن عليها، وأغطيها، وأعدل لها مخدتها، وأقرأ عليها آية الكرسي! رأيتها يا ربِّ على سجادتها، تتوسد غيمة رحمتك، وتدعو.

* * * * *

أتأمل سجارتها المدسوسة بين أصابعها القبيحة ذات الأظافر المقصوصة حتى اللحم، وعليها بقايا من طلاء أظافر أحمر. أتأمل وجهها المِرْبَاد حين أخذت تنفث دخان سجارتها في الهواء صوبي وهي تفتعل ابتسامة باردة، تزم فيها طرف منخريها إلى الأعلى.

أودعتني أمي عند وسن، التي كانت جارتنا في البيت القديم. «خالتي وسن» كما كان عليّ مناداتها جبرا وقسرا! ذهبت أمي إلى بيت أحد أقاربنا لإجراء اتصال مع معن ومنهل نظرا لانقطاع الاتصالات الخارجية في منطقتنا. كان بيت الأقارب بعيدا، والطريق مليئة بـ«نقاط السيطرة» فلم ترد اصطحابي معها.

سمعت وسن -عليها الإنجكشن- تهمس لناصر، ابنها الألثغ ذي الخمس سنوات:

نصّور، خذ الخنفروش[٦٩] وخبئه في الثلاجة. إذا رأته خيالوه ستأكل منه. ويرن معدنها الخسيس، يرن نشازا. أكره وجودي على أرضها المالحة الكالحة، فأتظاهر أني لم أسمعهما. تنزلق نفسي مني حين أتذكر «النُقَص»[٧٠] التي كانت أمي ترسلها معي إليهم. كيف تصادق أمي مخلوقة لئيمة كهذه؟ أمي لا تُعجب إلا بالنساء اللاتي يعززن من شعورها بالدونية، نساء أفضل تعليما منها مثل الدكتورة استقلال، أو أكثر بحبوحة منها مثل وسن.

٦٩: الخنفروش: نوع من الحلويات.

٧٠: نقص: مفردها نقْصَة، وهي طعام يرسله أهل بيت من طبخهم إلى آخرين من باب الود. ويقال «تنقصت» هذه الأكلة لكم، أي انتقصت من طبخنا لكم هذا القدر حبا فيكم وودا لكم. وتكثر «النقص» في شهر رمضان.

أمي تثرثر لجارتنا عن كل شيء يدور في حياتنا، وحين أكون بجوارها وتريد أن تغتابني مع هذه الوسن، فإنها تسميني «فلونة» (بدلا عن فلانة)!
ألعب مع نويصر قليلا، ألهّيه بالكلام، ثم أسأله عن اسم أمه. يمسح أنفه بطرف كمه ثم يجيب ببلاهة:
- وثن!

إن الشدة سواء -أكانت سفرا، أم ضائقة، أم حربا- أفضل جهاز للكشف عن معادن البشر. فهي تنضو القشرة الخارجية عن الإنسان، فنعلم أهو أصلي أم مزيّف.

من دفتر لبابا جاسم كتب على أول صفحة فيه: «مذكرات شريد»، ٤ أغسطس، ١٩٩٠

* * * * *

أستيقظ في اليوم الثالث على صوت «خالتي وثن»! لقد جاءت لزيارتنا وأحضرت معها منصورا ابنها الأكبر. أخذنا نلعب بالحاسوب معا. كنت أريد أن ألعب لعبة «مغامرة البطريق»، لكنّ منصورا نهرني وقال أن الوضع حرج وأن علينا أن نختار لعبة تلائم الوضع، واقترح «Galaga» وهي لعبة قتالية. ناكفته قليلا، ولجأنا إلى الـ«چب لو كِتِب»، أي تحكيم العملة المعدنية.
كثيرا ما كانت أمي ووسن تقترحان (مازحتين أو جادتين، لا أدري!) بأن عليهما تزويج منصور بي حينما أكبر. حين قالتا هذا الكلام لأول مرة،

سارعت أمي فور مغادرة وسن إلى تلقيني المبادئ الدستورية الثلاثة للفتاة «الشاطرة»: «الثقل صنعة»، «الركادة زَينة»، «العقل زِينة». لم يعنِ لي منصور شيئا. أبوه شديد الثراء، لكنه صبي جشع، كما أن شعره ناعم جدا مقارنة بشعري وهذا لا يشعرني بالارتياح. كنت متيّمة وقتها بـ«رامي» بطل مسلسل الرسوم المتحركة «سهم الفضاء». ترى، هل كان كلبا أم دبا، فتى أحلامي هذا؟! يبدو أن وسن تأخذ الأمر بجدية، ففي حفلة ميلادي الأخيرة اشترت لي مريلة وردية مع لعبة أدوات مطبخ. العربي يريد من امرأته ثلاثة أمور لا رابع لها: أن تتقن كنس الغبار، وأن لا تخطئ في معايير البهار، وأن تتكرّس للصغار، فبهم يتم التفاخر، والتكاثر، والتصاهر.

* * * * *

شهق منصور وتمدد بؤبؤ عينيه حين رأى الأشرطة المصفوفة. وبعد تفكير وجيز قال بهدوء مفتعل:

- لديكِ كل أجزاء «سندباد»؟!

- نعم، كانت لدي منذ أن كنّا في البيت القديم.

- يجب أن تتخلصي منها حالا!

- مستحيل! لماذا أتخلّص منها؟

- سندباد عراقي!

- غير صحيح!

- والله العظيم، ورب الكعبة. استمعي للأغنية: «سندباد لا يخاف، سندباد. مهما تكثر الأخطار ويبعد عن بغداد».

شردتُ لثوانٍ، ثم قلت فزعة:

- بغداد عاصمة العراق! «سندباد ما أقواه في كل البلاد. تاجر مندفع، بطل من

بغداد»!

- اسمعي، اسمعي، أعطيني الأشرطة لأتخلص لكِ منها. يوجد قرب بيتنا مكان نحرق فيه النفايات كل أسبوع لأنه لا يوجد عمال نظافة منذ الغزو، سأحرق لكِ الأشرطة هناك.

- كل أسبوع؟! لم يمضِ على الغزو إلا ثلاثة أيام! بل قل أنك تريد الأشرطة لنفسك!

- غير صحيح، أشرطتكم كبيرة، وأشرطتنا صغيرة.[٧١]

- أمك تقول أن عندها ڤيديو صغير في غرفتها. لن أحرق الأشرطة، سأسجل عليها أشياء أخرى.

- انظري، لسان الأمان منزوع من الأشرطة، لن تتمكني من التسجيل عليها.

- ألا تعرف؟ يمكنك التسجيل عليها بوضع شريط لاصق مكان لسان الأمان.

فبُهِتَ الذي طمع، وانكمش بؤبؤاه. عليه من الله الإنجكشن!

شغّلت شريط «جونگر». كان جزءا جديدا لم أشاهده من قبل اشترته لي أمي قبيل الغزو بأيام. أخذ يعارك وحشا شرسا جدا هذه المرة، يبدو أنها نهاية جونگر! لا يمكن هذا، لا يجوز، لا يمكن أن ينتصر المدمرون ذوو الأعين التي تشبه الـ«بيض عيون». أخبرت منصورا أنه من الواضح أن جونگر سيموت في هذه الحلقة. تجاهلني، وقال أنه شاهد المسلسل كاملا، لكنه لن يخبرني ماذا سيحدث لأني لئيمة! لا يهمني أبدا، المهم أني صرحت بما يعتمل

٧١: شاع في الثمانينيات نوعان من أجهزة الڤيديو وأشرطتها؛ نوع صغير، وآخر كبير لا يزال موجودا حتى اليوم.

في نفسي، وهذا يعني أنه لن يحدث! فكما أني كلما صرحت بأمانيّ وأحلامي فسدت، عليّ التصريح بمخاوفي وتهويل الأمور وعرضها على أكبر قدر ممكن من الناس حتى تفسد هي الأخرى ولا تحدث. هذا هو «قانون الطرد» لكن بالعكس، فلنسمه «قانون العكس». عجبا! ما أسهل اختراع القوانين.

قال لي منصور محاولا إغاظتي:

- في بيت عمي هوائيّ يلتقط بث أمريكا. شاهدت «سپورت بِلي» بالإنكليزية. لقد عرضوا حلقات لا تتوفر بالعربية.

أمعنت في تجاهله وظللت أحدّق في الشاشة، فأخذ يتصنّع رجولة مبكرة وقال لي:

- صرت أفرّش أسناني بمعجون بنكهة النعناع. يؤلم، لكني لا يهم أنا قوي!

ثم رفع ذراعيه إلى جانبيه محاولا استعراض عضلاته الضامرة. وحينما استيأس من أن أعيره اهتماما، أخذ يحاول أذيتي:

- الشهر الفائت «قوّينا»[٧٢] كل القطط في «قطعتنا».

استغبيت ورددت عليه ببرود ممزوج بالامتنان:

- يعني جعلتم القطط قوية؟ يعطيكم العافية!

أخذ يتمتم بنبرة عقابية، وبصوت هامس لكن مسموع:

- لن أتزوجك. سأتزوج سارة ابنة عمّك حين أكبر!

تسرب إلى أذني حديث أمي ووسن. كانت تقول لها أن العائلة ستخرج ظهر اليوم النساء والأطفال عن طريق تهريبهم عبر البر. حينها تدخلت وقلت بصوت عالٍ لهما:

٧٢: قوّينا/غوّينا: أصل القاف غين (وقلب الغين قافا والعكس شائع في اللهجة الكويتية). يغوّي القطط أي يصطادها ويلقي بها في مكان غويّ بعيد بحيث لا تعود إلى البيت.

- أجل، يجب ألا نسافر. يجب أن نبقى هنا.
وقضمت أظافري مجددا.

«غازي كان متطوعا في مخبز طوال هذه الفترة، ويقول أن مخزون الدقيق على وشك النفاد قالوا أنها الفرصة الوحيدة للخروج، فقد تسوء الأوضاع أكثر وقد تشدد الرقابة على الطرق الصحراوية. عقلي كان يخبرني أن علينا أن لا نخرج، هذه أرضنا، فلم الفرار؟ ولأحسم الأمر صليت الاستخارة، فصار قلبي أيضا يقول مع عقلي: «لا». الرحلة شاقة وخطرة، سيخرجون تهريبا عن طريق البر. الكويتيون الذين حاولوا الخروج عن طريق المنافذ المعتادة، عرّضوا أنفسهم للأسر أو القتل.» قالت أمي لوسن.

* * * * *

قبيل المغرب رن الهاتف، كان عمي غازي.
«هل الجميع بخير؟ أخبرني الحقيقة!» صرخت أمي.
التصقت بها وأمسكت بذيل ثوبها أشده لتخبرني ماذا يجري. حاولوا الخروج عن طريق البر، وتعثرت السيارة في الرمال العميقة. قاسوا الكثير لإخراجها، واضطروا في النهاية إلى العودة. لم يصب أحد بأذى، لكنهم كانوا مجهدين جدا.
في المساء زارنا عمي غازي وأحضر معه بعض المؤن وبراميل بلاستيكية لنخزّن الماء فيها. أجل، كما حزرتم، كان متماسكا، متماسكا أكثر من اللازم. لكني على يقين أنه كان أكثر من يتألم.

جلست إلى جانبه وأخذت ألعب بمسباحه ثم قلت له:
- عمي، اطلب من أمي أن تعلمك صلاة الاستخارة. سأصليها قبل كل اختبار وسأحصل على أفضل الدرجات! ولن أخبر «سرمدوه» بالأمر، ولا «يُمنوه»!

لم يفز إلا حصة، أراحت نفسها وبُنيَّتها مما عانيناه أمس. لم أكن مترددا، لهذا لم أستخر. ألا ليتني فعلت.

أخذت أنبش في الكتب، واكتشفت أن الاستخارة لا تُصلّى عند التردد كما كنت أظن، بل تصلّى بعد الوصول إلى اليقين، تصلّى بعد اتخاذ القرار!

جاء في الحديث « إذا همَّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك ...». إذا همّ، وليس إذا تردد!

ما بالنا حولناها إلى أداة للاقتراع نستخدمها حينما نحتار؟ أو إلى أداةٍ تريح عقولنا من التفكير، فنرمي بمهمة اتخاذ القرارات على الله، ثم ندعي أن هذا مراد الله؟

<u>باختصار:</u>

الاستخارة طلب الخير من الله وليس طلب الاختيار!

«مذكرات شريد»، ٥ أغسطس، ١٩٩٠

سبع شرائط في شعري

٩ أغسطس، ١٩٩٠

في صبيحة الخميس الثاني للغزو، أطعمتني أمي فطورا سخيّا، ألبستني دون أن ترد على أسئلتي عن المكان الذي سنذهب إليه، ثم فتحت علبة شرائط الشعر التي أهدتها لي وسن ذات يوم. كانت وسن تتوق إلى طفلة، فكانت تهبط عليها حالات نادرة من اللطافة فتهديني بعض الأشياء. قَدَري سعيد؟ مرزوقة؟ أجل، لكن قولوا ما شاء الله، فـ«العين حق»! وسن، سرمد، الذباب؛ «جناح داء وجناح دواء».

فتحت أمي العلبة، وكان فيها سبع شرائط بلون قوس قزح. جمعتْ شعري وربطته إلى أعلى رأسي، ثم وضعت الشرائط كلها واحدة تلو الأخرى!
«لا، ماما! هكذا لن يكون شعري على 'الموضة'، ضعي واحدة فقط.» تبرّمتُ بشدة.
أردت أن أزيلها، فقد كان منظري يثير السخرية. تجاهلتني أمي ثم أخذت أمي تضفّر شعري، تضفره بصمت وبعنف! التزمت السكوت، أنا التي أرفض أن يُفرض النظام على شعري الثائر. ذاك الحزم الذي كان يقطر من يديّ على رأسي أسكتتني. كان يمكنني أن أعترض وأطلب منها أن تتعلم كيف تعمل

ضفيرة فرنسية قبل أن تتجرأ على شعري، لكن رؤيتي لوجهها المكفهر عبر المرآة عقص لساني.

حين انتهت قالت لي:

- هيّا، ارتدي حذاءك بسرعة.

لمحت في الصالة حقيبة سفر صغيرة جدا، ومكتنزة حتى التخمة. وبجانبها مَطْرَة ماء كبيرة وكيس فيه بعض الأطعمة. ذهبت وارتديت حذائي الوردي، فهو يلائم ثيابي. لولا قوس قزح الساكن فوق قمة رأسي لتبخترت مثل الأميرات.

- لا، لا. ارتدي حذاء الرياضة الأسود. وكم مرّة قلت لكِ توقفي عن قضم أظافرك؟!

كنت سأجادلها لولا أني رأيت شيئا لم أفهمه في وجهها، فارتديت الحذاء المبغوض دون مراء. يا للكآبة، ماذا يحق لي أن أختار إذا حُرمت من اختيار تسريحة شعري التي أصافح بها وجوه الناس، أو حذائي الذي به أتجه وأمشي؟ أَعبوديةٌ من قمة رأسي إلى أخمص قدمي؟ كيف سأواجه المجتمع؟ كيف سأواجه تعليقات الفتيات السمجة حول ذوقي الرديء؟ فركت عيني وتثاءبت ونسيت الأمر حينما أدركت أني لم أنل كفايتي من النوم.

- إذا سألك أحد عن وجهتنا، إياك أن تقولي سوى إننا ذاهبون إلى السعودية لزيارة أقاربنا هناك يوميّ الخميس والجمعة وسنعود السبت.

قالت لي أمي هذا بحزم يقترب من التهديد. لم يكن مع كل شخص منّا إلا حقيبة واحدة، كي لا تثار الشبهات في حال أُوقفنا، بل يظهر الأمر على أنه زيارة عائلية فقط. في علبة المحارم الورقية المكنوزة في الحقيبة خبّأت أمي حُليّها الذهبية بعناية بين الوريقات الخفيفة. آه من الشدائد، آه منها حين

تجعل المرء يتصرف كما اللصوص والمهربين.
- حقا! لدينا أقارب في السعودية؟ هل لديهم أطفال؟
- المفروض.
- من عمري؟
- إن شاء الله.
- عاصمة السعودية الرياض، أليس كذلك؟
- شاطرة.
ردت عليّ ردا آليا منزوع الروح.
كنت أعرف عواصم معظم الدول العربية من اللعب بـُطيقة الوطن العربي على الحاسوب التي أخبرتكم عنها.
بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدانِ *** ومن نجد إلى يمنٍ إلى مصرَ فتطوانِ
كدت أترنم بالبيت على نغمة البُطيقة، لكن لم يرق لي الأمر هذه المرة، ولم أعرف وقتها لِم.
فأخذت أنشد:
«اهجم، اهجم، لا تلين.
نحن معك، معك أجمعين.
حطم الأشرار، ساند الأحرار.
جونگر، جونگر. البطل الجبار.»

غيرت رأيي، لا أريد أن أتزوج رامي حينما أكبر، سأتزوج جونگر!

"فلا حد يباعدنا * ولا دين يفرّقنا
لسان العرب يجمعنا * بغسانٍ وعدنانِ
لنا مدنية سلفت * سنحييها وإن دُثرت
ولو في وجهنا وقفت* دهاة الإنس والجانِ"
الشاعر فخري البارودي

هل كانت القومية العربية شيئا يحلّق على مستوى الدين أو حتى فوقه؟ يبدو أنها كانت كذلك. ألم يقل الشاعر مارون عبّود الذي سمّى ابنه محمدا:
أُمّه ما ولَدتْهُ مسلماً * أو مسيحياً ولكن عربي
تكتب المستشرقة الألمانية سيگرد هونكه كتابها الشهير «شمس **الله** تسطع على الغرب»، فنترجمه إلى «شمس **العرب** تسطع على الغرب»!
وتداعت القومية العربية من تلقاء نفسها دون الحاجة لتدخّل «دهاة الإنس والجان». كان التحليق فوق مستوى الدين سببا في تفتت جناحيها. الطموح الزائد مَهْلَكة!
الفراشة الجريئة، الفراشة الشُجاعة إلى حد التهور، الفراشة التي وقعت في غرام النور فأرادت أن تتماهى معه وأن تكونَه. لقد حرقت جناحيها بجرعة نورية زائدة. قالت العرب «أجهل من فراشة»، أسعدهم الله، أفلا قالوا: أجرأ من فراشة؟
عبدَ الناصر! إيهِ ناصر، حينما كان يخطب ناصر، ويهتف ناصر، كان يرجُّ المنابر، فتفيض المحاجر، وتصرخ الحناجر. فراشتك الصنديدة يا ناصر قضت، احترقت، انتحرت بالنور!

مذكرات بابا جاسم، ١٢ يونيو ١٩٩٣

جاء عمي عبد اللطيف يسوق سيارة من نوع «سبيربَن» (أو «سوبر بان» كما كنا نسميها). ما لونها؟ «أدعم» طبعا! كنت أتمنى أن يكون عمي غازي هو من سيصحبنا في الرحلة، لكن يبدو أنه نهار نكِد من أوله؛ شرائط رديئة، والحذاء الذي أكره، وعمي عبد اللطيف!

اسمها «سبيربَن» «Suburban» أو سيّارة الضاحية إذا ترجمناها، لكن الكل كان يسميها «سوبر بان». بل أن هناك من قال لي أن اسمها الصحيح هو «سوپر ڤان» وحوّرناه إلى «سوبر بان»، وتبين خطأ كليهما.

تحوير وتغيير أسماء السيارات سمة كويتية ولا فخر، فسيارة «رولس رويس» صارت «رز ريز»، و«ڤولكس ڤاگن» صارت «فولوكس»، و«بيوويك» صارت «بويك»، و«شيڤروليه» صارت «شفر»، و«پورشه» صارت «بورش»، و«ناينتي أيت» صارت «نايتي أيت».

لكن لهذه التحويرات طعم جميل، كنا نحب أن نحور ونغير كي تكون لما ننطق خصوصية، أما الآن فصرنا نتنافس في نطق الأسماء كنطق قومها لها، بل أشد تنطعا.

من مذكرات بابا جاسم، ١٩ يوليو، ١٩٩٤

كان لدى عمي عبد اللطيف الكثير من الأطفال؛ ثلاثة صبيان من زوجته الأولى، ومن الثانية اثنان من الصبيان وصبية. كان يفكر في الثالثة قائلا أنّ الشرع حلل له أربع زوجات. يقول هذا وهو لا يصلي! لذا –على ما يبدو– لم يكن لديه شيء من الحنان ليقدمه لي أو لمشاري أو موضي. كان يحاول أن يكون لطيفا، لكن غالبا ما يفلت لسانه زاجرا إيانا، ولسان حاله يلهج

بالشعار: «التعنيف تهذيب وإصلاح»! عمي غازي مختلف عنه تماما. ليتهما تبادلا الأسماء!

أخذت الشمس بالتوهج أكثر وأكثر. كان أبناء عمي عبد اللطيف الخمسة مكدسين في المقاعد الاحتياطية في الخلف أو على أرضية الجزء الخلفي من السيارة كما لو كانوا أمتعة مشحونة. في حين جلست زوجته الثانية بجانبي أنا وأمي، وجلست الأولى في الأمام. لم تكن الصحبة ممتعة، فأبناء عمي حزبان متشاكسان وغالبا ما تقوم بينهما حرب شطون بتحريض غير ظاهر من والدتيهما. لذا كنت أتجنب اللعب معهم جميعا، فلعبي مع طرف يعني محاباة له، ومعاداة للطرف الآخر. رغم ذلك، كنا يومها نتبادل النظرات ونبتسم لبعضنا بين الفينة والأخرى ونود لو نلعب ولو قليلا. لكن كلما أحدثنا صوتا، كان زجر عمي عبد اللطيف لنا بالمرصاد. كان عمي يقول دائما «الأبناء عزوة»، وكنت -لسنوات طوال- أظن أن معنى عزوة هي أن الأبناء يتلقّون «العزاء» حين يموت الشخص، ومن هنا جاءت كلمة «عزوة»!

كان عمي يعبّ السجائر عبّا ويملأ الجو بدخان يحرق العيون والصدور، فتعاتبه أمي:

- أبا سالم، السيارة مليئة بالأطفال!

- يا أم معن، لا أستطيع أن أركز في القيادة دون أن أدخّن. السجارة تدوزن مزاجي.

التدخين أفيون الفقراء. أما كان الأجدر بعمي أن يُتوفى لا أبي، خاصة وأن عمي لديه «عزوة»؟ تمطّى هذا التساؤل البريّ البريء في رأسي. طال أزيز السيارة على الإسفلت الساخن، وفجأة انحرف عمي بها تجاه الرمال. شهقت ملء رئتيّ، ونادت أمي في الموجودين:

- دعاء السفر يا جماعة.
- أمي، لم نأخذه في المدرسة بعد.
لقنتني أمي الدعاء. ماذا يعني «مقرنين»؟ وماذا يعني «وعثاء»؟ أردت أن أسأل. لا، بل الصمت أفضل. هذه الوجوه الواجمة لن تتقبّل أمواج الفضول التي تعتريني.
- ماما، ألم يقل لك الله في الاستخارة ألا نسافر؟
- صليت الاستخارة مرة أخرى.
تقفز ريشمي فجأة إلى فوهة تركيزي. آه يا ريشمي، تخرجين بسهولة عبر طريق السفر الاعتيادي في ثالث يوم للغزو، ونحن -أبناء الأرض- نفرّ عبر الصحراء خوفا من الأسر أو الموت؟ لا بد أنك صليتِ الاستخارة حتى تصلي إلى هذا القرار الموفّق.
طفقت الشمس تسفعنا وتصفعنا بأشعتها. أليس قوس قزح في شعري؟ ألا يفترض أن يسقط المطر وتغيب الشمس؟ هيا أيتها الشمس غيبي، غيبي، هيا افرنقعي وليهطل المطر، هيا ارحلي. لكن هيهات، فقد كنّا في آب اللهاب.

تذكرت المزيد مما دار أمس في ديوانية فيصل البارحة.
كنت أظن أن «شهر ثمانية» كما نسميه ليس له إلا اسمين هما «آب» السرياني و«أغسطس» اللاتيني. تفاجأت بأن الجزائريين يسمونه «أُوت» نقلا عن الفرنسية، والمغربيون يسمونه «غُشْت»، أما الليبيون فيسمونه «هانبيال».
ما أحرّ هذا الشهر، وما أكثر أسماءه!

من مذكرات بابا جاسم، ١٣ مايو، ١٩٧٧

كان المشهد مملا؛ لا شيء سوى الكثبان. الكثير من الرمال الناتئة في مكان قاحل لا ينبت الفيء فيه. أبحث عن نخلة مشاكسة تنبت في صلعة كثيب ما، فلا أجد. كنت أرى الكثبان المجّانة تنظر إلي بأنفة. يحق لها ذلك، فكل تموج فيها لا يشبه الآخر.

بالفرادة والندرة تكون الأشياء عزيزة وباهظة الثمن. ماذا يميز الصناعة اليدوية، أو الملابس الحصرية (Haute Couture) سوى أنّ أشباهها تندر؟ الاختلاف مَرْبَح.

كلما كثر الشيء -مهما كان فاخر الجمال- زهدت فيه النفس. ولهذا تقوم بعض الدول بمهرجانات لإتلاف جزء من محاصيل الطماطم والبرتقال كي لا يزيد عرضه في السوق وينخفض سعره. بئسَ التفكير، أما كان خيرا لهم لو تبرعوا به لبعض الدول الساغبة؟

من مذكرات بابا جاسم، ١٨ مايو، ١٩٩٢

تترجرج بنا «السوبر بان» كترجرج سفينة قبيل هلاكها في إعصار. كانت تئن من الحمولة البشرية، ومن الفرار من الرمل الزئبقي المتسجّر، ومن سجائر عمي، من «دوار الصحراء»! ما كانت سيارة لترى شيئا مثل هذا ولا في أسوأ كوابيسها، فالواقع كثيرا ما يكون أصعب وأكثر إفزاعا من الكوابيس.

اهتزت بنا السيارة هزّة عسيرة، وخرت واقفة مكانها. أخذ عمي يزمّر بنغمة غريبة بشكل متواصل (لمن يزمّر في هذه الصحراء الشاسعة؟! أم تراه يعبر عن غضبه بطريقة فنيّة موسيقية؟)، ثم خرج ليستطلع الأمر. فتحت النافذة وسألته:

- عمي، ماتت السيارة؟
- خيالوه! السيارات لا تموت، هذا اسمه «بنچر».

كنت أظن أن «بنچر» أو «بنشر» كلمة هندية. فاجأني منهل اليوم بقوله أنها كلمة إنكليزية (Puncture) معناها ثقب. وتحولت دلالة الكلمة لدينا من الثقب الذي يطال الإطار لتشمل أي عطل يصيب السيارة.

من مذكرات بابا جاسم، ١٠ يوليو، ١٩٨٨

«الجميع إلى خارج السيارة، هيّا بسرعة.» صاح عمي عبد اللطيف فينا، ثم أخذ يؤشر ويزمّر من بعيد لبقية السيارات التي كانت تسير خلفنا كي تتوقف. في الحقيقة، لم ألحظ ذلك من قبل وكنت أظن أننا خرجنا وحدنا. لكنّ الخروج تمّ على شكل قافلة تتقدّمها سيارة أحد الخبراء في الطرق الصحراوية، تليها سيارة عمي عبد اللطيف، وخلفنا أربع أو خمس سيارات فيها بقية أفراد الأسرة، لهذا لم نلتقِ أثناء الرحلة. كانت السيارات حريصة على ترك مسافة مناسبة بين بعضها، مسافة تكفيها للهروب في حال طرأ خطر، وتكفيها كي ترى بعضها البعض فلا تضل الطريق.

نزلنا، وأخذت أتأمل رمل الصحراء. كان غريبا، خلته أن يكون بجمال الرمل الذهبي الذي في الساعة الرملية التي لدي، خلته بجمال الرمل في مسلسل «مغامرات السندباد»، خلته جميلا وطيّعا مثل الصلصال يمكنني أن أبني به قصورا، لكنه لم يكن أيا من ذلك. كان وفيرا، وقاحلا، وينظر إليّ كما لو كان يريد أن يقول لي شيئا ما!

توقفت السيارات بعيدا نسبيا عن سيارتنا، وجاء بعض الرجال إلينا مشيا ومنهم عمي غازي. وافرحتاه! عمي غازي هنا؟ لماذا لم نذهب بسيارته إذا؟ طفقت أقفز وألوّح له بيديّ، وأخذت أقفز وأدور حول نفسي فرحا، ثم نسيت كل شيء حين رأيت حيالي «يربوعا»، وهو نوع من الفئران البرية. رأيته يقفز مثلي على الرمل الحافي، فأخذت أبحث عن طريقة أكسر بها رهبة اللقاء الأول. رششت عليه حفنة من الرمل فولى صاغرا، داغرا. لا، لا. لم أقصد إيذاءه، كنت أحاول عقد حديث مشترك معه عن طريق العنصر المشترك بيننا؛ الرمل. لكن عازتني الحيل، وهذا هو حال المحاورات والمفاوضات التي تمل اللغة المشتركة، لكن لا تحسن استعمالها، فيفشل الحوار، ويتضرر الضعفاء، وينتهي الأمر بمعادلة صِفرية.

أسرعت وأخذت كيس «بفك» من السيارة، وبدأت أفتش عن اليربوع كي أطعمه اعتذارًا عن سلوكي الفظ، فابتعدت قليلا عن الجمع. وجدت اليربوع الذي كان يرمقني بنظرات غريبة، ثم اتخذ سبيله في الرمال سَرَبا، فتبعته. فجأة، تراءى أمامي «بيت شَعَر» تجتمع فيه بعض النسوة يخضضن اللبن وينسجن «السدو». وما أن ارتدّ إليّ طرفي حتى وجدتني ألبس «دَرَّاعَة» و«بخنقا». عاجلني «كندري» يحمل الماء على منكبيه، وسألني إذا ما كنت عطشى. كنت كذلك، لكن هول المفاجأة أنساني كل شيء. هناك شيء يسحبني، خروف أقرن يمضغ طرف دراعتي ويبتسم! جاء «الشاوي»[٧٣]

٧٣: بيت شعر: خيمة. سدو: نسيج صوفي تقليدي. دَرّاعة: ثوب نسائي شائع في الخليج، وأصلها فصيح: دُرَّاعة. البخنق: غطاء رأس كانت تلبسه الفتيات الصغيرات. الكندري: بائع المياه. الشاوي: الراعي.

ونهره، وغادر مع قطيعه باتجاه صبية يتهازجون ويتباهجون:
«كَ جا شاوينا *** شاوي المطبةْ
صيّح على أمه *** يبي له رْطبّةْ»

ثم رأيت عبد الله يدفع عربته وحوله ملسون ونعمان وعبلة وقرقور وكعكي والضفدع كامل. آه، نعمان، صديقي العزيز السمين. رأيتني في «شارع عشرين»، في شارع افتح يا سمسم الذي كلما هل وطل على الشاشة انبطحنا على جنوبنا وسندنا خدودنا على أيدينا واجمين.
سرى من بعيد صوت يترنم. التفتت إليه، وإذا بها سفينة كبيرة، تمخر عباب الرمل، وهناك النوخذة في المقدمة يتبسم لي هو الآخر ويلوّح. النَّهّام وينشد «هولو يا مليه، هولو يا مليه». ثمة غِيص معلق بحبل طويل وقد زمّ منخريه بالفطَام، وربط رجله بحجر ثقيل ينبش في حبات الرمل وينتقى الحبات اللامعة والكبيرة. السِّيب يكاد يسحب الحبل ويصيح فيّ:
- مضت أربعة شهور، والقفّال اقترب. إنا راحلون من هنا ولن نرجع قبل شهور، هيّا تعالي معنا بسرعة! تعالي يا لولو، وشاهدي اللولو الذي جمعنا.(٧٤)
وتعالى الصوت:
«توب توب يا بحر، توب توب يا بحر.
أربعة والخامس شهر، جيبهم يا بحر.
ما تخاف من الله يا بحر؟»
لا، لن أقول {... سآوي إلى جبل يعصمني ...}، لأني الآن عرفت ماهية الكنز!

٧٤: النهام: مطرب السفينة. الغيص: الغوّاص. الفطام: مشبك لإغلاق الأنف أثناء الغوص. السيب: الموكول بسحب الحبل الذي يتدلى منه الغوّاص.

الرمل، الرمل! إنه رمل سحري، رمل ثمين، رمل الوطن. أردت أن ألثمه، أن أحتضنه. جثوت على ركبتي أجمع بعضا منه لأملأ جيبيّ بحبّات اللؤلؤ.
وفجأة عاد اليربوع يتقافز وكأنه غفر لي وصار مستعدا ليلعب معي. تراءت لي في الأفق نخلة خضراء كبيرة جدا، بل عملاقة. أردت أن أتوجه نحوها، لكن بدأت أشعر بوهن يسري في جسدي، وأخذت عيناي تتغبشّان من فرط قسوة الشمس.

- خيال، لماذا ذهبتِ بعيدا هكذا؟! لا توسخي ثيابك بالرمل، تعالي هنا بسرعة!
فعاجلتُ أمي بصوت مرهق:
- أمي انظري هناك إلى النخلة الخضراء. الله! ما أكبرها!
- يا إلهي! دبابة! يا جماعة، يوجد دبابة هنالك!

استنفر الكبار وماج بعضهم في بعض يقولون:
«إنها لا تتحرك، في الغالب خالية، لا تخافوا.»
«لا أعتقد أنهم سيكونون رأونا فالمسافة بعيدة.»
«من العبقري الذي قال أن هذه الطريق آمنة؟»
«من خاف سلم، قد يكون قربها دبابات أُخَر!»
وكان قرارهم النهائي أن لا وقت لإصلاح السيارة. كان علينا أن نتوزّع على السيارات الباقية وننسى أمر السيارة المتعطلة. عدونا أمتارا تحت الشمس الجاسئة، ولا أزال حتى اليوم أحس بحرارة الأرض في قدميّ. أظن أن هذا عقابي على رشي اليربوع بالرمل الساخن، إنها «الحوبة» مرّة أخرى. أعتذر

إليك أيها الكائن الضعيف، أعتذر.
وحدث ما كنت أتمنى، ركبت وأمي في سيارة عمي غازي. ألم أقل لكم أن قَدَري سعيد؟ قولوا ما شاء الله مرة أخرى، فـ«العين حق»! بالكاد استطاعت أمي الجلوس بين النسوة الموجودات، وأجلستني في حضنها. كنت طويلة وسمينة، وحملتني أمي {... وهنًا على وهن ...}. وكأن الألم الذي سببته لها يوم ولدتني لم يكفني وجئت الآن أؤودها بوزني. ألا يكفيني أنني قطّعت روحها إلى شظايا إلى أن وضعتني؟ ألا يكفيني أنني اضطررت الأطباء إلى بَقْر بطنها ليخرجوني؟ لماذا يلطفون الأمر ويسمونه الولادة القيصرية؟ اسمه الحقيقي يجب أن يكون «الولادة البَقْرية»! كيف زادتني حقن الدكتور تيسير حقدا عليه، في حين لم تزد الحقنُ، والمباضعُ، والغرزُ أمي إلا تحنانا وحبا؟ في الأمر سر إلهي، لا يمكن لأي مصنع بشري أن يُبدعه. هي الرابطة الوحيدة التي لا ترجو جزاء ولا شكورا، هي الحب الوحيد غير المشروط.
أمي،
قبعت في جوفك، ولم تطالبيني لا بأجر أو إيجار. احتللت حريتك، وكبّلت راحتك، واستعمرت حياتك ووقتك تسعة أشهر وما بعدها. لا أعرف أيضا كيف لم يدرجوا اسمي في منهج الاجتماعيات واحدةً من القوى الاستعمارية الغشوم.
أمي،
أمومتك وظيفة بدوام كامل، لا إجازات فيه، ولا استئذانات، ولا حتى تقاعد طبي. وظيفتك يا أمي عظيمة، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يجدوا لها مكانا في جدول المرتبات، أو يمنحوها «بدل خطر» أو «بدل مهنة شاقة».
لا أعرف كيف سقط كل هذا من حسابات الإكتواريين، لا أعرف كيف

سقطت الأمهات من الناتج القومي الإجمالي.

* * * * *

«لقد زاد الوزن على السيارة، سأضطر للقيادة بسرعة كبيرة لئلا تنغرس في الرمال، تمسكن جيدا.» قال عمي غازي بشيء من الصرامة. جلستي غير مريحة ورأسي يناهز سقف السيارة. الهواء ثقيل، ورئتاي تطلبان هواء طازجا، هواء مؤكسجا. لكني مع عمي غازي، ومن يهمه كل هذا وهو بين الأحباء؟ انطلق عمي بسرعة جنونية وكنت فرحة جدا، فالوضع يشبه «سيارات التصادم» في الملاهي حين تعترينا نشوة السرعة. أخذت أهز ساقي بهجةً، وأقول في نفسي «نهار مُسَنْفَر»! إلى أن ارتطم رأسي بالسقف نتيجة حركة السيارة العنيفة على الأرض غير المستوية، فأطلقت صرخة مدوية.
«اسكتي!» صاح عمي غازي غضبًا من التي قطعت عليه تركيزه. ما رأيته غاضبا قبل اليوم. قال «اسكتي» ثم غادر. كانت آخر كلمة وجهها لي، ثم استشهد بعد أقل من شهر من آخر لقاء لنا. ليتك تشبعني نهرا وزجرا ولكن تعود يا عمّاه. « اسكتي» صارت كلمة جميلة أحب أن أفتعل الجلبة أحيانا لأسمعها وأقارنها بتلك التي قالها عمي غازي. قبيحة العيشة بعدك ومالحة! الموت صعب علينا لا عليك. فأنت حين رحلت، صعدت هنالك إلى حيث الأرواح الخضراء. أنت هناك تنتظرنا، وتصلك بعض أخبارنا. أما نحن فنرزح في جهلنا ونظن أن الموت شاشة سوداء تمنعنا من التلاقي ولو بعد حين.
يجد التراب لنفسه مسارب خفية، فيُهرّب ذراته إلى داخل السيارة. طعمه

القسري، ورائحته القسرية، كلها تقرقش في جمجمتي حتى الآن. أخذ جهاز التكييف يتهافت من ازدحام الأنفاس والنفوس. ثم أخذت السيارة تئن مثل قرينتها لا لفرط ما على متنها من وزن، بل من قلوبنا الثقيلة، وأنفاسنا المثقلة، وزفراتنا الألمية. النفوس الثكلى ثقيلة، لا تحاولوا وزنها لئلا تصعقوا.
أخذت أتسلى بالابتسام ومحاولة التدلل على المرأة التي تجلس بجانب أمي. لم أكن أعرف من هي، بادلتني في البداية بعض الابتسامات، ثم تجاهلتني ويمّمت وجهها تجاه زجاج النافذة. ليس على المحزون حرج. ألم أقل لكم أنّ النفوس الثكلى ثقيلة؟ ثقيلة ومثقلة ولا تقوى على شيء، ثقيلة كعباءة صوفية هطل عليها المطر فزادها ثقلا على ثقل. بدأت أشعر بأن روحي تؤلمني، روحي مرضوضة، روحي أضحت زرقاء مشوبة بالبنفسجي. كدماتي تحتاج إلى كمّادة رحمانية مستعجلة. أخذت أزفر مثل الكبار وأقول «يا رب».

ما أجمل الكربة حين تكون سببا في القربى.

من مذكرات بابا جاسم، ٢٧، مارس، ١٩٨٩

حان وقت صلاة الظهر، ولا مجال للتوقف خوفا من أن تعلق السيارة في بحر الرمال. أخذت النسوة يلملمن شيئا من التراب المتسلل ليتيممن به، ثم صلين جالسات دون أن يعرفن اتجاه القبلة حتى. فعلت مثلهن.
الخوف مُتكَأْكِئ على صدورنا. ذاب ما لدينا من ثلج، واصطلى الماء حتى صار يظمِئ بدلا من أن يروي. بدأت العصافير تغرد وتزقزق وتغني وتصرخ ثم أخذت تنعق! عصافير بطوننا أخذت تنشد النشيد الوطني لجمهورية الجوع. أخذنا نأكل من بعض المؤن الجافة التي حملناها، خبز، بسكويت، «بفك»

(دون فلفل طبعا)، لكن العصافير لم تكن تطلب الطعام، كانت تنادي نيابة عن العروق تطلب الماء البارد. ألم يقل النبي صلوات ربي وسلامه عليه «ذهب الظمأ وابتلت العروق»؟ عروقنا كانت ترزح في العطش والقحل.

«فُرِجت، اقتربنا.» قال عمي غازي بنبرة بهيجة. وصلنا إلى الحدود مع المملكة العربية السعودية، وتحديدا إلى منفذ «رغوة» الحدودي. تلقفنا ضابط سعودي بوجه طلق ودلنا على الطريق، ثم زودنا بالماء البارد وبكيس فيه بعض مكعبات من الثلج وبعض العصير. يا أسفا! ظننت أنه سيزودنا بعبوات من الرغوة المضغوطة لنحتفل بسلامتنا، وإلا لماذا أسموها منطقة «رغوة»؟!

أكملنا طريقنا إلى أن وصلنا إلى منطقة مزدحمة فيها الكثير من الناس، وجمع من المراسلين المدججين بكاميرات الڤيديو. أخذ عمي جوازات سفرنا ونزل ليتم بعض الإجراءات. أوصته أمي أن يسأل عن أقرب هاتف دولي كي نتصل بمعن ومنهل. وحين خرج عمي قفزت إلى الأمام وجلست مكانه ألعب بالمقود. جاء مشاري وطرق على النافذة. فسألته:

- أين كنتم؟ لم أركم.

- كنا في «السوبر بان» الآخر، الفضي. خذي هذه، قطفتها من الصحراء من أجلك.

ناولني زهرة عظيمة، ثم انصرف. زهرةً قطفها من أصيص الزرع الموجود قرب أحد المكاتب! لا تثريب، يمكن للفتاة أن تتغاضى عن «كذبة زهرية» بين الفينة والأخرى. أثبت الزهرة في شعري مثل «فلونة». تناولني أمي ماء باردا مدججا بقطع الثلج لأشرب منه.

فجأة، أخذت أبتسم من خلف الزجاج وألوح للكاميرات وأقفز من المقعد، فأشارت مراسلة إحدى المحطات إلى المصور بأن يصورني. جاء «العنگريزي

بو تيلة»[٧٥] وصوّب كاميراه نحوي، فأخذت أقفز وألوح بيدي أكثر. أظن أن هذا ما تفعله نشوة الماء المثلّج بالإنسان، فحتى الماء بإمكانه في بعض الأحيان أن يُسكِر! وتبين لاحقا أنه مصور محطة الـ BBC الشهيرة.

كانت صدمتي كبيرة حين أحضر معن ومنهل لاحقا أشرطة كانوا سجلوها لكل ما يبث من تقارير، وكان من بين ما فيها تسجيل للتقرير الذي ظهرتُ فيه. كان شكلي سخيفا؛ وجه شديد الحمرة، ووجنتان متورمتان، وشعر منفوش وعليه سبع شرائط رديئة وغير مرتبة وزهرة منحولة، وألوّح للكاميرا مثل المجنونة! لكن لا يهم، فقد كنت جذلى ونشوى بالنجاة.

٧٥: عنگريزي: تطلق على الشخص الإنكليزي. وتستخدم أيضا في الهند Angrezi، وهي تطلق على الإنكليزي أو أي منتمٍ للعرق الأوربي. أما التيلة فهي القبعة. والتعبير ورد في أهزوجة قديمة ظهرت على الأرجح وقت الحماية البريطانية على الكويت تقول «عنقريزي بو تيلة، عساه يموت الليلة، وباكر ايجينا غيره»!

مقتطف مختطف (٤)

من كشكول لبابا جاسم عنوانه: «مسرحيات للصغار الكبار». لا يوجد تاريخ على أي من نصوصه.

جونگر

الشخصيات:

السيد هوشي

المفتش كانجي

المكان:

بيت السيد هوشي.

- أرجو أن تتمالك أعصابك يا سيد هوشي.
- لا أصدق! سأفقد صوابي. «جونگر» واجهة لتهريب الأكسجين والطاقة الحيوية الخضراء إلى دولة اليابال الصديقة؟!
- اللون الأزرق في جسد جونگر ما هو إلا أكسجين ممصوص. جونگر صنيعة يابالية، وليس من كوكب كانتاروس كما تظن أو كنا نظن.
- ولم عساهم يفعلون ذلك؟

- وفقا لتحقيقات الشركة الدولية العلمية، فإنّ جونگر والمدمِرين فكرة من أفكار اليابال لإلهاء اليابان عن التطور من ناحية، وللحصول على الأكسجين من ناحية أخرى وتخزينه بكميات استراتيجية في خزانات خارج مجرتنا. اليابال كما تعلم يا سيد هوشي دولة شبه جليدية تقع قرب القطب الجنوبي. مواردها محدودة جدا -إلا إذا حسبنا البطاريق والدببة القطبية!- لكنها دولة طموحة جدا. كلمة السر هي الطاقة الحيوية يا سيد هوشي، الأكسجين، الأرض الخضراء. هذا أعظم مورد يتنافسون عليه معنا. وكي لا يكون صراعهم مكشوفا، كان لا بد من اختراع عدو وهمي، عدو يبدو لنا مشتركا كي لا نلتفت لهم. وكان أيضا لا بد من اختراع صديق وهمي (جونگر) يدافع عنا ونعقد آمالنا عليه. فيتفرغون هم للنهب، ونفنى نحن في قتال المدمرين.

- أيها المفتش كانجي، هل تحقيقاتكم دقيقة؟

- سيد هوشي، لماذا لا يهجم المدمرون إلا على اليابان؟ ألم تفكر أن تسأل نفسك هذا السؤال؟

- ببساطة لأننا نملك جونگر.

- جونگر، الذي هو صنيعتهم. أليس المفروض أن يبتعدوا عنا إذا كان لدينا هذه القوة الرائعة الرادعة؟ أليس الأسلم والأنفع أن يهاجموا بقاعا أكثر خضرة وأوفر أكسجينا دون الدخول في معارك عبثية مع جونگر؟ نحن قوة صاعدة، وهذه الموارد في أيدينا خطرة جدا من وجهة نظرهم. كان لا بد من إلهائنا من ناحية، والاستيلاء على مواردنا. عصفوران بحجر واحد!

- قل لي أنني أحلم، قل لي أنه فلم. نظرية المؤامرة؟

- التاريخ حافل، حصان طروادة، و...

- مهلا! ابني كنتارو، لا بد أن أحذره من التعامل مع جونگر! كنتارو في خطر!

- بل كنتارو هو الخطر بعينه!

- ماذا تعني؟

- ...

- كانجي! تكلم!

- أرجو أن تجلس يا سيد هوشي وتهدأ.

- تكلم الآن وإلا ...!

- كنتارو منهم أيضا!

- ابني؟ ابني عميل؟! لا، لا بد أنه لا يعلم بأمر جونگر. أو لعلهم غسلوا دماغه، أو ... لا، ابني بطل، ابني رائع.

- كنتارو يا سيدي ليس ابنك، هو مثل جونگر، صنيعة اليابال. يصنعون لنا الأعداء، والأصدقاء، والحلفاء، حتى الأبطال من صناعتهم.

- أنت كاذب! لا بد أن المدمرين أثروا عليك بواسطة الإشعاع الأخضر!

- سيد هوشي، كنتارو طفل مبرمج بتقنية تتيح تحديد أفكار الجنين وهو لا يزال في بطن أمه.

- لا، لا! كنتارو ابني من لحمي ودمي. مايا، أين أنت يا مايا حتى تسمعي ما يقول المرجفون عن ابننا الحبيب.

- مايا؟ التي خدعتك وقالت أنها من كوكب كنتاروس؟ وأن جونگر مصنوع من المعدن الحي؟

- مايا، فلتتنعم روحك بسلام، في حين يدبّج هذا المعتوه عنك الأكاذيب!

- مايا تقضي وقتا ممتعا في اليابال، هي متقاعدة الآن. وقد أجرت عملية

تجميل لتغيير ملامحها.

- ماذا بقي يا كانجي؟ هل بقي شيء جميل يا كانجي لم تفسده عليّ؟

- سيد هوشي، لقد صنعوا لنا وهما كبيرا، وحلما بعيدا. حان الوقت لنتحرر، ولا يمكننا هذا دون مساعدتك.

- وما أدراكم؟ قد أكون أنا أيضا عميلا متخفيا؟! وتكون بهذا كشفت تحقيقاتكم لي مجانا!

يحدّق السيد هوشي في عيني المفتش كانجي، ويبث فيهما إشعاعا أخضر!

نبيل شميّل

سمعت طرقا خفيفا على باب الشقة. فتحت الباب بحذر، وإذا بها موضي.
- تعالي بسرعة، وجدت ثلجا.
- والله؟
- والله العظيم، ورب الكعبة الشريفة.
- أين؟
- في بيت عمي عبد اللطيف.
- أي واحد؟ شقة ٧ أم ١٠؟
- لا، شقة ١٢ في الدور الخامس.
- كذابة! كنت أعرف أنك تكذبين، الدور الخامس فارغ.
- لا، شقة ١٢ بيت عمي عبد اللطيف الجديد. أمي نورة قالت لي أنه سيتزوج واحدة ثالثة. أمس أحضروا الأثاث، فدخلت أنا ومشاري ووضعنا ماء في المِثْلَجَة.

أقمنا في بناية تبرّع أحد رجال الأعمال السعوديين بتقديمها للنازحين الكويتيين. مذ وصلنا إلى جدة، أصابني إدمان على الثلج، حتى أنني كوّنت هواية جديدة وهي قَرْش الثلج بأضراسي ليستحيل جُذاذا أبتلعه حتى يتقفّع بلعومي. هكذا كنت أكافح ذكرى الصحراء والشمس السطوع. علّمت

هوايتي الجديدة لكل من موضي ومشاري. لكن حينما علمت أمي وعمتي سلوى بالأمر، منعتا الثلج عنّا.

تسللت وموضي إلى الدور الخامس، وإذا بمشاري يقرش مكعبات الثلج العنيدة ويطالع مجلة «باسم» بعد أن افترش سجادة الصالة الجديدة.
أحضرت موضي المزيد من المكعبات من الطبخ، وجلسنا نأكلها كما لو كانت قطعا من الحلوى العزيزة.
مشاري: حينما تأتي عروس عمي إلى هنا، لن يمكننا أن نأكل الثلج.
موضي: ربما تكون لطيفة وتسمح لنا بذلك.
أنا: من هي عروسه؟ كويتية أم سعودية؟
أطلق مشاري ضحكته المعهودة، ثم قال لي بتسلط مَن يقتني معلومات خطيرة:
- ألا تدرين؟ سيتزوج لولوة، بنت سكّان شقة ٣.
أنا: والله؟ أليست صغيرة؟
مشاري: لا، هي في الثانوية.
موضي: جدتي تقول أنها سيخرجها من المدرسة.
أنا: الله، ستلعب معنا! أنا رأيتها ذات مرة، تبدو طيّبة.
موضي: إذا عرف عمي أنها تسمح لنا بأكل الثلج، سيطلقها. حرام!

يتفاخر عبد اللطيف بأنّ زوجتيه هما من خطبتا عروسه الثالثة له، وبمنتهى التسليم والرضا.
أجل، خطبتاها حفاظا على معيلهما الوحيد، ولقمة عيشهما وهما اللتان

بالكاد يمكنها القراءة، وبالكاد تحسنان شيئا غير الطبخ والإنجاب.
خطبتاها حفاظا على ماء وجهيهما في مجتمع يرى حصول المرأة على الطلاق جريمة مخلة بالشرف والأمانة. تبا، ابني المحتال هذا يعرف أي نوع من النساء يختار!

«مذكرات شريد»، ١٢ ديسمبر، ١٩٩٠

أنا: لا بد أن نجد حلا.

مشاري: أنا أقول أن نأخذ جزءا من إغاثتنا، ونشتري مِثْلَجَة صغيرة نضعها فوق السطح.

أنا: إغاثة؟!

مشاري: ألا تدرين؟ السفارة تعطي كل كويتي راتب إغاثة. المفروض أن يعطونا الرواتب لنا وليس لأهالينا. طبعا أنتِ لا تعرفين هذه المعلومة.

وضحك مشاري ضحكته المعمورة بحرف الخاء، فعاجلته بضحكة مشابهة ثم لكمته بقولي:

- اسمها إعانة وليس إغاثة!

صعق مشاري بمعرفتي الكلمة الصحيحة، لكنه كابر:

- قلت لكِ اسمها إغاثة! الإعانة تعني «العانية» التي تقدم في العرس!

تدخلت موضي لتخفف من الاحتداد بيننا، ولتجد لها موطئ قدم في النقاش:

- مشيري، اسمها إعاشة.

غضب مشاري من التفوق الأنثوي عليه، فضرب موضي بقوة على وجهها بالمجلة. فمجّت المسكينة قطعة الثلج من فمها، ومعها سنها اللبنية التي

كانت تتقلقل منذ أيام، وشيئا من الدماء على السجادة البيضاء الجديدة. ثم أخذت تنتحب.

حاولت أن أسكتها، في حين أخذ مشاري يحاول تشتيت الانتباه عن ذنبه باتهام موضي بأنها وسخت السجادة، وبأنها ستكون السبب في حرماننا من أكل الثلج هنا كل يوم.

لم يقطع جدالنا إلا صوت باب الشقة يُفتح. عمي عبد اللطيف هنا ومعه أحد العمال. وا مصيبتاه! نزع عمي عقاله، وطفق يلاحقنا به. صعدت فوق الأريكة وقفزت من الناحية الأخرى، وتبعتني موضي. أما مشاري فقد وقع في قبضة عمي، وناله سوط عقاله! «حوبة» موضي!

فررت وموضي إلى فناء البناية، واختبأنا خلف سياج من الأشجار. آه، ليت «نبيل شميّل» يظهر الآن، ويدافع عني. لا، مهلا، شعري بدأ يتموج من الرطوبة في الخارج. اللحظة ليست مناسبة لملاقاة «نبيل شميّل» الآن.

جدّة، فيها من رطوبة البحرين. أحببتها كلتيهما حتى أني صرت أتشوّف الرطوبة وأتشوق إليها. إنّه الحب. الحب حين يأتي تصير صفات المحبوب – وإن قبحت- هي المعيار.

يعيبونها عندي [برطوب جوها] *** فقلت لهم هذا الذي زانها عندي[٧٦]

وعن الرطوبة، تقول الأهزوجة القديمة:

«اليوم هدّة، ليش إن كوس هدونا.

رحنا المدارس، وعند الباب ردونا.

يا الكوس هوّب، ما نبيك الليلة.

نبي الشميّل، والهبوب الزينة.»

٧٦: مع الاعتذار لابن حزم!

عندما كنت صغيرة لم أكن أعرف أن «الشميّل» هو تصغير لرياح الشمال الباردة، بل خدعتني أذناي وظننت أن «نبي الشميّل» هي «نبيل شميّل» وهو رجل لطيف نبيل له من الشمائل الحسنة ما له ولذلك أسموه بهذا الاسم وألّفوا أهزوجة عنه! وظل «نبيل شميّل» خيالا طفوليا أو سوء سمع للأغنية. لكنه ظهر ذات يوم في جدّة! ظهر بشحمه ولحمه.

قبل أن ننتقل للسكن في البناية، أقمنا في فندق لبعض الوقت. وقفت ذات مرّة أمام لعبة ڤيديو تعمل بالعملات المعدنية في صالة الألعاب بجانب المطعم. أمسكت يسراي مقبضها، وأخذت أحرّكه وأدّعي أني ألعب. كنت أكذب على نفسي وأقول حتى لو كان لدي المال، لن ألعب بهذه اللعبة الغبية. لماذا وضعوا المقبض إلى أقصى اليمين؟ كيف ألعب به بارتياح أنا العسراء دون أن تؤلمني رقبتي؟

لمحت رجلا يتهامس مع نادل في الفندق، شعرت بأنهما يراقبانني. توجست خيفة وظننت أنهما يخططان لاختطافي خاصة أنه لم يكن هناك غيري في صالة الألعاب. أصخت السمع وإذا بالنادل يقول له أني كويتية فتوجست أكثر. لكن ذهب بعض نفسي حين سمعته يطلب من النادل أن يفك له العملة الورقية إلى معدنية.

لا أعرف كيف فهمت ما يرمي إليه. كنت أنا ونبيل شميّل نتواصل معا بلغة غير منطوقة. يخبرني ماذا ينوي أن يفعل، ويترك لي اختيار الطريقة المثلى لتلقي ذلك دون إهانة. أدعي أني منشغلة باللعب، يقترب ويضع العملة في يمناي ويغلق راحتي بشدة، أتعمّد أن أستغبي وألتفت إلى الناحية اليسرى كي لا أراه وكي أمنحه الفرصة ليذهب دون أن أراه. هذا رجل تصدّق بيمينه، فوقعت في يميني، ووقعت في يد الله قبل ذلك كما كانت السيدة عائشة

-رضي الله عنها- تقول.
شكرا لك يا «نبيل شميّل» المجهول. نوّر الله دربك أينما ذهبت. لقد غيرت رأيي، لا أريد أن أتزوج رامي حينما أكبر، ولا جونكر، سأتزوج نبيل شميل هذا، نبيل شميل الذي لا أعرف اسمه الحقيقي ولا شكله، لكني أعرف أن أرواحنا تتواصل وتهذر وتمرح.
وبخلاف نبيل شميّل، إليكم قائمة بأمور كنت أظنها شيئا وتبدّى أنها أشياء أُخَر! فعبارة «ما يخالف» والتي تُنطق اختصارا «مَيْخالف» كنت أظن أنها أصلا اسم فتاة تدعى «مَيْ خالف»، وكانت فتاة طيبة، فصار اسمها يقال لكل من أراد أن يسمح لشخص بفعل شيء! أما المدبلج وِلْيَم عتيق الذي يتصدر اسمه كثيرا من مسلسلات الرسوم التي أتابعها، فكنت أدعوه «وَلِيم» على وزن فعيل، وكنت أظن أنه سمي بذلك لمحبته للولائم! حتى الأغاني لم تسلم من تخرّصاتي اللغوية، فالأغنية القائلة «طبعك حلو، واتحالى فيه» كنت أظنها «وتَحَالفي» وهو فعل أمر للمؤنث من الفعل تحالف! أي أنه المطرب يقول لها أن طبعها حلو، ويسألها التحالف معه! أما المثل الشائع «الذيب ما يهرول عبث» فظننته لسنوات طوال «الذيب مَيْهر والعبث» وميهر هذه مشقة من المهارة، إي أن الذئب ماهر مهّار مكّار، شأنه شأن العبث الذي يتسم بالمهارة هو الآخر، ولا تسألوني كيف!

موضي مصرة أن جميع الأسنان هي ضروس، وأن جميع الزهور هي ورود. الفصحى تفصل، والعامية تعمم وتُعمي. آهٍ من العاميّة العامِية!

من مذكرات بابا جاسم، ١١ فبراير، ١٩٨٩

* * * * *

شكوت إلى جدتي توقي إلى حاسوبي وألعابه.

- يمّه نورة. أريد حاسوبي! أريد أن ألعب لعبة «القلعة».

- «لي سلم العود، الحال مردُود.»

ثم لوّحت لي قائلة:

- تعالي اشربي «چـْويهة».[٧٧]

حينما يريد أحدهم تعظيم شيء، استخدم له صيغ المبالغة. وإذا أراد تحقير شيء صغّره. إلا أهل الكويت إذا أحبوا شيئا أو أرادوا تعظيمه دلّلوه بتصغيره! وهل هناك شيء أدل من ذلك مثل كون اسم بلادنا الكويت جاء تصغيرا لكلمة الكوت؟ وأن الاسم الأقدم كان القرين، وهو تصغير القرن؟ هذا تصغير الإجلال، تصغير المحبة والتدليل.

ألا نقول «يا دهينة لا تنكتين» كناية عن شدة العناية والمحبة؟ ألا تغني الفتيات «يا قميرة الدودو»؟

هذا تالله تصغير الإكبار، لا تصغير الاحتقار.

أميمتي، يديدة، امّيهة، حْليبة، خْبيزة، تفيفيحة، شْويّب.[٧٨]

الفنيطيس، الشويخ، بنيدر، الفحيحيل، الصليبيخات، النويصيب.[٧٩]

من مذكرات بابا جاسم٢٢ يوليو، ١٩٨٩

٧٧: چويهة: تصغير چاي، أي شاي.

٧٨: تصغير كل من: أمي، جدّة، حليب، خبزة، تفاحة، شايب.

٧٩: أسماء لمناطق في الكويت وهي تصغير لكل من: الفنطاس (خزّان الماء)، الشيخ، بندر، الفحل (ذكر النخل)، الصلبوخ (الحصى)، النصيب.

ظللت أحلم بحاسوبي المفقود. خمّرت الحلم أياما وأسابيع، وها هو ينتفش حتى كاد أن يُسقِط طبق الواقع الذي غطيته به. استعمر الحلم مناماتي، ثم صار يرافقني في يقظتي. أغمضت عيني في يوم، وأخذت أتخيل نفسي أحرك يديّ على لوحة الأزرار. حينما عرض مسلسل الرسوم المتحركة «نساء صغيرات»، هزّني ما رأيت. افتقدت «بيث» البيانو أثناء الحرب الأهلية، فأخذت تحرك أصابعها تستحضره وتستحضر أيامه. الحرمان صاقل ماهر، يوحّد البشر، ويظهر كيف أن نوازعهم واحدة.

للنعم مقدرة أوسكارية عجيبة على التظاهر بالخلود! «اخشوشنوا فإنّ النعم لا تدوم»، وهل من نعمة أعظم من نعمة الوطن؟ نعمة «الأمن في السرب» كما جاء في الحديث الشريف.

هذه اللأواء شحذتنا، صقلت مكنونات أنفسنا، وحسّنت ذاكرتنا تجاه نعم الله.

«مذكرات شريد»، ٧ نوفمبر، ١٩٩٠

وخز أليف

وصلت إلى مدرستي الجديدة متأخرة بضعة أيام بسبب بعض الأوراق التي كان من الواجب استكمالها، وكان عمي مشغولا بأمر التجهيز لزواجه.
أدخلتني إحدى المشرفات، وقد كان وقت الحصة الثانية. رحبت بي المعلمة وأفادت للطالبات أني كويتية وأن عليهم حسن الوفادة، وكان أول تجلياتها هو أني -ورغم طولي- خطيت بمقعد في الصف الثاني تنازلت عنه إحدى الطالبات لي. ألن تقولوا ما شاء الله؟
لكن ثمة أمر مزعج، كنت أشعر طوال الحصة أن هناك من يراقبني! هل تعرفون هذا الإحساس الواخز، الإحساس بأن عينين في مكان ما خلفك تتابعانك وتتبعانك؟ من باب التهذيب و«الشطارة» لم أتمكن من الالتفات لأعرف من يرقبني هكذا. أتراها طالبة حاقدة تتمنى أن تحظى بالمقعد الذي حظيت به؟
وحين رنّ الجرس بالفرج، لويت رقبتي أبحث عن مصدر هذا الإشعاع المزعج الذي ظل يخزني طوال الحصة. لكني لم أستبين مصدره. غمست يدي في حقيبتي استخرج دفاتري، وإذا بيد تنقر على كتفي. لويت رقبتي مجددا لأرى من الطارقة، وإذا بي أرى أمرا عجبا! لا، لا، لا! لا يعقل! يبدو أن تلك العين التي تراقبني عين شريرة أدت إلى إصابتي بمرض في عيني فصرت أتخيل وأهلوس. لكن هل يعقل أن تكون شريرة بحيث تؤثر على سمعي

أيضا؟!
«لولو. هل تتذكرينني؟» سألتني الفتاة.
ويغمرني الطيف الأليف! إنها هي، هي هي. وبضفيرة فرنسية كالتي كانت تنساب يوم رأيتها في الروضة. إنها «دُنى، صديقة طفولتي! لا، لا أصدق. اقرصيني يا دنى كي أصدق، بل لدي اقتراح أفضل، شدي شعري كي نتعادل. نفضتُ الدهشة وتعانقنا وبكينا.

يقولون «يا محاسن المصادفات»، ولا أدري من اخترع التعبير الرقيع هذا، قولوا يا رعاكم الله يا محاسن الأقدار، فـ{إنّا كلَّ شيء خلقناه بقَدَر}.

من مذكرات بابا جاسم، ٢ يناير، ١٩٧٩

* * * * *

تهللت أمي فرحا، أمي المأخوذة بالدكتورة استقلال. زارتها في المستشفى الذي تعمل فيه لتطلب منها إيجاد وساطة لمعن ومنهل كي يؤديا «سنة الامتياز» في السعودية. عجيبة هذه المرأة، شعلة روحها لا تنطفئ فتصر على العمل. كان بإمكانها أن تحصل على راتبها باعتبارها زوجه دبلوماسي ترافقه في أثناء وظيفته، لكنها أبت ذلك. منذ الغزو، تطوعت أيضا لصالح قضية الكويت، تترجم المقالات والمنشورات إلى الإنكليزية.
تعسًا لي، لماذا كنت أكره هذه المرأة الرائعة؟ ألأني أجرمت بحق ابنتها، فتوقعت انتقاما مستحقا وصرت أهابها وعقابها الإنجكشني؟ ألأنّها تملك أخوف ما أخافه: الحقن؟ ألأنّها تشبه باربي إلى حد بعيد شكلا وتتفوق

عليها مضمونا وتشعرني بغباء اختياراتي؟ ألأنّها تحطم مُثلي العليا وقدواتي المستقبلية؟ ألأني أغار منها جدا؟

هذه المرأة تضعني في فرن «مايكرويف» وتُنضجني بالسرعة القصوى. تجعلني أصبو أن أرى نفسي يوما ما امرأة تناددها، وهذا تالله حلم مرهق جدا. فهذه امرأة تكسر السقف الزجاجي، وترفع السقف عاليا جدا، ترفعه إلى حد إلغائه. هي منهج دراسي صعب جدا، وأسئلة غير متوقعة، ومن الطبيعي أن يكره الكسالى هكذا مناهج. ومن الطبيعي جدا أن يكره «الشطار» الذين نمذجهم المجتمع ونمّطهم منهجا ثوريا كهذا.

كلما عرفتك أكثر يا دكتورة استقلال، كلما شيطنتُكِ أكثر. حينما أحولك إلى مخلوق شرير أرفع الحرج عن نفسي، وعن صغاري، وقلة حيلتي، وعدم تمكني أن أكون بروعتك. أن أكون باربي سهل جدا، فما عليّ إلا أن أكون بلهاء جميلة. لكن أن أكونك، فأمر لا قِبَل لي به. لذا كوني رجيمة وخائنة و«خطّافة رجال» و«خرّابة بيوت»، هكذا لن أحتاج إلى عقد مفاضلة بيني وبينك حينما أكبر، هكذا أكون خيرا منك، هكذا لن يجرؤ أحد على المقارنة بيننا في المستقبل. لكن حينما أؤنسِنُكِ تكونين ممكنة الاتباع وترفعين عليّ الحجج، كما ترفع الطالبة الفذّة الحجة على كسولات صفّها. حينها تتحول إلى أداة تعيّر بها المعلمة إياهم، فتتحول إلى كائن مبغوض، يتصيّدن زلاته.

كم كنت ظالمة يوم ظننت بك الظنون، ظالمة لنفسي. أنا المِذنَابة، وسأستغفر لذنبي بأن أجعلك مثلي الأعلى، سأكونك عندما أكبر رغم السهام التي سوف تطالني. هكذا المرأة اللامعة، مهبط للنبال والنصال والحبال، هكذا حال أي امرأة عظيمة تصر أن تنجح أسريا ومهنيا، امرأة تحطم

افتراضاتهم، وأسوارهم، وتوقعاتهم المجدبة. امرأة تقول للمجتمع «أنت مخطئ»، لا بد أن تُعاقب! تُعاقب المرأة المجالدة في البداية، ثم تدخل التاريخ رغم أنوفهم! صدقت «لوريل ألريك» حين قالت «النساء المهذبات نادرا ما يصنعن التاريخ». المهذبات المطيعات، عضوات القطيع الرسمي لا يدخلن التاريخ ولا يصنعنه، قد يزركشن حواشيه بالـ«دانتيل» في أحسن الأحوال. يفعلن ذلك وهن قابعات في «مكان مخصص للنساء». هناك، في المكان الذي يعاد إنتاجه وتديروه على مر الزمن؛ الحرملك، الحَجْر النسوي، الحظيرة الفخمة، حيث ترتع المرأة وتلعب شريطة أن تكون حسناء خرساء. تثرثر النسوة في الحرملك الحربائي الذي يتغير مع كل عصر. يثرثرن ويهذرن، لكنهن صامتات خرساوات عن الإنجاز!

يقول الفرنسيون «Sois belle, et tais-toi»، أي «كوني جميلة واصمتي». وتقول الرائعات الفتّاكات «كوني امرأة واصمدي»! اصمدي على أرض المطالبة بحقك كما صمدت خولة بنت ثعلبة -رضي الله عنها-، واصمدي كما صمدت أم سلمة -رضي الله عنها- في سلك الحكمة والرجاحة.

اصمدي، وسيصمتون. جعجعتهم عَرَض انسحابي مؤقت، بعدها سيشفون على يديك.

الآن فقط عرفت لماذا ليس لدي «هلو كِتِي» الجميلة فم!

لن أكون باربي حينما أكبر، باربي صغيرة، وحقيرة، ورخيصة. باربي بعوضة أمام جمالك وبهائك يا دكتورة استقلال. باربي وفيرة مثل الكثبان الرملية، أما أنت فصناعة حصرية (Haute Couture). عالية الكعب أنت، فما حاجتك إلى حذاء مدجج بكعب متعب؟

حينما أكبر سأكون نجمة مستقلة تبرق وحدها، ومن حولها تدور الكواكب

والفراشات الكونية وبقية كائنات المجرّة. سأكون نجمة تهابها الثقوب السوداء، ولأجلها تطلق الأقمار الاصطناعية وترسل بعثات الفضاء. سأكون مقصد مكوكاتهم التجسسية، وكاميراتهم التلصصية، سأكون ظاهرة كونية لا قبلها ولا بعدها. سأكون شيئا تسير من ورائه النساء، شيئا ينورهن ويحررهن ويثورهن ويغيرهن. سأكونك يا دكتورة استقلال.

* * * * *

ذهبت إلى بيت ريم، زميلتي في المدرسة، وجارتنا في الحي. لديهم هوائي كبير يلتقط بث الـ CNN. كنت مصرة على متابعة الأخبار بالإنكليزية بعدما عرفت أني لن أدرس الإنكليزية إلا بعد سنتين، ولو كنت في الكويت لدرستها العام المقبل. هذه مصيبة، يمنى ستتفوق علي أكثر وأكثر. أصر مشاري على مرافقتي، يقول أنه محرمي!

أحاول أن أحفظ قدر ما أستطيع من كلمات كثيرة التكرار: «شوارتسكوف»، «بوش»، «گورباتشوف»، «توماهوك»! لا يهم إن كانت كلمات أو أسماء أشخاص، المهم أن أكون مستعدة لنفش ريشي الطفولي في حال لو التقيت بيمنى في يوم من الأيام.

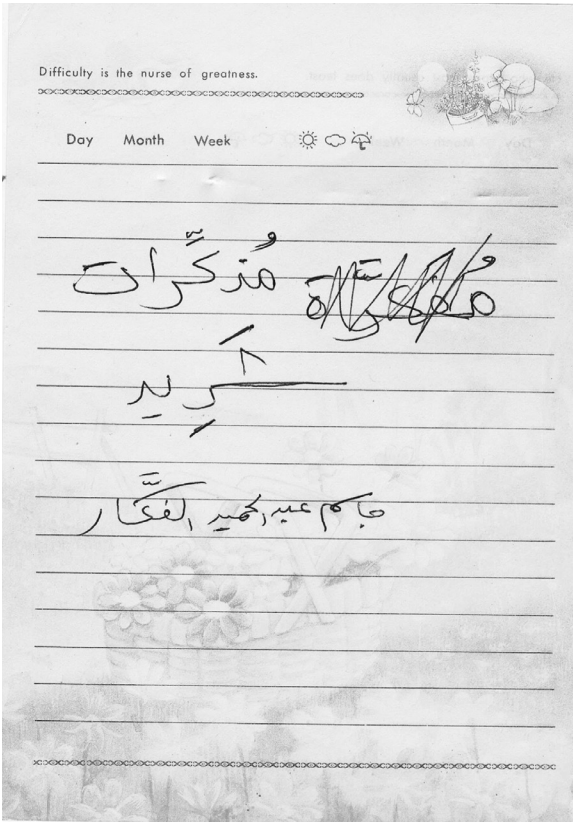

الصفحة الأولى من "مذكرات شريد" التي كان جدي يدوّن فيها يومياته أثناء فترة الغزو.

فجر الانعتاق

يناير يهمي، وصافرة الإنذار-صديقتي القديمة- عادت تجري التمارين لصوتها المبحوح تحسبا لأي طارئ. هل ستخذلني صديقتي الصافرة هذه المرة أيضا؟

تتسربل البناية بمنتجات البلاستك؛ الأشرطة اللاصقة والأكياس تحيط بالنوافذ من الداخل والخارج، والمكيفات تتكيّس بأكياس قمامة سوداء. صناديق الطعام والأقنعة المتأهبة تحرضنا لنلعب لعبة الحرب.

مشاري: هيا نلعب لعبة الصواريخ.

أنا: أنا الصاروخ الطيب، وأنتَ الصاروخ الشرير!

مشاري: حسنا، أنا صاروخ «سكود».

أنا: وأنا صاروخ «بيت بوت»[٨٠].

موضي: وأنا؟!

مشاري: أنت صاروخ الكيماوي!

أنا: هيا بسرعة نرتدي الأقنعة.

موضي: لا، أنا الصاروخ الطيب.

مشاري: حسنا، أنتِ «أم المعارك».

موضي: أم المعارك صاروخ طيب؟

٨٠: بيت بوت: هكذا كنت أسمّي صاروخ «پيتريَت» Patriot الشهير!

أصمت وأشيح بناظري عنها، فتفهم الرسالة وتقول لمشاري متحدية:
- لا، أنا خماسي!

* * * * *

يناديني جدي، وفي يده قنينة «شامبو».
- لولو تعالي شاهدي الـ«شامبو». هل تعرفين ما نوعيته؟
أسحب القنينة من يده، وأتأمل في الكلمة الإنكليزية وكلي يقين أني لا أعرف قراءتها، لكني أتظاهر بأني في طور قراءتها، إذ لا يمكن أن أسمح لكرامتي أن تهان.
- انظري، مكتوب على الـ«شامبو» «شوارتسكوف»!
- الله! «شوارتسكوف» الذي يظهر في التلفزيون؟
- له نفس الاسم.
- لا، لا، بل أكيد أنه هو.
وأختطف القنينة من يد جدي، وأفر بها إلى شقة عمتي سلوى، أصرخ منادية مشاري وموضي لأمر هام.
أنا: شاهدوا، مكتوب على الـ«شامبو» «شوارتسكوف».
مشاري: الله! من أين حصلت عليه؟
موضي: ماذا؟ ماذا؟
مشاري: هذا «شامبو» « شوارتسكوف» الذي يظهر في التلفزيون. إذا غسلت شعرك به كل يوم، ستعود الكويت!
يكرر مشاري ألعابه السمجة على أخته ذات السنوات السبع. هذه المرة

تصدقه موضي، وتطلب من عمتي في كل يوم أن تغسل لها شعرها به، وتستجيب عمتي -وبسهولة غريبة- لتوسل موضي!
أوَتعلمون؟ أنا أيضا اشتريت من هذا الـ«شامبو»، وصرت أتحجج لغسل شعري في الشتاء البارد. أحيانا يكون التفكير التمنيَويّ حلوا، أحيانا لا بأس من أن نسمح للوهم-الأملي أن يزورنا.
بعد أيام، يأتيني مشاري راكضا ليعلن هذا النبأ الهام:
- لولو، عمتي سلوى أيضا تغسل شعرها بـ«شامبو» «شوارتسكوف»!
- كيف عرفت؟
- كل مرّة تستحم فيها عمتي، تنقص قنينتي كثيرا.
وأين الغريب في الأمر؟ لدى عمتي قابلية لتصديق الأوهام تفوق قابلية أطفال العالم مجتمعين.
بعد ثوان أنتبه إلى قوله «قنينتي»، فأسأله وعلى وجهي ابتسامة مكتشف كنز:
- قنينتك؟ إذا أنت أيضا تغسل شعرك بهذا الـ«شامبو» مثلنا؟
يوشك مشاري أن يقصفني بمجموعة من اللاءات والدفوع بأنه كان يقصد قنينة موضي، لكنه خرّ مسلّما بالحقيقة.

* * * * *

تهتز سن جديدة، فأستجدي أمي أن تسمح لي بقرش الثلج كي تساعدها على السقوط. وإذا كانت عمتي سلوى سمحت لموضي بمحرّم وهو غسل شعرها بـ«شامبو» بخلاف «لا دموع بعد اليوم»، فكيف لا تسمح لي أمي بأكل مكعبات الثلج؟

تسمح لي أمي، لكن هذه السن العنيدة تأبى أن تسقط. أضربها بمكعبات الثلج، أكويها بزمهريرها، وتظل مرابطة في لثتي.

توقظني أمي في صباح السابع والعشرين من فبراير. «أمس تحررت الكويت»، تقول لي. أقفز فوق فراشي، أبحث عن أغنية أغنيها فرحا، وما أن أفتح فمي لأصدح حتى تسقط سني الحرونة. آخر الأسنان اللبنية في فمي تغادرني، تتركني حرّة ومنتعشة وناضجة.

حينما قال فيصل أن هذا سيحدث في الحرب العالمية الثالثة، قلت له أن هذه الحرب وقعت فعلا! أخذ يقهقه وظن أني أمزح، ولم أشأ أن أخبره بنظريتي الخديجة إلا بعد أن أتأكد منها.
حينما قامت الحرب العالمية الثانية، نشأ نظام الثنائية القطبية. وحينما وقعت حرب الخليج الثانية، نشأن نظام القطب الواحد. ألا يجعل هذا من خصائص الحروب العالمية نشوء أنظمة جديدة؟ جهلاء هم من يحسبون عالمية الحروب بعدد الدول المشاركة فيها وباتساع رقعتها.

من مذكرات بابا جاسم، ١٣ مارس، ١٩٩٢

* * * * *

تطوّقني أمي بسبع شرائط في طرف ضفيرتي، كانت ضفيرة فرنسية أحصل عليها وللمرة الأولى من يدي أمي. فغدا نعود إلى الكويت. رغم الفراغ الجديد في فمي، تبّسمت وتبّسمت وتبسّمت. سأشرب الحليب، ولن أهاب

الطبقة التي تعلوه، لأني نضجت وصرت أعلم أنه بلا مرارة لا نكبر، وبلا منغصات لا ننضج، وإن لم نتألم، لا نتعلم. لقد حفظت الدرس جيدا: كل مؤرق، مورق. شاطرة أنا، شاطرة. ألست كذلك أيها الكبار؟!

أجابه الدنيا بابتسامة خاصة جديدة، أريها أسناني الشامخة التي لا تهتز ولا تتبدل؛ أسنان تلمع كاللُّولُو. أمتشق آمالي، وأمضي في طريق الاستقلال، والتحرر.

تَمَّت

تمت بحمد الله.

أكتوبر ٢٠٠٨- فبراير ٢٠١٢.